أفق أنت تحلم

حياة مسعودي

رواية

أفِق أنت

ADLIS

الطبعة الأولى: 1445 هـ/ 2023 م

رقم الإيداع ISBN: 978-9931-243-63-2

الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2023

اسم العمل: أفِق أنت تحلم "الجزء 1"

اسم المؤلف: مسعودي حياة

إخراج فني وتدقيق: جِنان ربيعـي

الناشر: أدليس بلّزمة للنشر والتوزيع

الفيسبوك: أدليس للنشر والترجمة والتصميم

البريد الإلكتروني: adlisedition@outlook.fr

الهاتف: 0777892744/0672983254

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص، والنسخ أو التعديل، إلا بإذن من الناشر.

حياة مسعودي

أفِق أنت تحلم!

الطبعة الأولى

2023

إهـداء:

أهدي أوّل مولود أدبي، لكلّ من يتّخذ القراءة ملاذًا آمنًا، يلجأ إليها، ليتّخذها أنيسًا، ومؤنسًا.

لكلّ القرّاء، الذين يتعاقبون على قراءة هذا المولود، حللتم علينا أهلًا، ونزلتم بإذن الله سهلًا.

أرجو لكم قراءة ممتعة.

تنـويـه:

هـذا الكلام موجّه، لكلّ من تسوّل لـهم أنفسهم أخذ جزء، أو مقطع من هذه الرّواية، دون علمنا، لينسبوها لهم، تحت مُسمّى السّرقة الأدبيّة، التي يجرّمها القانون، سوف لن نتوانى في رفع دعوة قضائيّة، اتّجاه أيّ شخص، يقوم بهذا الفعل، كائنًا من يكن، كما لن نتنازل تحت أيّ ظرف، إلّا بعد أن تتمّ معاقبته بالسّجن، وليس بتعويضٍ مالي، أو غيره.. وقد أُعذِر من أنذر.

خرجتُ من العمل كعادتي منهكًا، ومتعبًا، لدرجة أنّي لا أكاد أرى أمامي، فقد كان يومًا شاقًّا، وطويلًا، وحارًّا، ودّعتُ زملائي على عجل، وانطلقتُ مسرعًا بسيّارتي للبيت، لآخذ قسطًا من الرّاحة، وقبل أن أفتح الباب، سمعتُ أمّي تصرخ بصوتٍ عال، لدرجة أنّ أركان البيت كادت تتقوّض بسببه، فأمّي دائمًا ما تستثير المشاكل كعادتها، مع كلّ من حولها، فتحتُ الباب، وأنا أدعو الله بأن يخلّصني من غضبها، فهي من النّوع الذي إن غضب، أحرق الحيّ بأكمله، دخلت، وما كدتُ أفعل، حتّى استدارت لي، متأمّلةً إيّاي بعبوس، والشّرر يتطاير من عينيها، قبل أن تصيح في وجهي (قائلة):

- كُلّ هذا منك!

تركتها تُكمل حديثها، وصعدتُ الدّرج، وأنا لا أكاد أقوى، على حمل جسمي المنهك، بخطى متثاقلة، أجُرُّ نفسي جرًّا لغرفتي، وهو ما استفزّها، أين استرسلت في حديثها:

- طبعًا.. حين لا يعجبك الكلام تمشي، أو تبقى صامتًا كالصّنم.

دخلتُ لغرفتي، وأغلقتُ الباب على نفسي، لأرتمي على السّرير، لعلِّي أنام، وإذْ بزوجتي جاءت، لتسمعني شكواها، وكأنّني قاضي، وما كادت تفتح فمها، حتّى صرختُ فيها:

- اخرجي.. وأغلقي الباب بإحكام، أريد أن أنام.

فرّت زوجتي، لأنّها تعرف معنى أن أصُبّ جام غضبي عليها، وأنّى لي ألّا أكون عصبيًّا! وقد ورثتُ هذا عن أبي، وأمّي.. وأخيرًا صار متاحًا

لي، أن آخذ قسطًا من الرّاحة، بعد خروجها، وقد هدأ جنون، كلّ من في البيت، غفوت، ولم أدرِ ما حولي، هل أنا في الدّنيا، أم معلّقٌ بين السّماء، والأرض؟ وقد تجمّدت أطرافي، من فرط التّعب.. وفجأة رأيتُ حُلمًا، أشبه بالكابوس، كان حلمًا غريبًا، بعض الشّيء، صرتُ بسببه أتصبّبُ عرقًا، عرقٌ أشبه بغيث، من السّماء نزل، فغسل الأرض بمائه، نعم لقد كان حلمًا غريبًا، ومزعجًا في آن واحد، حلمٌ لا يمكنني وصفه بأيّ حال.. دخلت أمّي في هذه الأثناء (وهي تصرخ كعادتها):

- قم يا حامد، قم لتسمع هذا الخبر، لقد عاد أبوك، أبوك لم يمت!

من هول الصّدمة، وقعتُ من على السّرير، غير مصدّقٍ ما سمعت، ولم أعد أدري، هل أنا في الحقيقة أم الخيال.. قلت:

- ماذا.. أبي.. عاد أبي.. كيف هذا؟ هذا لا يُعقل.. بل هو مستحيل، كيف له أن يعود، وقد مات منذ سنة؟ بالله عليكِ قولي كلامًا، غير هذا يا أمّي.. أرجوك دعيني أنام، فهذا ليس وقت مزاح..

فقاطعتني أمّي (قائلة):

- ليس مزاحًا، بل الحقيقة يا بُنيّ.. لقد كنتُ مثلك تمامًا، ولم أصدّق في البداية، ما قاله العمّ رشيد، الذي جاء ليخبرني، فور رؤيته لأبيك، والنّاس محيطون به، يهنّؤونه بعودته سالمًا، وهُم في حيرة من أمرهم، وهو الآن قادمٌ نحو البيت.

لم أتمالك نفسي، من هول ما سمعت، أبي الذي مات، منذ سنة، وأخذنا عزاءه، عاد للحياة؟ عاد.. وقد غرقت الباخرة، التي كان

فيها، ومات كلّ ركّابها، بمن فيهم هو، مستحيل؟ أيّ بلاءٍ هذا الذي حلّ علينا؟ بعد أن ارتحنا طيلة سنة، من غطرسته، وأوامره، والآن وقد عاد للحياة.. وفجأة، وأنا أسترسل في أفكاري، حتّى قاطعتني أمّي:

- أين شطح بك خيالك يا بنيّ؟ النّاس ينتظرون خارج المنزل، تُرى، ماذا سيقولون عنّا؟ وكلّ من سمع بعودة أبيك، جاء ليهنّئه، ما عدا أهله؟ اذهب، لتستقبله معهم، ولا تحرجنا أكثر.. سأذهب، لأخبر باقي إخوتك الآن.

خرجتُ من البيت مسرعًا، لأتأكّد من صحّة ما سمعت، فإذا بالعمّ رشيد يأتي مُهرولًا نحوي، ليبشّرني بالخبر (قائلًا):

- مباركٌ عليكم، عودة والدكم يا حامد.

- وأين هو الآن؟

- إنّه آتٍ للبيت، ولكنّه يُسلّم على النّاس، الذين تجمهروا حوله، فمعظمهم أخذه الفضول، لرؤية والدك حيًّا، بعد غيابٍ دام سنة كاملة، فضولهم هذا، جعلهم يغلقون الشّارع، لكثرة عددهم.. سبحان الله! من يقول بأنّ هذا سيحصل؟ ما بك؟ ألن تذهب للقاء والدك؟

تردّدتُ قليلًا، قبل أن أذهب، فقد أحسستُ ببرودة، في مفاصلي، ورعشة دبّت في جسدي بأكمله، فأنا لم أره طيلة سنة كاملة، تُرى هل تغيّر، بعد هذه السّنة، التي قضاها بعيدًا عنّا؟ أما زال عصبيًّا، وصعب المراس كعادته؟ آمل أن يكون قد تغيّر، ولو قليلًا..

وبعد لحظات من التّردّد، والحيرة، سرتُ مع العمّ رشيد، إلى حيث يوجد أبي، لنتفاجأ بعدد كبير من النّاس حوله، يهنّؤونه بعودته سالمًا، سرتُ بخطى متثاقلة، والعمّ رشيد يمسكني، من يدي، ويجرّني جرًّا، كطفل صغير، وهو يجتاز بي تلك الجموع الغفيرة، حتّى تراءى لي خيال أبي، هو أبي نفسه، لم يتغيّر، فقط أصيب ببعض الهزال، استدار نحوي فجأة، بعدما ناداه العمّ رشيد، ورمقني بنظرات، اختلطت فيها مشاعره، بين الفرح والحزن، لدرجة دمعت معها عيناه، وهو يدنو منّي، ليحضنني بلهفة كبيرة (قائلًا):

- كيف حالك يا بُني؟ لقد اشتقت إليك.

ثمّ سكت فجأة، وكأنّ الكلام قد أصبح للحظة، غصّة في حلقه، فلم يعد يقوى، على التّعبير أكثر، بعد هذا، واختنق صوته، في داخله، وهذا ما زاد من حيرتي، واستغرابي، أيُعقل أن يكون هذا أبي فعلًا؟ أم شخصٌ آخر، يشبهه؟ نظرتُ إليه، وقد عجزتُ عن التّعبير، بحيث لم أكد أصدّق ما أرَ، أبي ذاك الرّجل المتسلّط، الذي لم أعهده من قبل، تعامل معنا بلطف، كما فعل معي الآن، أبي الذي مات، يعود للحياة، بعد سنة كاملة، من الغياب؟ أصلًا أنا لا أكاد أتذكّر، بأنّ أبي صاحب الشّخصية، التي يهابها الجميع، عانقني في حياته..

بعدما انتهى الجميع، من إلقاء التّهاني، عدنا أدراجنا إلى البيت، وهناك قابله إخوتي، خالد، ونريمان بنفس الدّهشة، فقد سمعوا الخبر للتّو، من أمّي.. أين عانقهم، الواحد تلو الآخر، وبنفس الشّوق، أمّا أمّي

فاكتفت بالوقوف بعيدًا، بحيث ظلّت متسمّرة، في مكانها، ولم تبرحه، حتّى اقترب أبي منها، ليسلّم عليها (قائلًا):

- كيف حالك يا خديجة؟

فردّت عليه (وشفتاها ترتعش):

- بخير.. بخير.

وسكتت، وفي وجهها ألف علامة استفهام، وسكت الجميع معها، ونحن على هذا الحال، وإذْ بأحدٍ يدقّ الباب بقوّة.. كانت زوجة أبي، آه.. يا إلهي، لقد ارتحنا من مشاكلها، طيلة سنة، وهي التي لم تكلّف نفسها، عناء السّؤال، كلّ هذه المدّة، أما وقد عاد أبي، فسترجع معه كلّ الأمور المزعجة، وبمجرّد أن دخلت حتّى بدأت، بالتّمثيل كالعادة، قالت (والدّموع تنهمر من عينيها):

- آه.. يا زوجي العزيز، كيف حالك؟ أنا لا أصدّق عودتك للحياة مجدّدًا، كدتُ أُجنّ، حين سمعت خبر موتك المزعوم، الذي حلّ علينا أنا وأولادي كالصّاعقة، حمدًا لله على سلامتك، عودتك بمثابة عودة الرّوح للجسد، إنّه حقًّا لخبرٌ صادم، لكلّ من فرح لموتك.

قالت هذه الجملة، وهي تشير بنظراتها لأمّي، ولنا كذلك، وكأنّها تريد القول، أنّنا قد فرحنا لوفاته، بصراحة لم نستغرب، حين سمعنا هذه العبارات، فقد تعوّدنا على لسعاتها، فهي أفعى في هيئة إنسان، تتّهمنا بالفرح لموته، وهي التي طارت من الفرح، حين سمعت خبر وفاته، وفعلت المستحيل، لتحصل على القدر الأكبر من الإرث، لابنها هاني،

ولو على حسابنا، نحن إخوته، وهنا نفذ صبر أمّي، التي أنساها حضور زوجة أبي دهشتها، فبادرتها:

- ماذا جئتِ تفعلين هنا، أيّتها الأفعى؟ ألم يكفك ما عانيناه، طيلة هذه المدّة بسببك، ومن سُمّكِ الذي تدسّينه لنا، في كلّ مرّة؟ اخرجي من بيتي، وإلّا..

نزل كلام أمّي عليها كالصّاعقة، فلم تترك لها المجال، كي تكمل كلامها، حتّى قاطعتها، لخوفها من أن تكشف أمّي المستور، أمام أبي، فقالت (وهي تتظاهر بالبكاء مرّة أخرى):

- أسمعت يا سالم؟ أسمعت زوجتك، وهي توجّه لي الاتّهامات الباطلة؟ وأنا الوحيدة التي حزنت لأجلك، حزنًا شديدًا، طبعًا عليها أن تقول هذا الكلام، لتغطّي على أعمالها الشّنيعة، هي وأولادها، الذين أرادوا أخذ حقّ ابني هاني، من الميراث..

نظرنا إليها - أنا وإخوتي- مستغربين من وقاحتها، وقدرتها اللّامتناهية على تمثيل دور البريئة، ونحن على هذا الحال، حتّى صرخ فينا أبي:

- اغربوا عن وجهي كلّكم، أريد أن أرتاح، ألا تفهمون؟

انتشر الجميع فجأة، فور سماع صراخ أبي، أمّا زوجة أبي فلم يدرِ أحد، كيف اختفت عن الأعين، وكأنّها لم تكن موجودة معنا أصلًا، إذْ وبالرّغم من مكرها، إلّا أنّها تخشى غضب أبي، الذي لن يتوانى في أن يمسح بكرامتها الأرض، وهو ما لا تتحمّله، خاصّة أمام عدوّها اللّدود "أمّي".

***

صعدتُ لغرفتي، وأنا متعب، ومُحمّلٌ بهموم أثقلت كاهلي، لدرجة أنّني لم أعد أستطيع، حمل جسمي المنهك، ارتميتُ على السّرير، كعادتي حين أجرّ خيباتي، معي لغرفتي، ورحتُ أفكّر في كلّ ما حدث هذا اليوم.. آه يا إلهي، ما كلّ هذا؟ أنا لا أكاد أصدّق كلّ هذا، عقلي لا يكاد يصدّق، بأنّ أبي رجع للحياة؟ لترجع زوجته الشّريرة، التي فعلت المستحيل، لتدمّر مستقبلنا كلّنا، والتي لم يهنأ لها بال، طيلة هذه السّنة، حتّى تتحصّل على النّصيب الأكبر، من التّركة لابنها، ألم يكفها أنّها كادت تدمّر مستقبل أخي رؤوف، الذي هرب بسببها للأرجنتين؟ وهي التي سعت جاهدة، بأن تلفّق له تهمة التزوير، بالتّعاون مع أخيها، الذي وشى به لأبي زورًا، بحيث اتّهمه بتزوير مستندات، بملايين الدّولارات، هذا الأخير الذي لم يتردّد للحظة، عن التّبليغ، عن ابنه الأكبر، ليزُجّ به في السّجن.

حقدها على أخي، كان لسبب وحيد، وهو أنّه كان الذّراع الأيمن لأبي، والذي يعرف كلّ شاردة، وواردة عن أعماله، وصفقاته ومشاريعه، وهذا ما جعلها تسعى جاهدة لإزاحته، حتّى تُهيّء الجوّ لابنها هاني، ليحلّ محلّ أخيه، وكان لها ذلك.

تُرى ما الذي سيحصل، بعد الآن، وقد عاد أبي، وبعودته يعود كلّ الأشرار، الذين سيفعلون المستحيل، ليحقّقوا ما لم يستطيعوا تحقيقه، من قبل، وخاصّة زوجة أبي، التي ستحاول التّأثير، على هذا الأخير،

ليكتب كلّ شيء باسم ابنها، حتّى لا يبقى لنا بعد ذلك سوى الفُتات، هذا إن بقي شيءٌ أصلًا.

آه لو أنّ التّركة قُسّمت، خلال هذه السّنة، كنّا ارتحنا من كلّ ما سيحصل، بعد عودة أبي، وكان كلّ واحد قد أخذ حقّه، ولكن هذا كلّه بسبب تلك الحيّة، التي جنّدت المحامين، لأخذ حقّ ابنها، بل وهضم حقوق إخوته، هي من عرقلت سير تقسيم الميراث، وكأنّها كانت متأكّدة تمامًا، بل وواثقة من عودة أبي، حدسها جعلها تحسّ بذلك.. بصراحة، لم أكن أتوقّع، بأنّ للأشرار حدسًا قويًّا، بهذا الشّكل، كنت أظنّه حكرًا على الأخيار فقط..

استغرقتُ مطوّلًا، في أفكاري، حتّى غلبني النّعاس، فنمتُ نومًا عميقًا، نومٌ لم أنمه في حياتي، لم أستفق منه، إلّا على صوت زوجتي، وهي تضع يدها، على كتفي (قائلة):

- قم يا حامد، قم.. حتّى تذهب للمستشفى.

صحوتُ من النّوم، ثمّ سألتها:

- أوه.. ولكن كم السّاعة الآن يا جَنى؟

- إنّها الحادية عشرة.

فقلتُ (مستغربًا):

- كلّ هذا وأنا نائم؟ لقد تأخّرت، كيف نسيتُ أمر المؤتمر الطّبي، الذي كنت أنتظره، منذ شهر كامل؟ آه، يا إلهي، عليَّ أن أحضّر نفسي

جيّدًا، بقيَ على المؤتمر ساعتان فقط.. عليَّ ألّا أفوّت هذه الفرصة من يدي.

قمتُ على عجل، ثمّ توجّهتُ للحمّام، أين غسلتُ وجهي، ومن ثمّ نزلت للمطبخ، لأشرب فنجانًا من القهوة، وإذْ بأمّي ترمقني بنظراتها الحادّة، وهي تحتسي القهوة مع نريمان، وما إن جلستُ بجانبها حتّى أمطرتني بوابل من التّوبيخات، كعادتها حين تكون غاضبة، وتبحث عن شخص، لتصبّ جام غضبها عليه:

- أين هي زوجتك؟

- صباحُ الخير أوّلًا.. ما بك يا أمّي، ألا يمرّ يومٌ دون أن تتذمّري؟ ألا تملّين من هذه الأسطوانة؟

- ألم أنبّهك سابقًا، بأنّ لهذا البيت قواعده، وقوانينه؟ ألم أنبّهك، بأن تخبر زوجتك، أنّي أكره العبث والكسل، وأحبّ كلّ شيء في وقته.

قلت لها، بعد أن نفذ صبري:

- ما بك يا أمّي؟ ما لي أراكِ عصبيّة اليوم؟ ثمّ إنّ ليث ظلّ طول اللّيل يبكي، ولهذا صحونا متأخّرين، أما طلبتُ منكِ مرارًا، بأن تعفيني من هذه الصّراعات، التي لا طائل منها، ثمّ إنّه لديّ مشاغل كثيرة، وليس لديّ الوقت، لسماع هذا الهراء اليومي..

وفي هذه الأثناء نزلت زوجتي، وهي تحمل ليث، وما إن رأتها أمّي حتّى صرخت فيها، وكأنّي لم أحدّثها أصلًا:

- وأنتِ؟ ألم تفهمي بعد، بأنّكِ تعيشين مع عائلة مرموقة؟ لهذا البيت أصوله وقواعده.. الاستيقاظ يكون على الثّامنة صباحًا؟ ألم أخبركِ بهذا أكثر من مرّة؟ أم إنّكِ تريدين أن تتحدّيني؟ سبق لي وأن أخبرتك، بأنّ العيش مع العائلات المرموقة، ليس كالعيش، مع العامّة من النّاس، يبدو لي جليًّا، بأنّكِ ستظلّين من العامّة، ولن تتغيّري أبدًا.

وهنا احتدم النقاش، وأصبح على أشدّه، وذلك حين ردّت زوجتي:

- أعرف بأنّكِ لا تحبّينني، ولهذا تتحجّجين بأتفه الأمور، لتظهري كرهكِ كلّ يوم، كلّ النّاس يعرفون، بأنّكِ كنتِ تريدين تزويج حامد، من ابنة عمّه نور، وحين فشل هذا المشروع، لم تتقبّلي أن يصاهر ابنك، عائلة بسيطة كعائلتنا، أو كما تطلقين عليها أنتِ العامّة، لولا أنّ عمّي هو من وقف في وجهك، وزوّجني لحامد، رغمًا عنك.

وهنا نهضتُ من مكاني مشمئزًّا، فقد سئمتُ سماع نفس الموشّح، كلّ يوم، وما إن أدرتُ وجهي، ناحية الباب، حتّى بادرتني زوجتي:

- أنت هكذا.. حين تأتي سيرة ابنة عمّك تهرب، لكيلا تحسّ بالإحراج، أليس كذلك؟ وطالما ما زلت تحبّها هكذا، لما تزوّجتني إذًا؟ يبدو بأنّه لا أحد يحبّني، في هذا البيت، سوى عمّي سالم.

فقالت أمّي:

- أتقارنين نفسكِ بنور؟ لولا أنّ أبا حامد قد فرضكِ علينا، لما كنتِ هنا أصلًا.. لن أسامحك يا سالم، على فعلتك هذه.

ثمّ سكتت قليلًا، قبل أن تضيف:

- لسنا مضطرّين لمجاملتك، أتعرفين لماذا؟ لأنّ نصف عائلتكِ متبوعون قضائيًّا، والنّصف الثّاني بالسّجن، أيّ زيجة هذه، التي تورّطتَ فيها يا حامد؟ أنت تستحقّ أحسن من هكذا نصيب.

وهنا انسحبت، وتركتُهما وقد علت أصواتهما، حتّى بدأت حيطان المنزل ترتجّ، من قوّة صراخهما، بل وامتدّت خارج أسوار المنزل، ولو كان المنزل إنسانًا، لكان اشتكى منهما.. آه، يا إلهي، ما هذا البيت المجنون، الذي ابتليتني به؟ ألا يستطيع المرء أن يعيش في هدوءٍ أبدًا؟ أشحتُ بنظري عنهما، فرأيتُ نريمان تنظر لي، بابتسامة ماكرة، وتشير بعينيها لأمّي، وزوجتي، وكأنّها تريد القول: كان الله في عونك.

خرجتُ من المنزل أخيرًا، بعدما صعدتُ لغرفتي، وغيّرتُ ثيابي، أين وجدتُ أخي خالد، يسقي شجيرات الحديقة، وبعد أن ألقيتُ عليه التّحية، سألته عن أبي، فأخبرني بأنّه قد نهض، وخرج باكرًا، قاصدًا الشّركة، ليباشر أعماله من جديد، ويتفقّد ما حصل في غيابه، اتّجهتُ للمستودع بعدها، وأخرجتُ السّيّارة، لكي أتّجه للمشفى، اجتزتُ تلك الشّوارع، ولم يكن في بالي سوى موضوع رجوع أبي، لدرجة أنّي لم أدرِ بكلّ ما حصل، من وقت خروجي، إلى أن وصلت، فقد كنتُ مستغرقًا في التّفكير، حتّى وجدتني أدخل، من الباب الخلفي للمشفى، وما إن فعلت حتّى رأيت المدير، الذي صاح قائلًا، فور رؤيته لي:

- أين أنت يا حامد؟ ألم يخبرك البروفيسور وليد، عن هذا المؤتمر، منذ أكثر من أسبوع؟

- بلى.. لقد أخبرني، ولكن..
فقاطعني:
- من المفروض أن تكون هنا، منذ الصّباح، لتعرف المستجدّات.
فسكتُّ، ولم أدرِ بما أجيب.. وهنا عاد، ليستأنف الحديث:
- حسنٌ، اذهب للبروفيسور وليد، ليخبرك بالمزيد، من التّفاصيل، آوه، نسيت بأن أخبرك، لقد تمّ تعيين ابنة عمّك، في هذا المستشفى، واليوم هو أوّل يوم لها معنا، وستحضر للمؤتمر، لتأخذ فكرة، عن طبيعة المؤتمرات الطّبّيّة.
- نور.. تمّ تعيينها اليوم؟
- أجل، ألم تخبرك بذلك؟ لقد انتهت فترة تكوينها، في سويسرا..
وسكت قليلًا، ثمّ تابع كلامه:
- حسنٌ.. اذهب الآن، فلا وقت لدينا للأحاديث الجانبيّة.
مشيتُ بعد أن تركني المدير، وأنا مستغربٌ كيف أنّ الوقت مضى بهذه السّرعة، وها هي ذي السّنون تمرّ، في لمح البصر، كانت آخر مرّة رأيتُ فيها نور منذ سنتين، وهي تبكي، حين سمعتْ خبر خطبتي، من جنى، ابنة صديق والدي، لقد كان يومًا حزينًا، علينا نحن الاثنين، حاولتُ يومها جاهدًا، أن أهدّئ من روعها، حاولتُ أن أخبرها، بأنّ والدي هو السّبب، في هذه الخطبة، التي لم أكن فيها، إلّا كإنسان، مغلوبٍ على أمره، إنسانٌ فقد حرّيته، منذ تلك اللّحظة، التي أصبح فيها عبدًا لأهواء والده، عبدًا في زمن الانفتاح والحرّيات، عبدًا في زمن

انتهت فيه، كافّة أشكال العبوديّة المعهودة، ولكن هيهات.. فيومها لم تعطني أيّ فرصة، لأشرح لها كلّ هذا، ومنذ ذلك اليوم لم أرها، ولم أعرف عنها شيئًا، وانقطعت أخبارها كليًّا.

تُرى كيف هي الآن، وهل تغيّر شكلها؟ انتابني فجأة شعورٌ ما بالحنين، الحنينُ للماضي وذكرياته، حين كنّا صغارًا، حيث كان دفئ العائلة يحيطنا، والجدّة التي كانت تجمعنا حولها، لنتسامر في ليالي الشّتاء، حول ذاك اللّهب المنبعث من المدفأة الحجريّة، والذي يتموّج بألوانه الحمراء تارة، والزّرقاء أخرى، ليضفيَ على قلوبنا الصّغيرة، شيئًا من البهجة، بالإضافة للضّوء الخافت، الذي ينبعث، من داخل ذاك السّراج القديم، والذي يبعث في داخلنا، شعورًا ما بالنّعاس، لكنّ شوقنا لسماع قصص جدّتي، عن الغولة، وقصّة علي بابا، وغيرها من القصص الشّعبية، يجعلنا نقاوم هذا الإحساس بالنّعاس.

شعوري بالحنين، أخذني كذلك، إلى حيث كان النّاس متحابّين، والجيران إخوة، يساعد غنيّهم فقيرهم، ويعطف قويّهم على ضعيفهم، تذكّرتُ كيف كانت جدّتي -رحمها الله- تقول لأمّي، بأنّها ستزوّجنا أنا ونور حين نكبر، كانت أمّي تبتسم حينها، لكلامها هذا، وتبادرها:

- إن شاء الله.

لازلتُ أذكر تلك الأيّام الجميلة، والمليئة بالمودّة، حيث كان أبي يجلس مع جدّي، وأعمامي، ليتناقشوا حول بعض المشاريع، كلّ هذا وهم يحتسون الشّاي السّاخن، ويتسامرون في ليالي، الصّيف الجميلة،

تتعالى ضحكاتهم، لتصل عنان السّماء، ولكن لا شيء يدوم، لا الحزن ولا الفرح، كلّ هذا تغيّر، بعد وفاة جدّي، واقتتال أبي، وأعمامي، على الميراث، هذا الصّراع الذي أدّى للقطيعة، في الأخير، وهو الأمر الذي لم تستسغه جدّتي، التي توفّيت، بعد وفاة جدّي بسنة، لأنّها لم تتحمّل رؤية أبنائها يقتتلون، ويتنافرون بسبب المال، الذي تعب أبوهم، من أجله، بل وأفنى عمره، في جمعه، لضمان حياة كريمة لأولاده، بعد موته، ولكنّ هذا كلّه، قد ذهب هباء، بمجرّد أن توفّي، وتغيّرت حياتنا كلّنا بعد ذلك، فبعدما كانت المودّة، والإخاء يجمعاننا، بعد أن كانت حياتنا حلمًا، يتمنّاه كثيرون، تلاشت هذه المعاني، من قاموس حياتنا، لتحلّ محلّها الصّراعات، والمحاكم، فصارت مشاكلنا حديث القرية، ما جعل وجهاءها يتدخّلون، ليصلحوا العلاقة، بين والدي، وأعمامي، قبل حدوث القطيعة، ولكن هيهات.

توالت السّنوات مسرعة كلمح البصر، وبعد أن كبرتُ دون أن أعي، كيف مضى كلّ هذا الوقت، اجتزتُ الثّانوية، لأتخصّصَ في الهندسة الزّراعية، بالرّغم من أنّ حُلمي منذ الصّغر، كان ولوج عالم الطّب، وهو ما قمتُ به، بعدما أنهيتُ دراستي، أين اتّجهتُ لأمريكا، لتحقيق هذا الحلم، فدخلتُ كلّيّة الطّب، بحيث قضيتُ فيها حوالي عشر سنوات، وكُلّي أمل في العودة للدّيار، لأمارس مهنتي، التي لطالما أحببتها.

وكم شعرتُ بفرحة وسعادة غامرين، حين عدتُ لبلدي، فقد كنت توّاقًا لرؤية عائلتي، وأهل القرية، ولكنّ أكثر شوقي كان رؤية نور، حين

عدت، أخبروني بأنّها قد تفوّقت، في دراستها، فرحتُ بشدّة، لسماع هذا الخبر، فهي الأخرى، كانت تريد أن تصبح طبيبة، فرحتُ لأنّنا قد نجحنا نحن الاثنين، في تحقيق واحد من أهمّ أحلامنا، وربّما هو الحلم الوحيد، الذي استطعنا تحقيقه، لأنّنا وفي حقيقة الأمر، لم نحقّق أهمّ حلم بالنّسبة لنا، وهو الزّواج، الذي بات شبه مستحيل، في ظلّ عناد أبي، وإصراره على غضّ الطّرف عنه، ولكن بالرّغم من كلّ المشاكل، التي كانت بين أبي، وأعمامي، فقد ظللنا - أنا ونور- نسعى جاهدين، لإنجاح الموضوع، بحيث كنّا نؤمّل نفسينا، بما هو أفضل، كنت أحثّها دائمًا، على مواصلة حلمنا، كنّا على تواصلٍ دائم، أخبرتني حينها، أنّها قد ولجت المجال، الذي لطالما أحبّته، وهو الطّب، وأنّها تخصّصت فيما بعد، في طبّ العيون، بقيتُ طوال هذه الفترة أحاول جاهدًا، إقناع أبي، بموضوع زواجي بنور، وفي كلّ مرّة كنت أحاول فيها، إلّا وكان يرفض رفضًا قاطعًا، وبعد أن يئست، طلبتُ من أمّي، أن تحاول معه، لكن دون جدوى.

حين أنهيتُ دراستي بأمريكا، وعدتُ للبلد، قرّرتُ أن أفاتح عمّي، وهو ما تمّ بالفعل، أين ذهبتُ إليه، وطلبتُ منه أن يزوّجني بنور، ولكنّه رفض هذا العرض، جملة وتفصيلًا، ما لم يوافق أبي على مسألة زواجي، فبالرّغم من أنّ عمّي، كان على خلافٍ معه، إلّا أنّه لم يمانع زواجنا، شريطة أن يوافق هذا الأخير، وإلّا فهذا الموضوع لن يحصل.

تقدّم في هذه الفترة العشرات، لخطبة نور، ولكنّها كانت تواجههم بالرّفض، كانت تأمل في حصول معجزة ما، تجعل أبي يوافق.. وفي يوم، وقع ما لم يكن في الحسبان، وذلك حين رأى أبي مدى إصراري، على هذا الموضوع، فقرّر أن يزوّجني من ابنة صديقه المقرّب، ولم يقف عند هذا الحدّ، بل وضعني في الأمر الواقع، حين قرأ الفاتحة، هو وصديقه، مع وجهاء القرية وأعيانها، الذين كانوا يظنّون بأنّي موافقٌ طبعًا، وأنّي لم أحضر بسبب التزاماتي، المتمثّلة في الحضور، لمؤتمر خارج المدينة، طبعًا، كان هذا ما أخبرهم به أبي..

حزنتْ نور، عندما سمعت هذا الخبر، حزنًا شديدًا، ظنًّا منها بأنّي قد خنتها، واخترتُ ابنة صديق والدي، وأنا الذي قطعتُ لها عهدًا، بأنّي لن أتخلّى عنها، مهما حصل، وأنّي سأسعى جاهدًا، لتحقيق هذا الحلم، الذي بات شبه مستحيل، ومنذ ذاك الحين لم أرها، حتّى الآن، حين سمعتُ من المدير، بأنّه قد تمّ تعيينها، اليوم بالمشفى، بصراحة لا أعلم كيف سيكون لقاؤنا الأوّل، بعد مضيّ سنتين، من الفراق.. وأنا على هذا الحال، من التّفكير، حتّى سمعتُ صوتًا يناديني:

- حامد، توقّف..

فاستدرتُ للخلف، وإذا به البروفيسور وليد يأتي مهرولًا، ليسألني:

- أين أنت.. أخبرني المدير بأنّك هنا، ألم تذهب لمركز البحث العلمي بعد؟

فأجبته (وأنا مشوّشٌ كُلّيًّا):

- أوه.. لا، لم أذهب بعد.

- جيّد، سأذهب معك إذًا.

- حسنٌ، ليكن ذلك..

وتوجّهنا للمركز، أين ظلّ يحدّثني طول الطّريق، عن الموظّفين، والمدير والمستشفى، وكلّ ما حصل في الآونة الأخيرة، أمّا أنا فقد بقيتُ شارد الذّهن، ولم أنطق بحرف، لأنّني وببساطة، كنت أفكّر في نور.. وفجأة وإذْ بالبروفيسور وليد يسألني:

- أليس كذلك؟

فلم أدرِ بما أجيبه، وقلت:

- آه.. ماذا؟ ماذا قلت؟

- أين عقلك؟ تبدو على غير عادتك، ما بك؟

فابتسمتُ ابتسامة خفيفة، وقلت:

- لا.. لا شيء.

وصلنا للمركز أخيرًا، فوجدنا حشدًا من الأطبّاء، والأخصّائيّين، يجلسون في المقدّمة، كان الوقت لم يحن بعد، لبدأ المؤتمر، طلب منّي البروفيسور وليد، بأن نجلس بجانب من هُم، في المقدّمة، ولكنّي اعتذرتُ منه، وآثرتُ الجلوس في الخلف.. بصراحة، لم أعرف سرّ هذا الارتباك، الذي حلّ بي اليوم، منذ أن سمعتُ المدير، يتكلّم عن نور، كنت أخاف، من أن تفضحني عيناي، إذا ما لمحتُها.. كان قلبي يخفق

بشدّة، كطائر مجروح، وفي رأسي ألف سؤال وسؤال.. تُرى ماذا أفعل، حين تجيء؟ وإذا سلّمتُ عليها، فهل ستجيب، أم ستتجاهلني؟

بدأ المؤتمر، ودخل الأطبّاء في مناظرات، وأخذ كلٌّ منهم يُدلي بدلوه، بينما بقيتُ في الخلف، أراقب كُلًّا من الباب الأمامي والخلفي، لقد تأخّرت نور.. تُرى هل ستأتي، أم لا؟ أم تُراها تكون هنا، ولم أنتبه لوجودها؟ لا.. مستحيل، لقد ركّزتُ مع الحضور، ولم تكن بينهم، وكم أحسستُ باكتئاب، حين طال تأخّرها، لدرجة أنّني قد يئستُ حينها، وأيقنتُ بأنّها لن تأتي، حتّى إنّي قد هممتُ بالخروج، فلم أعد أطيق البقاء أكثر، وفجأة وأنا رهينٌ لأفكاري، إذْ بي أسمع وقع أقدام شخص، يدخل من الباب الخلفي، فقلت في نفسي هذه نور، لم أكن أدري من أين نبع هذا الإحساس المفاجئ، ولكن ربّما هو حدسي، الذي يزورني بين الفينة والأخرى، وكم فرحتُ حين استدرتُ لأراها، وهي تدخل من ذاك الباب بهدوء شديد، أو بشيء من الارتباك والخوف، كان حدسي في محلّه، وكم تعجّبتُ من هذا الإحساس، الذي جعلني مقتنعًا تمامًا، بأنّها هي، وليس غيرها..

دخلت نور، وهي متوتّرة بعض الشّيء، ربّما لنفس السّبب، الذي جعلني متوتّرًا، وكأنّها تخشى اللّقاء الأوّل، كانت تمشي ببطء، وترتدي فستانًا ورديًّا طويلًا، ممزوجًا في بعض أجزائه بخطوط، باللّونين الأسود، والأبيض، وترتدي حذاءً ذا كعبٍ متوسّط، كانت تحمل حقيبة، تشبه لحدّ كبير لون الفستان، زهريّة ومخطّطة بالأسود والأبيض، بدت أنيقة،

كما عهدتها دومًا، وبمجرّد أن دخلت حتّى نظرت، في كلّ اتّجاه، بحيث لم تترك شبرًا، من القاعة، إلّا وركّزت بنظراتها فيه، كانت كمن يبحث عن شيءٍ ما، أو شخصٍ أضاعه، وسط زخم الحياة.. رأيتُ ذلك البريق في عينيها، والذي كنتُ أراه، كلّما التقينا، إنّه نفس البريق، الذي لا يمكنني نسيانه، بأيّ حال، كانت تمشي بتوتّر، رغم محاولتها السّيطرة على نفسها، وتلتفتُ يمينًا، ويسارًا، لعلّها تجد ما ضاع منها، وكنت أنا بالمقابل، أرصد كلّ حركاتها، وسكناتها، حتّى رائحة عطرها، الذي ملأ أرجاء القاعة، هو نفسه، الذي اعتادت دائمًا على وضعه..

وفجأة التقت العيون ببعضها، وتوقّف الزّمن، عند تلك اللّحظة، أين خفق قلبي بشدّة، ولم أعد أكترث إلّا بها، للعشق سرٌّ خاصّ، لا يمكن وصفه، مهما مرّت السّنين، وتوالت الأيّام، يظلّ هو نفسه، لا يتغيّر، أو يتبدّل، لم أعد أرى سواها، وكأنّ كلّ المؤتمر بمن فيه، لم يعد يعنيني، بكلّ تفاصيله وموضوعاته، التقت نظراتنا أخيرًا، فركّز كلٌّ منّا في الآخر، بصمتٍ وشوق، مخافة أن يضيع أحدنا، عن الآخر، تمنّيتُ حينها لو كنتُ شاعرًا، أملك مفاتيح الكلام، لأعبّر عمّا بداخلي، من أحاسيس.. أحاسيسٌ أعادتني للصّغر، إلى حيث الطّفولة، إلى الزّمن الذي دقّ فيه قلبي، لأوّل مرّة..

تمنّيتُ لو كنتُ مؤلّفًا، لأحكي قصّة حبٍّ للعشّاق، الذين قهرهم الزّمن، وأرهقهم أيّما إرهاق، كم حسدتُ أولئك الشّعراء والأدباء، على قدرتهم على التّعبير، بكلّ ما يحسّونه دون عناءٍ أو تكلّف، كم حسدتهم

على قدرتهم، على التّلاعب بالكلمات، وتشكيلها كعجينة، تتماشى وحالتهم النّفسية، فتعبّر عن حزنهم وفرحهم، وخيباتهم وانكساراتهم، وأحلامهم وجنونهم، وغيرها من الأحاسيس الإنسانيّة، كم أنتِ قاسية أيّتها الحياة، وبخيلة حقًّا، تبخلين على الأحبّة لحظات سعادة حقيقيّة، وتسرقين آمالهم، وطموحاتهم، وتقحمينهم فيما ليس من نصيبهم، لا لشيء، سوى لتجرّعِ العذاب، ليت الحياة تتوقّف، عند جمال اللّحظة، دون أن تقحمنا في تبعاتها، ليتها لم تتعبنا للقدر، الذي لم نعد نعي فيه أنفسنا، ليتها تعود للوراء، لأمحوَ حبًّا، لم يكن لي فيه، من نصيب، إلّا الحزن.

نظرتْ نور إليَّ مطوّلًا، وهي تمشي، وكأنّها لا تريد أن تفوّتَ فرصة النّظر، لما يربطها بماضيها الجميل.. تقدّمت نحوي، وكانت في كلّ مرّة تتقدّم، إلّا وأحسّ بقلبي يخفق بشدّة.. كنت أنتظر ردّة فعلها، رمقتني بنظرات، فيها شيءٌ من العتاب واللّوم، ولكنّها لم تنطق بكلمة، وتصرّفت أمام الحضور وكأنّها لا تعرفني، بصراحة كنت أتوقّع ذلك، ولم ألمها يومها، جلستْ أمامي، في الجهة المقابلة، أين كانت هناك بعض الكراسي الفارغة، فاختارت واحدًا منها، وبينما أنا على هذا الحال، من المراقبة الخفيّة، إذْ بي أسمع الدّكتورة لبنى، تهمس (بصوتٍ خافت):

- كيف حالك دكتور حامد؟

وجلست بجانبي.. بصراحة.. كانت لبنى واحدة من زملائي، في المستشفى، ومنذ أن تعيّنتْ فيه، وهي لا تكفّ عن التّقرب منّي، بشتّى

الطّرق، وكنتُ أدرك مدى إعجابها بي، ولكنّي كنت دائمًا أتهرّب منها، لا أعرف لماذا، بالرّغم من أنّها فتاة مهذّبة وجميلة، ومن عائلة محترمة، إلّا أنّ قلبي كان معلّقًا، حينها بنور.. وحين سمعتْ لبنى خبر زواجي، انهارت يومها، وبكت، بصراحة.. لم أكن أعلم، بأنّها قد أحبّتني، كلّ هذا الحبّ.. حزنتُ لأجلها، وخاصّة حين رأيتها تبكي، في مكتبها، كنت أريد أن أقدّم لها بعض الملفّات، المتعلّقة بالمرضى، ولكنّي لم أستطع يومها، فتراجعتُ.. وعُدتُ أدراجي، ودون أن أشعرها بوجودي، حتّى لا أسبّب لها الإحراج، يكفيها ما سبّبتُه لها من حزن.

نعم، لقد بكت يومها، حين سمعت الموظّفين يهنّئونني، متمنّيين لي السعادة بتلك الجمل الرّوتينية: مباركٌ عليك، العاقبة للذّرية.. بالرّفاه والبنين، وغيرها.. تلك الجمل، التي لطالما تمنّيتُ أن أسمعها، ولكن يومها، لم أحسّ بأيّ سعادة، وأنا أسمعها، بل أحسستُ عوضًا عن ذلك بتعاسة، وحزن شديدين.. لم أعرف يومها، أعليّ أن أعزّيَ نفسي، التي فقدتها، أم ألوم القدر، الذي أرهقنا، فعصف بقلوبنا، تمامًا كما تفعل الرّياح العاتية، بأمواج البحر، فتتقاذفها يمينًا، ويسارًا، في ليلة ظلماء شديدة البرودة.

وما زاد من حزني، هو رؤية لبنى تبكي، رأيتُ نفسي فيها، رأيتُ حزني في حزنها، ولكنّ الفرق الوحيد بيننا، هو أنّ لبنى كانت صريحة، ومتصالحة مع نفسها، بكت حين أحسّت بالقهر، عبّرت عن شعورها، حين أحسّت بضرورة ذلك، بينما أنا لم أستطع حتّى البكاء، كم أحسد

أولئك الذين يبكون، حين يحزنون، يبكون أمام الملأ، ولا يخجلون.. كم كنتُ أحتاج يومها، لمن يواسيني، أكثر من حاجتي، لمن يهنّئني، كنت أتمنّى أن أجلس، مع لبنى، لنبكيَ سويًّا.. ولكنّي لم أستطع.

تعوّدتُ منذ نعومة أظافري على كتمان مشاعري، لكيلا أبدوَ ضعيفًا أمام أحد، وهذا ما جعل الآخرين، ينظرون لي بإكبار، فكانوا يرون فيّ الرّجل المثالي، حتّى عائلتي، وإخوتي، ولكن بالمقابل، كنت دائمًا أحسّ بأنّي مظلوم، أكثر من إخوتي، فهُم كانوا مشاغبين، ويصرّون على ما يريدونه، منذ صغرهم، بينما كنت الوحيد الذي يكتم، كلّ شيءٍ في صدره، ولا يبوح به لأحد، ولذلك كنت الرّجل المثالي، في أعينهم، كنت ذاك الرّجل، الذي يحاول الكلّ تقليده، وكأنّي ملاك، لا أخطئ أبدًا، ولا أتعب.. في طفولتي لم أكن أحسّ بفداحة الأمر، بل على العكس، فقد كنت أفرح، حين يراني الآخرون مثالًا، يُحتذى به، ولكن عندما كبرت، صرتُ أحسّه بمثابة عبئ، أثقل كاهلي.

كنت دائمًا ما أراعي شعور غيري، ولكن للأسف، فلا أحد يراعي شعوري، حتّى أبي، الذي لطالما اتّخذ القرار، في أمور كثيرة تخصّني، ولم يكترث لمشاعري، أو إرادتي يومًا، وكنت أواجه تصرّفاته، وأوامره، ونواهيه، دون أن أعلّق عليها، بل وأحاول دائمًا، أن أظهر الرّضا، ولو خارجيًّا.. وهو ما جعله يتمادى، في ظلمه لي، وذلك باتّخاذه أهمّ قرار مصيري في حياتي، وهو زواجي من جنى، التي خطبها هو، ولم يكن لي أن أرفض، أو حتّى أقبل، اتّخذ قراره بكلّ عنجهيّة وتسلّط، ومن دون

أيّ رحمة، وللأسف كنت ضعيفًا في هذه أيضًا، لم أتمرّد، أو أصرّ على ما أريده.. لا أعرف إن كان هذا من الأخلاق، في شيء، أم أنّه ضعف شخصيّة، ولكن ما أصبحتُ متأكّدًا منه اليوم، بل وعلى ثقة تامّة منه، هو أنّ الإنسان الخلوق، مظلومٌ دائمًا.. ودائمًا ما يجد شخصًا ما في حياته، يتدخّل في قراراته، ويتّخذ دور الوصيّ عليه، حتّى لو بلغ من الكبر عُتيًّا.

كانت لبنى تحدّثني، فتضحك تارة، وتسكت أخرى، وتحرّك بين الحين والآخر، خاتمها الذّهبي، بيدها اليسرى، حركاتها تلك، كانت توحي بالحيويّة، والسّرور، أمّا أنا فقد اكتفيتُ بمراقبتها، في صمت، ولكن ما شدّني أكثر، هو نور، التي كانت تجلس، بالجهة المقابلة لليسار، بحيث كنت أستطيع أن أنظر لكليهما، في آن واحد، فقد كانتا تجلسان على يساري، واحدة تجلس بجانبي، والثّانية بالجهة المقابلة، وفجأة رأيتُ نور، وهي تُسقط القلم عن عمد، وانحنت لترفعه، وفي هذه الأثناء نظرت إليّ، وكأنّها لم تسقط القلم، إلّا لكي تراني، وما إن رأت لبنى، وهي تحدّثني بشوق، حتّى تغيّرت ملامحها، وعبست، وبدت عليها الغيرة، وكيف لا تحسّ بالغيرة، وهي ترى مدى اهتمام لبنى بي، واسترسالها في الحديث معي، ممّا يوحي بأنّنا لسنا مجرّد زميلين، وليس هذا فحسب، بل ما زاد من غيرتها جمالها، وحسن وجهها، فهي تشبه البدر في تمامه.

وفجأة رنّ هاتفي، فألقيتُ نظرة عليه، لأرى من المتّصل، أين وجدته أخي رؤوف، فخرجت من القاعة، حتّى يتسنّى لي الحديث:

- ألو.. أهلًا رؤوف، كيف حالك؟

- بخير.. وأنتم؟

- بخير.. بخير.

رؤوف:

- صوتك ليس كالعادة، ما بك؟

- لا.. ولكن استجدّت بعض الأمور.

- خيرًا إن شاء الله.

بصراحة لم أعرف كيف أخبره، فآثرتُ الصّمت، أين بدأ يلح عليّ، ويحلّفني بالله أن أخبره، وذلك بأن قال لي:

- أجبني يا حامد، أحصل لأمّي أيّ مكروه؟ أو لأحدٍ من إخوتي؟

- لا.. لا.. أمّك، وإخوتك بخير.

- إذًا؟ لقد أقلقتني، أنا لا أحبّ المقدّمات، رجاءً أجبني، ما الذي حصل عندكم يا حامد؟

- لقد عاد أبوك.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- كما سمعت، لقد عاد أبوك.

رؤوف (وهو يضحك):

- لا، هذه مزحة، كيف يعود وهو ميّتٌ منذ سنة؟ قل كلامًا غير هذا.

- بلى، لقد عاد يا رؤوف، في الحقيقة هي قصّة طويلة، سألخّصها لك فيما يلي: (أبوك لم يمت كما اعتقدنا، بل نجى مع خمسة رجال،

ممّن كانوا على متن الباخرة، وتمّ إنقاذهم، وهم على مقربة، من حدود إيطاليا، ولكنّ أباك كان في حالة حرجة، بحيث ظلّ غائبًا عن الوعي، لمدّة سبعة أشهر تقريبًا، بين الحياة والموت، ولم يرجع للبلد، إلّا حين تماثل للشّفاء تمامًا، واستعاد عافيته..)

- غريب؟ شيء لا يصدّق أبدًا.. عودة ميّت إلى الحياة، هذه القصّة أشبه بالأساطير اليونانيّة.. لم نكن نسمعها، إلّا في الأفلام؟

- هذا ما حصل.. آه صحيح، أخبرتني سابقًا، بأنّك سترجع للبلد، أليس كذلك؟

- بلى، كنت أنوي الرّجوع، كما أخبرتك، ولكن قبل أن يعود أبي للحياة، أما وقد رجع، فلا أعتقد ذلك يا أخي.

تأسّفتُ لسماع هذا الكلام منه، فقد كان توّاقًا للرّجوع.. قلت:

- ولكنّه تغيّر بعد هذه الحادثة، من المؤكّد بأنّه سيفرح لرجوعك، لِما لا ترجع، وتشرح له ما حدث بالتّفصيل، وتزيل سوء التّفاهم، الذي بينكما؟ إلى متى ستظلّ هاربًا، كالمجرمين يا رؤوف؟

رؤوف (وهو يضحك بسخريّة):

- ما أطيب قلبك.. لو كان كلّ النّاس مثلك، لكانت الحياة سهلة، وخالية من المشاكل، عمومًا لا أستطيع الرّجوع، حتّى أرى ما سيحصل، بتوالي الأيّام، فأنا لستُ مستعدًّا للدّخول للسّجن، بعد أن بنيتُ نفسي، هنا في الأرجنتين، وتجاوزتُ مرحلة الخطر، ثمّ إنّي لا أثق في أبي.. على أيّ حال، دعنا ننتظر، لنرى ماذا ستلد لنا الأيّام..

وسكت قليلًا، ثمّ أردف (قائلًا):

- بصراحة أكثر، لم أعد أثق في أحد.

لم ننهِ حديثنا، إلّا بعد أن أقنعتُه بالعدول، عن قراره هذا، والرّجوع للبلد، لحلّ الخلافات العالقة بينه، وبين أبي، فليس من المعقول، بأن يقضي عمره هاربًا، من ذنب لم يرتكبه أصلًا، فهذا يثبّتُ عليه التّهمة، أكثر ممّا ينفيها، ويبدو بأنّه قد اقتنع بكلامي أخيرًا، أو هذا ما خُيّل لي، فقد سكت مطوّلًا، ثمّ قال:

- سأرى ماذا يمكنني أن أفعل.

أغلقتُ هاتفي، ومضيتُ قاصدًا القاعة، فوجدتُ لبنى تقف أمامي، فقد خرجتْ لتطمئنّ عليّ، بعد أن تأخّرت.. قالت:

- خيرًا إن شاء الله؟ رأيتك تخرج من القاعة، وحين تأخّرت، جئتُ لأطمئنّ عليك.

فأجبتها، وأنا (ممتنٌّ لسؤالها):

- شكرًا، لا شيء.. هذا أخي رؤوف، اتّصل ليطمئنّ عليّ.

وما كدتُ أنهي كلامي حتّى رأيتُ نور، تقتربُ منّي، وهي ترمق لبنى بنظرات حادّة، كانت تمشي، والتّوتر بادي عليها، ولكنّها حاولت إخفاء ذلك بابتسامة خفيفة، بصراحة.. كان من الممكن أن تخدع أيّ شخص، بإظهار لامبالاتها هذه، ولكن ولأنّي أعرفها، أكثر من نفسي، فلا يمكنها خداعي، فهي من اللّواتي يسهل استفزازهنّ، إذ وبالرّغم من رزانتها، ولكنّ نفسها قصير، في مسائل الحبّ، اقتربت، وقالت:

- حمدًا لله على رجوعِ عمّي بصحّة، وعافية.

- شكرًا، كيف حالك؟

- بخير.. وأنت؟

كلّ هذا، ولبنى لا تزال واقفة، وقد أحسّت بالإحراج، من نظرات نور لها، فانسحبت للخلف قليلًا، ثمّ قالت:

- أعتذر.. ولكن عليّ العودة للقاعة، أترككما.

ثمّ ذهبت، وقد بدَا عليها الحزن، والإحباط، وكأنّها قد أحسّت من نظرة نور، بأنّ هناك قصّة كبيرة بيننا، أمّا نور فقد واصلت حديثها، وكأنّ شيئًا لم يحصل، قالت:

- أنت تعرف بأنّه لا يمكننا أن نأتي، لنهنّئكم على عودة عمّي.

- أعرف ذلك..

ولزمنا الصّمت فجأة، وبقي كلٌّ منّا ينظر للآخر بشوق، ولكن عجز الكلام عن التّعبير في تلك اللّحظة، وتوقّف كلّ شيء، الزّمن، المكان، والمارّون في الطّريق، العمّال، والسّيّارات.. لم يعد كلّ هذا مهمًّا، أمام تلك اللّحظة، التي يفقد المرء فيها إحساسه، بالأشياء المحيطة به، وهو ينظر لقطعة من فؤاده، سرقها القدر منه، فلا قلبُه ملكها، ولا من جوفِه اقتلعها.

***

مرّ شهرٌ على رجوعِ أبي، ويبدو أنّ الأحوال لحدّ اللّحظة، ما زالت بخير، بالرّغم من عدم اطمئناني، لهذا الهدوء، إذْ وبالرّغم من أنّ أبي

قد بدا مسالمًا، على غير العادة، إلّا أنّ إحساسًا ما بالسّوء ظلّ يراودني، فبقيتُ أترقّب، ما يمكن أن يصدر منه، رغم محاولاته الدّائمة، التّقرّب منّي، ولكنّي دائمًا ما كنت أحاول تجنّبه، ربّما بسبب موضوع زواجي، من نور، والذي كان السّبب الأساس، في فشله..

زاره ذات مرّة شخصٌ غريب، نوعًا ما، وجهه لا يبشّر بالخير أبدًا، يبدو عليه بأنّه من الأثرياء الجُدد، يلبس طقمًا أسود، ويحمل سيجارة للتّباهي، شعره أبيض، وعيناه جاحظتان، وحاجباه غليظان، يلتفّان حول عينيه، لا يعرف الضّحك إلى وجهه سبيلًا.. فتحتُ له الباب، وما كدتُ أفعل حتّى بادرني بالسّؤال (بصوتٍ عال، ينمّ عن قلّة تحضّره):

- أليس هذا منزل العمّ سالم؟

- بلى.. كيف لي أن أساعدك سيّدي؟

- أريد أن أقابله، لو سمحت.

بصراحة.. لم أعرف ماذا أفعل، فأنا أعرف كلّ أصدقاء أبي، حتّى الموظّفين، الذين كانوا يتردّدون على منزلنا، إذا طرأ أيّ جديد بالشّغل، يستدعي تدخّل أبي، ولكن هذا الرجل لم أره من قبل، وبعد لحظاتٍ من الحيرة، قاطعني غاضبًا، وذلك حين أبطأتُ عليه، في الرّد:

- هل ستتركني واقفًا هكذا، أمام الباب؟ ألم يزركم ضيوف من قبل؟

قال كلامه هذا بكلّ جدّيّة، وقد رفع حاجبيه، فبدا مخيفًا أكثر من ذي قبل.. أدخلته لغرفة الاستقبال، وذهبتُ لأناديَ لأبي، الذي كان مستلقيًا أمام المسبح، وهو يدخّن سيجارته كالعادة، ويشرب فنجانًا من

القهوة، ويقرأ الجريدة، مركّزًا على كلّ صغيرة فيها وكبيرة، اقتربتُ منه، وما كدتُ أفعل حتّى سألني:

- خيرًا إن شاء الله؟

فأخبرته بأنّ شخصًا يُدعى العمّ مروان، يريد مقابلته.. وما إن سمع الاسم حتّى تغيّر لونه، وعقد حاجبيه، ووضع سيجارته جانبًا، وقال:

- ماذا تقول؟ العمّ مروان؟ ما الذي جاء به، في هذا الوقت؟

وتركني واقفًا، وذهب مهرولًا لغرفة الاستقبال، وبعد أن مضى على مجيء العمّ مروان نصف ساعة تقريبًا، كنت قد صعدتُ خلالها، لأغيّر ثيابي، وأخرج، وحين نزلتُ تفاجأتُ بأمّي واقفة، وهي تضع أذنها خلف باب الصّالون، محاولة الاستماع للحوار، فسألتها:

- ماذا تفعلين يا أمّي؟

فالتفتتْ نحوي، وقالت (مذعورة):

- لقد أفزعتني، لا تنس بأن تصدر صوتًا المرّة القادمة، حتّى لا تثير خوفي.

فسألتها مرّة أخرى:

- حسنٌ.. ولكن لم تجيبيني، ما الذي يجعلكِ تتصرّفين هكذا؟

قالت (وهي تضع إصبعها على فمها، في محاولة منها لإسكاتي):

- اششت.. اصمت ستفضحني.

ونحن على هذا الحال، وإذْ بنا نسمع صراخ العمّ مروان على أبي:

- أريد حقّي المتبقّي من الصّفقة، لقد نفذ صبري، وأنا أنتظر منك، أن تسدّد باقي الدّين، الذي عليك لي.

فقاطعه أبي (قائلًا):

- اخرص، ستفضحنا أيّها المغفّل، أنا لم أتأخّر إلّا لظروفٍ، أعتقد بأنّ الكلّ قد صار يعرفها، وأوّلهم أنت..

- ظروفك لا تعنيني إطلاقًا، ما يعنيني هو حقّي، الذي اتّفقنا عليه، منذ بداية العمليّة، أم تُراك نسيت؟ لقد أعطيتني دفعة، وغضّيت الطّرف عن الباقي.

فردّ عليه أبي (بغضب):

- أليستْ لديك إنسانيّة؟ لقد أخبرتك بأنّي قد مررتُ بظروف، في سفري الأخير، الذي غرقتْ فيه الباخرة، ومات كلّ من عليها، إلّا أنا وخمسة آخرون، ولولا رعاية الله وحفظه، لكنتُ الآن في عداد الأموات.

- على رسلك يا رجل، أتعتقد بأنّي أصدّق هذه الكذبة؟ تستطيع أن تضحك على أهل المدينة كلّهم، ولكنّك لن تخدعني بألاعيبك، فهذه الأمور لا تحصل، إلّا في السّينما.

قال العمّ مروان كلامه هذا، ليحتدم بعدها النّقاش بينه، وبين أبي، أين بدأ صوت العمّ مروان، يرتفع تدريجيًّا، وذلك حين واصل كلامه:

- ثمّ لا تنس بأنّني خلّصتك، من ورطة كبيرة، واشتريتُ من عندك، كمّيّة كبيرة من الأسلحة، التي لم تجد من يخلّصك منها، ولولا تدخّلي لكنتَ الآن في السّجن، بعد أن وشى بك أحدهم، إلى الأمن.

وهنا قاطعه أبي (قائلًا):

- اسكت، أيّها الأحمق.. لا يجب التّحدّث في هذه المسائل هنا.

وفجأة توجّه أبي للباب مسرعًا، ليتأكّد من أنّ أحدًا، لم يسمع الحديث، الذي دار بينهما، وهنا أمسكتني أمّي من يدي، وأشارت بأن نهرب فورًا، وهو ما كان بالفعل، قبل أن يرانا أبي، أين اتّجهنا بسرعة للمطبخ، وأنا في حالة ذهولٍ تام، أحاول جمْع ما تشتّت، من أفكاري، لعلّي أجد تفسيرًا، لما سمعت للتّو، أمعقول ما سمعت؟ أبي يتاجر في الأسلحة؟ أبي الذي كان يدّعي الشّرف، والنّزاهة؟ أبي الذي كان يلبس ثوب الوقار، يشتغل في الممنوعات؟ وأيّ ممنوعات.. السّلاح؟ هل من المعقول أن تكون كلّ أمواله الطّائلة، نتيجة أرباحه من تجارة السّلاح؟ وإن كان هذا صحيحًا، فهذا يعني بأنّه خطير، إذْ ليس من المستبعد، بأن يكون تاجرًا للمخدّرات أيضًا، يا إلهي.. لا أكاد أصدّق أيّ كذبة، هذه التي عشناها، ونحن نفتخر، بنسب عائلتنا الموقّرة العريقة، عائلتنا التي يلهث الكلّ لمصاهرتها، لينالوا الشّرف، والرّفعة.. وأنا على هذا الحال، إذْ بأبي يدخل للمطبخ، ووجهه أصفر كقطعة اللّيمون، وبصوتٍ مرتجف سأل أمّي:

- أأنتم هنا؟ ظننتكم لازلتُم نائمين.

قال كلامه هذا، وهو ينظر لأمّي، فأجابته هذه الأخيرة، وهي تعلم جيّدًا، بأنّه يريد الاستفسار، عمّا إذا كنّا قد سمعنا الحوار أم لا، فقالت (بخبث):

- لا.. لقد كنتُ مستلقية، في غرفتي، قبل أن أقرّر إعداد فنجان من القهوة، لأنّني لم أنم جيّدًا البارحة، فقد كان رأسي يؤلمني.

هدأ روع أبي، حين لاحظ طريقة حديثها، التي تدلّ على أنّها لا تعرف شيئًا، فقال:

- من فضلك، أعدّي لي إذًا فنجانين من القهوة.

فقالت له أمّي (متظاهرة بالاستغراب):

- فنجان لك فهمناها، ولكن لمن الثّاني؟ أم تُراك تزوّجت بأخرى، وجاءتك زائرة؟

فضحك أبي على كلامها، ثمّ قال:

- كلّا.. إنّه صديق لي قديم، جاء ليطمئنّ عليّ، بعد أن سمع خبر رجوعي، من بعض الأصدقاء.

وبعدما أنهى أبي جملته هذه، استدار إليّ، وإذْ به يجدني غارقًا، في خيالاتي، والدّهشة بادية عليّ، فشكّ في أمري، ثمّ قال:

- ما بك يا حامد؟ تبدو متعبًا، هل من خطب؟

لم أعرف بما أجيبه، لأنّي كنتُ تحت تأثير الصّدمة، فقلت:

- ماذا؟ ماذا قلت؟ أوه.. لا شيء.

فقاطعتني أمّي، محاولة إبعاد الشّكوك عنّي، وقالت:

- لا تقلق.. فأنت تعرف مشاكله، التي لا تنتهي مع زوجته.

وهنا تنهّد أبي، ثمّ قال:

- حسن..

وانصرف تاركًا أمّي، تعدّ له القهوة، وهي تحمد الله، على نجاتنا، ممّا كان سيحصل لنا، لو علم أبي، بأنّنا قد استمعنا للحوار، من البداية للنّهاية.. أمّا أنا فقد بقيتُ على حالتي، التي كنت عليها، وأنا مشدوهٌ تمامًا، ولم أستفق من الصّدمة بعد.. نظرت أمّي إليّ، وقالت:

- لطالما كنتُ أشكّ في أبيك، وفي ثروته الطّائلة، أساسًا هو رجل قاسي، وشرّير، وهذا أقلّ شيء يمكن أن يفعله، وهو التّجارة بالسّلاح، والخوف كلّ الخوف أن يكون متورّطًا، في عمليّات أخرى.

- عمليّات أخرى، مثل ماذا؟

- القتل مثلًا.

فقلت لها (وأنا مصدومٌ تمامًا):

- لا.. مستحيل.

- وما المستحيل؟ أنت لم تتعلّم من الحياة شيئًا بعد، كلّ معلوماتك عن الحياة، هي الطّب فقط، أمّا أنا فقد تعلّمتُ منها ما يكفي، لدرجة أنّني لم أعد أثق، في أيّ إنسان.. لقد علّمتني الحياة، بألّا أكون مثاليّة مثلك، كما علّمتني بأنّ ليس كلّ ما يلمع ذهبًا.

- كلامكِ ككلام رؤوف، صرتُ أخاف من هواجسكما يا أمّي.

- ولكن هذه هي الحقيقة، التي لا تريد أن تراها، بالرّغم من أنّها ماثلة، أمام عينيك الآن.

- كلامكِ صحيح يا أمّي، ليس كلّ ما يلمع ذهبًا، ولكن ليس لحدّ أذيّة النّاس، وقتلهم، والنّصب، والاحتيال عليهم.

وقبل أن أكمل كلامي، قاطعتني:

- أخفض صوتك، أتريد أن تفضحنا؟ عمومًا.. الوقت ليس ملائمًا، لمثل هذا الحديث، اذهب، وقدّم القهوة لأبيك، وضيفه.

***

ظلّ أبي لأيّام وهو في مزاج سيّء، ولا يكلّم أحدًا، بعد آخر ضيف زاره، بالإضافة للخسائر التي حصلت في غيابه، وانفصال بعض العملاء والشّركاء الفاعلين عن بعض شركاتنا، كلّ هذا كان السّبب المباشر فيه أخي هاني، الذي كان يتعامل مع أولئك العملاء، وكأنّهم عبيدٌ عنده، فلم يكن يكترث لنصائحهم، كما لم يكن يعمل، بما يملونه عليه، ممّا تسبّب في ضياع الكثير من الصّفقات، وبالتّالي استقالتهم، وهروبهم بأموالهم، قبل أن تعمّهم الخسارة، هذه الأمور قد عادت بالسّلب، على سمعة شركاتنا، الأمر الذي جعل أبي يتخبّط في مشاكل، لا حصر لها، ومحاولته إيجاد حلول، قبل أن تغرق المركب، بنا جميعًا.

وبالرّغم من أنّ أبي رجلٌ قاسي، إلّا أنّي أحسستُ بالحسرة عليه، فمنذ رجوعه، وهو يعيش في دوّامة من المشاكل، التي لا تنتهي، فلم يهنأ برجوعه، ولو ليومٍ واحد، وما زاد من حدّة المشاكل، معرفته بخِطبة أختي نريمان بسهيل، ذاك الشّاب الفقير، الذي كان يسكن بجوارنا، ثمّ انتقل مع عائلته للمدينة، لعلّهم يجدون فرصة، لعيش حياة أفضل، حياة لم تتوفّر لهم في قريتنا الصّغيرة، فأبوه كان عاملًا بسيطًا، في بلديّة القرية، وقد تمّ طرده.. وهو ما جعله يغادر، بدون رجعة، فالمسكين لم

يستطع تحمّل كلّ هذا، طرده من شغله البسيط، والذي بالكاد يستطيع من خلاله، توفير الحاجيات البسيطة، لعائلة مكونة من ستّة أفراد - أربعة أطفال وأمّهم - يحتاجون للأكل، والشّرب، ومصاريف الدّراسة، كلّ هذا بالإضافة لنظرة النّاس، له بنوعٍ من الشّك، وربّما نظرة ازدراء، واحتقار، واتّهام لشرفه، وأخلاقه..

كبُر سهيل، وكبُرت نريمان، وبعدما كانا يلعبان مع بعضهما، وهما صغيران، رفقة باقي الأطفال، مضت السّنوات بسرعة، ليلتقيا مجدّدًا في الجامعة، أين جمعت بينهما قصّة حبّ، لا أعرف الكثير عن تفاصيلها، وفيما إذا كانت قصّة حديثة العهد، أم أنّها قديمة من أيّام الطّفولة.

على أيّ حال، ما أعرفه هو ما وقع بعد هذه القصّة، وبالضّبط حين قرّرا الارتباط، وهو ما فتح باب الجحيم على نريمان، كما فُتح عليّ أنا قبلها، وكأنّ القدر قد وقف عائقًا أمامنا، فاشتركنا في المصير، والمعاناة نفسها، ربّما كان قدرنا، أن يكون والدنا سالم، الرّجل الذي يحسب له النّاس ألف حساب، بل ويهابونه، ويحترمونه، ويتمنّون رضاه، ويسرعون لخدمته، كلّ هذا، قد جعله رجلًا متسلّطًا، وأوّل من دفع ثمن سطوته، هم أولاده أنفسهم، وخاصّة أنا.. تذكّرتُ كيف أنّها قد جاءتني، ذات مرّة، وسألتني (باستحياء):

- هل يمكن أن أتكلّم معك، في موضوع يخصّني؟

- طبعًا.. تفضّلي.

- أتتذكّر سهيل ابن الجيران؟ سهيل.. الذي كان يسكن في البيت المقابل، لدكّان عمّي محمود؟

- أجل.. ما به؟

سكتت نريمان للحظات، ثمّ قالت:

- بصراحة.. هو زميلي في الجامعة.

ثمّ تلعثمت، وعادت لتسكت مرّة أخرى.. فسألتها (في حيرة):

- ثمّ ماذا؟ لقد أقلقتني.. ماذا حصل بعد ذلك؟

- لقد أوصاني، بأن أسلّم عليك..

- فيه الخير.. كيف حاله؟

- بخير.

- هل هذا فقط ما جئتِ، لتخبريني به؟ لا أعتقد بأنّ هذا هو سبب مجيئك، للتّحدّث معي، في ساعة متأخّرة من اللّيل.

- بصراحة.. هو يريد أن يتقدّم لخطبتي.

- هكذا.. فجأة.. يريد أن يخطبك، دون أن تتعرّفا، على بعضكما؟

فقاطعتني (وهي تضحك):

- كلّا.. أممم.. بصراحة هي قصّة طويلة.. ويصعب شرحها.

ثمّ عادت لتسكت مرّة أخرى، ففهمتُ قصدها.. ثمّ قلت لها:

- حسنٌ.. وما المطلوب منّي إذًا؟

- أريدك أن تفاتح أبي، في الموضوع.

- ولِما أنا بالذّات؟ لما لم تطلبي من أمّي، بأن تكلّمه؟

- لأنّه يحبّك، أكثر واحدٍ فينا، ثمّ إنّك تعرفني جيّدًا، أخجل من الكلام معه، في موضوعٍ كهذا.

وعدتها، بأن أكلّمه في الصّباح، وهو ما كان بالفعل، أين قصدتُه، لأحدّثه، فوجدته يقرأ الجريدة كعادته، ويمسك سيجارة وفنجان قهوة، اقتربت منه، وجلستُ بجانبه، لكنّه كان مركّزًا في قراءة خبر، يبدو بأنّه مهمّ بالنّسبة له، لدرجة أنّه لم يشعر بوجودي، فبادرته:

- عِمت صباحًا يا أبي.

فرفع رأسه نحوي متفاجئًا، وقال:

- صباح الخير.. لم أرك حين جئت، خيرًا إن شاء الله، فأنتم لا تقصدونني، إلّا إذا وقع أمرٌ جلل.

فابتسمت، وقلت:

- لا.. ما جئتك إلّا لخير.

- أعرف ذلك، فأنت العاقل الوحيد في هذا المنزل، كنت أمازحك ليس إلّا.. هاتِ ما عندك.

- أريد أن أفاتحك في مسألة، تخصّ أختي نريمان..

فقاطعني:

- ما بها نريمان؟ هل بها شيء؟

- إنّها بخير، فقط هناك موضوعٍ يخصّها، وطلبتْ منّي بأن أفاتحك فيه.

- غريب.. ولِما لم تفاتحني فيه بنفسها؟

لم أدرِ بصراحة، ماذا أقول له، فقرّرتُ التزام الصّمت.. وهنا تدارك أبي نفسه، وعاد ليطرح سؤالًا مختلفًا، هذه المرّة:

- ألن تخبرني ما الموضوع؟

- لقد تقدّم لنريمان عريس، ويريد أن يقابلك.

- خبرٌ جميل.

قال أبي، ثمّ ضحك، قبل أن يواصل حديثه:

- لقد مرّت السّنين بسرعة، وأصبح الصّغار يتحدّثون عن الزّواج.

وسكت قليلًا، وبعدما ارتشف القليل من القهوة، أمسك سيجارته من جديد.. وسألني:

- ومن يكون العريس؟ أهوَ من عائلة مرموقة؟ ما هو مستواه العلمي؟ وأين يعيش؟

- على رسلك يا أبي، سأجيبك على أسئلتك، هل تتذكّر سهيل ابن عمّي فاضل، الذي كان يسكن في الشّارع، الذي خلف شارعنا؟

وهنا وضع أبي فنجان القهوة، ونظر إليّ بغضب شديد، وقال:

- هل تمزح؟

- كلّا يا أبي.. فأنت تعرفني أكره المزاح.

فوقف غاضبًا، ولم يمهلني الوقت، لأنهيَ كلامي، وسار مسرعًا، تاركًا جريدته، وسيجارة مرميّة فوق المائدة، فتوجّستُ في نفسي خيفة، ممّا قد يحصل، وخصوصًا حين شعرت، بأنّه قد انزعج من هذا الخبر،

دخل للمنزل، فتبعتُه لأرى ما يفعل، فأنا لم أفهم، سرّ غضبه المفاجئ هذا، وما كاد يدخل للمنزل حتّى نادى (بغضب):

- نريمان.. نريمان.

فجاءت أمّي تجري فزعة.. (وهي تتساءل):

- ما بك يا رجل؟ لما هذا الصّراخ كلّه؟

- أين هي نريمان؟

- لماذا؟ ماذا فعلتْ، لتصرخ بهذا الشّكل؟

نزلت نريمان في هذه الأثناء، وقد بدا عليها الخوف، ثمّ قالت:

- هَأنَذي يا أبي.. ماذا حصل؟

- هل الكلام الذي سمعته، من أخيكِ صحيح؟

فأجابت (وهي تنظر إليّ):

- موضوع ماذا؟

- أصحيحٌ أنّ سهيل يريد أن يخطبك، بعدما رفضتُه المرّة الماضية؟

- أوه.. بصراحة..

وهنا التفت لأمّي (سائلًا إيّاها):

- أكنتِ على علمٍ بهذا؟

- أجل، لقد أخبرتني شيئًا كهذا، من قبل، ولكنّني نصحتها، بعدم الخوض في هذا الحديث، ريثما تنهي دراستها.

فقاطعها أبي، وقد ازداد غضبه:

- إذًا الكلّ يعرف، وأنا آخر من يعلم، أليس كذلك يا نريمان؟ وهل كنتِ تعلمين يا خديجة، من هو العريس؟

- أخبرتني بأنّه زميلها، ولكن لم أسألها عن اسمه، لأنّي لم أكترث للموضوع أصلًا.

فضحك أبي، وقال:

- الشّاب الذي حدّثتكِ ابنتكِ عنه، يكون ابن العامل، الذي سرقني منذ سنوات.

ذُهلتْ أمّي يومها، لسماع هذا الكلام، واستغربتُ أنا أيضًا، لأنّي لم أسمع بأنّ العمّ فاضل، قد سرق أبي قبل اليوم، وأنّ هذا الأخير قد طرده من العمل، لم أستطع تصديق هذا الكلام، فكيف لرجلٍ مثله، أن يمدّ يده، ويسرق مالًا ليس له، وهو الرّجل الذي عُرف بأخلاقه، وسط أبناء القرية كلّهم، وكلّهم كانوا يشهدون له بالخير..

مرّ ذلك اليوم كئيبًا، على كلّ من في البيت، بعدما صبّ أبي جام غضبه، على نريمان، وأمّي، وكلّ أهل البيت، بل حتّى الحيطان هي الأخرى، لم تسلم من صراخه، فقد لعن كلّ شيء، في هذا الوجود.

تصوّرتُ لوهلة، أنّ حيطان بيتنا هي الأخرى، ترتعش من شدّة الصّراخ، لا أعرف إن كان هذا حقيقيًّا، أم خُيّل إليّ فقط، ربّما جسمي هو الذي كان يرتعش، وانعكس هذا على الحيطان، كردّة فعل طبيعيّة.

مرّ ذلك اليوم على خير إذًا، وإن لم يدم ذلك طويلًا، فنريمان لم تكن مثلي، بل كانت متمرّدة كأبي، فقد ورثت عناده ومراسه الصّعب،

وعدم تقبّل الأوامر من أحد، حتّى لو كان هو.. بصراحة كنت أحسدها، على جرأتها، وإصرارها، إذا ما أحبّت شيئًا، في الحقيقة لم تكن العنيدة الوحيدة في البيت، بل كلّ إخوتي كانوا مثلها، ربّما كنت أنا الوحيد، العاقل فيهم، والمختلف عنهم، فأنا أطيبهم، وأقلّهم حماقة، بالمختصر كانوا يتمنّون، بأن يكونوا مثلي، يتجاوزون العثرات، ويغفرون بسهولة، بينما كنت أتمنّى في المقابل، لو كنت مثلهم، متمرّدًا على الأقلّ، في الأمور، التي تخصّني وحدي، الأمور التي كان يجب، أن أكون فيها، أكثر حزمًا، وأقلّ خضوعًا.

لقد كنتُ الابن البارّ بوالديه، الابن الذي يتمنّاه جميع الآباء، الابن الذي يُثني على حُسن خُلقه الجميع، بمن فيهم العُصاة والأشرار، كانت لي هالة خاصّة، لم يملكها أحد غيري، وكان الكلّ يحلم بتلك الهالة والنّور، اللّذين لم يكونا موجوديْن عند سواي، على ما يبدو، هذا التّبجيل كلّه، والاحترام لشخصي، وأخلاقي، جعلني متردّدًا دائمًا، في اتّخاذ القرارات، وخاصّة فيما يتعلّق بالمسائل الشّخصية، التي تتعلّق بي وليس بأحد سواي، حتّى هذه، لم أستطع اتّخاذ القرار فيها، ربّما خشية الوقوع في أخطاء، تؤدّي بالنّاس لانتقادي، وهو ما لم أتعوّد عليه.

لطالما سمعتُ الإطراء، فلم أعد أقوى على اتّخاذ قرارات، تخالف رأي من هم حولي، حتّى لا أفقد إعجابهم، وكأنّي كنت دائمًا أسعى، للحفاظ على صورتي المعهودة لديهم، وإن كنتُ أمقتها أحيانًا وبشدّة، إلّا أنّني كنتُ أحاول مرارًا، كسب وُدّ الآخرين ورضاهم، رضاهم الذي

كان السّبب في تعاستي، وحزني الدّائمين، بين ما أريد فعله حقًّا، وبين ما يجب عليّ فعله، بين الحقّ والواجب، والعقل والقلب، بين المنطق والعاطفة، فكنت دائمًا ما أجدني، أهرع للواجب، الذي يُطلب منّي، ولكنّ ضميري كان عكس هذا الواجب، المصحوب بالثّناء غالبًا.

كم هو مرهقٌ حقًّا، أن يكون الإنسان مثالًا للآخرين، يُحتذى به، نعم، تلك حقيقة مرّة، أن يحمل الإنسان على عاتقه، جبلًا من المُثل العليا، والأخلاق الرّفيعة، التي أُخذت عنه كصورة ظاهريّة، من طرف النّاس، إذْ من الممكن ألّا تتطابق، وواقعه كليًّا، فقط هي نعمة السّتر، التي كلّلنا الله بها، فلولاها لاستحيينا من أن نمشي، أمام الملأ، لكثرة ما اقترفته أيدينا، من مآثم، وذنوب، والتي عادة ما يسترها، ذاك الوقار المبتذل، في الكثير من الأحيان.

في ذلك اليوم قرّر أبي منع نريمان، من الذّهاب للجامعة، لشهر كامل كعقوبة لها، لأنّها وقفت في وجهه، بل ووصل بها الأمر لتحدّيه، أجل، لقد تحدّته، حين سألته عن المانع، الذي يجعله لا يقبل بسهيل، صهرًا له، فاحمرّ وجه أبي، ونظر لها نظرة متأمّلة، كلّها غضب، تلتها صفعة، على وجهها، والتي لم تكن تتوقّع ردّة فعله، بهذه الطّريقة، فبدأت بالصّراخ في وجهه، ونعتته بالظّالم والمتسلّط، وهو ما لم يتقبّله، فلم يتمالك نفسه، وانهال عليها ضربًا، بل وكاد يقتلها، لولا تدخُّلنا، أنا وأخي خالد، أين أمسكتُ بنريمان، وطلبتُ منها المغادرة بسرعة، قبل أن يُجنّ جنونه، فهو لا يقبل فكرة، أن يقف شخصٌ بوجهه، أيًّا كان،

بينما أمسك خالد أبي، لمنعه من ارتكاب جريمة، أمّا أمّي فقد انهارت من شدّة الصّراخ، لتسقط مغشيًّا عليها آخر الأمر.

لم تعد نريمان تتحدّث مع أبي، منذ ذلك الحين، كما لم تعد تلك الفتاة المرحة، التي عهدناها، أمّا هو فقد شدّد عليها الحراسة، أكثر من ذي قبل، وهو الذي رأى منها ما رأى، في تلك الأيّام، التي تلت الحادثة، من إصرار على رأيها، وهو ما أدّى به لتخصيص سيّارة، تأخذها في الموعد، وترجعها حين تنتهي، من دروسها، كما عيّن لها جواسيس، يراقبون حركاتها، الصّغيرة قبل الكبيرة، فلا مجال لارتكاب الحماقات مجدّدًا، طبعًا هذا كلّه، بعدما حاولنا معه مرارًا، وطلبنا منه تركها تستأنف دراستها، وبالكاد وافق، بعد أن تدخّلت عمّتي، وترجّته بشدّة، ولولا خجله منها، ومحبّته الشّديدة لها، فهي من أشرفت على تربيته، رغم صغر سنّها، لولا هذه المحبّة، لما وافق أصلًا.

معرفة أبي بموضوع نريمان هذا، قد جعله حزينًا ومنكسرًا، معرفته بتجدّد العلاقة، بين نريمان وسهيل، في الوقت الذي ظنّ فيه الجميع، بأنّه قد رحل عن عالمنا للأبد، هذا كلّه قد جعله يحسّ، بأنّ وجوده في الدّنيا غير مرغوبٍ فيه، جعله يحسّ كذلك بعدم جدواه وقيمته، بالنّسبة لعائلته، التي فعل من أجل إسعادها المستحيل، وأنّ كلمته ليس لها أيّ قيمة، على الأقلّ إن لم يكن بالنّسبة لابنته، فبالنّسبة لأمّي، ولنا جميعًا، الأمر الذي جعله يكتئب، ويقاطعنا كلّنا.

***

بعد أيّام، جاءت زوجة أبي للمنزل، تطلب رؤيته، وما إن سمعتها أمّي حتّى نزلت (وهي تصرخ):

- ألا تخجلين من نفسك؟ أليست لديكِ كرامة، أيّتها الأفعى؟ إلى متى ستظلّين تتطفّلين، وتختلقين الأعذار، لتأتي وتُرينا جمال وجهك؟

- لم آتِ لرؤيتك، وفّري كلامكِ لنفسك، جئتُ لحاجتي لزوجي سالم، في موضوعٍ خاص.

- زوجكِ سالم؟ أما كان من الممكن أن تنتظري، لِيجيء إليك، فتُكلّميه؟

سكتت زوجة أبي، ولم تدرِ بما تجيب.. كان أبي في هذه الأثناء قد نزل، وما إن رآها حتّى تغيّر وجهه، ولم يترك لها الفرصة، حتّى تسلّم عليه، ليبادرها (قائلًا):

- لماذا جئت؟ ألم يكفك ما فعله ابنكِ الصّعلوك، في غيابي؟ إلى متى ستظلّين تلاحقينني هكذا كظلّي؟

طأطأت زوجة أبي رأسها خجلًا، ولم تعد تقوى على قول كلمة، بعد هذا الاستقبال، فنظرت إليها أمّي باستغراب، إذ ليس من عادتها السّكوت، على الإهانات، تُراها بلعت لسانها، أم ماذا؟

طلبت زوجة أبي بأن تحكيَ معه، على انفراد، وبالكاد وافق، بعد إصرار منها شديد، مستعملة الكثير من الإيحاءات، التي تشبه الرّموز، لكيلا تفهم أمّي الموضوع، لكن هيهات، فهذه الحيل لا تنطلي عليها، فقد ركضت لتستمع للحوار، الذي دار بينهما، لتفهم الحكاية.

حكت لنا أمّي بعد ذلك، تفاصيل الحديث، الذي دار بينهما، فهي تفرح، إذا سمعت خبرًا عن ضرّتها، وخاصّة الأخبار الدّسمة، التي بالضّرورة تكون غير سارّة للأخرى، يبدو بأنّ أبي قد سئم أخيرًا، من ابنه المدلّل هاني، ذلك الشّاب الطّائش، الذي لا يفقه في الحياة شيئًا، إلّا الفساد.. والذي لا يعرف شيئًا عن الإدارة، إلّا أنّ أمّه قد توسّطت له عند أبي، وبمكرٍ منها شديد، استطاعت أن تقنعه أنّ هاني، أنسب شخص، لإدارة شركاته، وخصوصًا في غيابه، فهو كثير السّفر، ولا يكاد يكمل أسبوعًا هنا، في البلد، إلّا ويسافر بعده لبلد ما، حتّى إنّ سفره عادة، ما يكون غامضًا، ومفاجئًا، أصلًا لا أذكر، بأنّه قد ودّعنا يومًا، قبل سفره، سفرُه الذي كان يبدو مبهمًا، بوقت مضى، لم يعد كذلك، وخصوصًا بعد زيارة العمّ مروان، وتحدّثه بصوتٍ عال، عن الصّفقات المشبوهة بينه، وبين أبي، وتورّط هذا الأخير، في التّجارة بالسّلاح، والمخدّرات، والآثار، وغيرها من الأمور المتعلّقة بالتّهريب.

غياب أبي الأخير جعله يكتشف الحقيقة، التي غابت عنه لسنين، فقد أدرك بأنّ هاني، ليس سوى غبيّ مدلّل، لا يقوى حتّى على تحمّل مسؤولية، إدارة حياته الشّخصية، فكيف بشركات، وعمّال؟ كما أدرك خسارة الشّركة لرؤوف، الذي هرب من بطشه، بسبب تحايل زوجته، لإزاحته، لكي يحلّ ابنها محلّه، ممّا أدّى لضياع الشّركات، بعدما غادر رؤوف أرض الوطن، تاركًا فراغًا رهيبًا في العمل، لا يسدّه أحد، ولا يؤتمن على حمل مسؤوليته إلّا هو.

لقد سمعتْ أمّي زوجة أبي، تقول لأبي بأنّ ابنها مريض، بسبب طرده من الشّركة، وأنّه مكتئبٌ حاليًّا، ولا يخرج من المنزل، ولا يكلّم أحدًا، لأنّه محرج من معارفه، كيف سينظرون له، بعد أن كان مديرًا، لشركات أبي، وها هو اليوم، قد تجرّد من وظيفته، ومن تلك المكانة المرموقة، فلم يعد صالحًا سوى للشّجار مع أمّه، وأخته، والشّغالين، بل حتّى مع نفسه.

استغربتُ من هذا الكلام، فمنذ أيّام فقط رآه خالد، وهو يتسكّع مع شلّته كالعادة، شلّته المكوّنة من صعلوكين ثريّين، أبواهما رجلا أعمال، مشكوك في ثروتهما المفاجئة، حالهما في ذلك، حال الكثير من الأثرياء الجدد، بالإضافة لبنات اللّيل، واحدة منهنّ كانت تشتغل، بملهى ليلي، يقع في وسط المدينة، والثّانية لا يُعرف لها أصل، كانت معهم أيضًا فتاة ثريّة، تعيش مع والدتها، التي كانت تشتغل طبيبة، ولكنّها سافرت خارج البلد، تاركة خلفها ابنتها، لتمرح كما يحلو لها.

لم يكن يبدو على هاني، حين التقى به خالد، أيّ بوادر للحزن، بل على العكس تمامًا، فقد كان يبدو سعيدًا كعادته، بالإضافة لصوته الشّجي، الذي ارتفع، ليثير الهلع في الشّارع، فقد كان يغنّي، بأعلى صوته، هو ورفاقه الحمقى، الذين كانوا يصرخون، ويضحكون بطريقة هستيريّة، كانوا على متن سيّارة، يقودها هاني بسرعة جنونيّة، محاولًا إخافة المارّة، من حين لآخر، بقيادته المتهورة، فيهرب كلّ من يجد نفسه في طريقه، متلفّظًا بأقبح الكلمات، بل ويدعو على هاني ورفاقه،

بكلّ ما يعرفه من أدعية، حفظها في حياته، وهذا بسبب المخدّرات، فقد كان هاني مدمنًا، للمشروبات الكحوليّة.

خرجت زوجة أبي، بعدما حاولت بكلّ الطرق، إقناع أبي بالعدول عن فكرة طرد هاني، بحيث استعملت كلّ حيلها، فكانت تبكي تارة، وتصرخ أخرى، وتترجّى، ثمّ تهدّد بتركه، إن لم يمتثل لكلامها، أو غضّ الطّرف عن فكرة إرجاع هاني، للعمل من جديد، ولكن هيهات، فأبي لم يقبل كلامها، في عنادٍ منه تامّ، ولم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل طردها، بعدما حاول خنقها، ولولا العناية الإلهية أوّلًا، وخالد الذي خلّصها، من قبضته بآخر لحظة، لكانت في عداد الأموات، فأبي من النّوع الشّرس، الذي إن ثار أحرق كلّ ما حوله.

خرجت زوجة أبي، وهي تتوعّد أمّي بالشّر، لأنّها في نظرها، هي من وقفت حائلًا، دون ما تصبو إليه، ولكنّ هذه الأخيرة لم تعرها، أيّ أهمّيّة تذكر، فقد تعوّدت على مشاكلها، وتهديداتها.

***

مضى أسبوع كامل، بدون مشاكل، يبدو بأنّ الأوضاع قد هدأت نسبيًّا، واختفى التّوتر، الذي صاحب رجوع أبي، وما تلاه من مشاكل، ولكن كما جرت عليه العادة دائمًا، فهذا الهدوء لم يدم، لوقت طويل، حتّى جاء هاني، وهو يقود سيّارته بسرعة جنونيّة، لدرجة أنّ كلّ من في البيت، سمع عجلات سيّارته، التي كانت تئنّ، من فرط السّرعة، توقّف عند باب المنزل، فتنهّدت العجلات أخيرًا، وتنفّست الصّعداء، ودخل

لحديقة المنزل، بعد أن دفع الحارس، وألقى به على الأرض، فقط لأنّه طلب منه الاستئذان، من أبي ليقابله، خرج هذا الأخير في هذه الأثناء، ليتفاجأ بهاني، يصرخ كالثّور في الحديقة، فالتفت للحارس بسُخط، ولكنّه ظلّ صامتًا، وهنا طأطأ الحارس رأسه، ثمّ قال لأبي:

- أنا متأسّفٌ يا سيّدي، لقد طلبت منه الانتظار، لأستأذن منك، ولكنّه لم يكترث لكلامي، ودفعني بقوّة..

لم ينطق أبي بكلمة، وأومأ للحارس حتّى يتركه معه، فتراجع هاني للوراء، بمجرّد رؤيته لأبي، وما زاد من خوفه، هو سكوت هذا الأخير، بالإضافة لنظراته المليئة بالسّخط.. طلب أبي منه، بأن يقول ما عنده، ولكنّه بقي صامتًا، فاستشاط أبي غضبًا، وقال:

- ألن تكبر على هذه التّصرّفات، أيّها الأبله؟ أجئت تهدّدني؟ أنت لا تعرفني حين أغضب، سوف لن أتوانى في سحقك حينها، تمامًا كما أسحق حشرة مزعجة تافهة.

فنطق هاني (أخيرًا):

- أنا لا أهدّدك، ولكنّي مقهور لأنّك طردتني، لقد فقدتُ احترامي، وهيبتي بين أصدقائي، ومعارفي..

وقبل أن يواصل، قاطعه أبي غاضبًا، بعدما أمسكه من قميصه بكلتا يديه، وجذبه نحوه بقوّة، ثمّ صرخ في وجهه (قائلًا):

- احترام! نظرة إعجاب؟ أيّها المغفّل المعتوه، أنت أغبى واحد في كلّ أبنائي، عن أيّ مكانة تتحدّث؟ لستَ سوى مجرّد صعلوك أبله،

أتعرف حجم الخسائر، التي تكبّدتُها بسبب تهوّرك وغبائك؟ لقد كدتُ أخسر، كلّ ما بنيته بسببك، ولولا أنّني تداركتُ الأمر، في آخر لحظة، لكنتُ اليوم في عداد المفلسين، لقد ضيّعتَ تعب عمري كلّه، خلال سنة فقط، تعبُ عمري، الذي صرفتَه على بنات اللّيل، وعلى صديقتك السّاقطة، التي طلبتُ منك مرارًا، بأن تبتعد عنها، ولكنّك مغفّل كأمّك، أنت آخر شخص يتكلّم، عن الاحترام، ومن يحترمك، شلّتك التّافهة؟ التي لا همّ لها سوى السّهر، كلّ ليلة بأموالي، التي بعثرتها عليهم، أيّها الأحمق؟ ما رأيك لو وضعتُ مسدّسي في رأسك، وأطلقتُ رصاصة في مخّك الثّخين؟ لترتاح البشريّة من غبائك؟ لديك خمس دقائق لتختفيَ من أمامي، وإلّا..

قال كلامه، بعدما سحب مسدّسه في وجهه، مهدّدًا إيّاه بالرّحيل فورًا، قبل أن يصبّ جام غضبه عليه..

فرّ هاني مذعورًا، وهو يحاول حمل مفاتيح سيّارته، التي وقعت من يده، بعدما أمسكه أبي من قميصه، ودفعه للخلف، ليخرج مسدّسه من جيبه، ويشهره في وجهه آخر الأمر.. استجمع قواه أخيرًا، وركض خوفًا من بطش أبي، الذي شاهده لأوّل مرّة أمام ناظريه.. كان هاني كثيرًا ما يسمع عن بطشه، وشرّه إن غضب، ولكن ها هو ذا لأوّل مرّة، يشاهده عن قرب، ربّما لأنّه كان أكثر ولد مدلّل، عند أبي.

***

خرجتُ متّجهًا للمشفى، كعادتي كلّ صباح، كان الجوّ غائمًا، والمطر يهطل بغزارة، وأنا أسير في الطّريق رأيتُ نور، وهي تمشي على عجل، محاولة تفادي حبّات المطر، التي ازدادت سرعتها هي الأخرى، شيئًا فشيئًا، فتوقّفتُ عندها بسيّارتي، ثمّ قمتُ بمناداتها:

- نور.. نور..

فالتفتتْ، لتتفاجأ برؤيتي في طريقها، طلبتُ منها بأن تأتيَ معي، لأوصلها في طريقي، ولكنّها بقيتْ متسمّرة، في مكانها للحظات، قبل أن تقرّر المجيء، وكم كنتُ سعيدًا لهذه الصّدفة، أخبرتني يومها، بأنّ سيّارتها معطّلة، وبأنّ عمّي سافر، وإلّا لما كان ليتركها، تأتي بمفردها، ابتسمتُ لكلامها هذا، فسألتني عن سرّ ابتسامتي، فقلت:

- سبحان الله، لم يتغيّر عمّي، مازال يخاف عليك، تمامًا كما كنتِ صغيرة.

فأجابتني (بمرارة، وحزن):

- أجل.. وخاصّة بعد وفاة والدتي - رحمها الله - صار أكثر حساسيّة اتّجاهنا، وبالأخصّ أنا، وكأنّه يحاول دائمًا، أن يكون وفيًّا لذكراها..

- رحمها الله، كانت امرأة طيّبة جدًّا..

- قبل وفاتها أوصته بأن يعتنيَ بنا، أنا وإخوتي، وخصوصًا أنا.. ربّما لأنّني ابنتها الوحيدة، والحقيقة أنّ أبي لم يغفل عنّي، ولو ليومٍ واحد، وهو ما أثار حفيظة زوجته، التي حاولت مرارًا، صرْف حبّه عنّا، ولكن دون جدوى.

- أما زالت تضايقك؟

أجابت (بابتسامة تخفي في طيّاتها حزنًا عميقًا):

- لم تكفَّ يومًا عن مضايقتي، ربّما لأنّني أشبه أمّي كثيرًا، غيرتها منّي تزداد يومًا بعد يوم، فأبي كان دائمًا ما يقول لها، بأنّني أشبه أمّي، وبأنّني أذكّره بها، وهو ما زاد من بغضها لي، وكانت آخر مرّة ضايقتني فيها، حين حرّضتْ أبي، وجعلته يرفض زواجنا، رفضًا تامًّا، بل وحاولتْ أن تجعله يقبل بفكرة، تزويجي لأخيها، ذاك الذي لا يملّ، من لعب القمار أبدًا، طبعًا أنت تعرف كلّ هذا..

- أعرف، ولكنّ عمّي رفض تزويجك، من أخيها أيضًا.

- لأنّه كان يدرك جيّدًا، أنّه ليس الزّوج المناسب لي، فهو على علمٍ بأخلاقه، وسمعته السّيّئة.

- وماذا حصل لهذا الشّاب بعد ذلك، يا تُرى؟

- لقد تزوّج فيما بعد، من ابنة رجلٍ ثريّ، وحاول أن يسرق منها، مبلغًا ضخمًا، لكنّها اكتشفت ذلك، وبلّغت عنه، وحين هدّدها تنازلت عن المحضر، وطلبت الطّلاق، فقد هدّدها بقتلها، هي وابنتها، وطلب منها أن تعطيه مبلغًا ضخمًا مقابل ذلك، طبعًا لعبه للقمار جعله يخسر، كلّ أمواله، سمعتُ بعد ذلك بأنّه دخل للسّجن.

تعجّبتُ من أحوال الدّنيا، ومن تقلّباتها المفاجئة، فسكتُّ قليلًا، قبل أن أبادرها بالسّؤال مرّة أخرى:

- وكيف حال أخويكِ مراد، ونضال؟

أجابتني (بتذمّر هذه المرّة):

- وكأنّك لا تعرف أخبارنا؟

فضحكتُ لكلامها، ثمّ أجبتها (نافيًا معرفتي بأخبارهم):

- ومن أين لي أن أعرف؟ فكما ترين، أنا غارقٌ في هذا المشفى، بالإضافة للمشاكل المصاحبة لوفاة والدي، من محاكم وقضايا، لرجوعه المفاجئ، وما تلاه من مشكلات.

- لقد تزوّج مراد من زميلته رؤى، وسافرا إلى قطر، أمّا نضال فقد أنهى دراسته الجامعيّة، وهو الآن في الخدمة العسكريّة.

لم نعرف كيف مضى الوقت، حتّى وجدنا أنفسنا أمام المستشفى، بصراحة، أخذنا الحديث، من موضوع لآخر، فلم أحسّ بنفسي، إلّا وأنا أمام الحارس، وهو يفتح لي الباب، لأدخل.. تمنّيتُ لو أنّ الوقت يطول أكثر، ليتسنّى لي الحديث مع نور أكثر، لقد أدركتُ في تلك اللّحظة، ألّا قيمة للعمر تُذكر، دون تلك اللّحظات الخياليّة، والمتمرّدة والخارجة عن المألوف، لحظاتٌ نسرقها من العمر، ونحن نختلس النّظر، لمن نحب، دون أن يرانا أحد، لحظاتٌ نتمنّى لو ندفع العمر، ثمنًا لنعيشها، وإلّا فما فائدته بدونها؟

حين كانت نور تتكلّم، لم أكن أكترث كثيرًا، لما كانت تقوله، بقدر ما كنتُ مهتمًّا، بسماع صوتها، ومراقبة حركاتها، لدرجة أنّني كدتُ أصطدم بسيّارة، كانت تسير في الجانب الآخر، من الطّريق.

صوتها الذي افتقدته، أعادني سنين للوراء، حيث الماضي، وأيّام الطّفولة، ودفء العائلة، وحنان الجدّة، وبالضّبط أعادني لهدوء القرية، وطيبة أهلها، أيّام كانت الحياة بسيطة، ومليئة بالأحلام والطّموحات، تمنّيتُ في تلك اللّحظة، لو كانت النّهايات كالبدايات.. تذكّرتُ في هذه الأثناء تساؤلًا، لصديق قديم، طرحه عليّ مرّة، ولم أدرِ بما أجيب، قال لي يومها:

- لماذا تمنحنا الحياة، إذا كانت ستمنع عنّا، ما وهبتنا يومًا؟ لماذا تسعدنا، إذا كانت ستعدل عن رأيها، وتحزننا؟

ولكن هذا دَيدن الحياة، فهي لا تدوم لأحد، ولا تبقى على حال، قاسية أحيانًا، وطيّبة حينًا، متقلّبة، ومزاجية، تتلاعب بنا يمينًا، ويسارًا، تمامًا كما تتقاذف الرّياح، أمواجَ البحر العاتية، ولكن ربّما خلف هذا حكمة، لا يعلمها إلّا الله، حكمةٌ لا يُراد لنا، معرفتها الآن، حكمةٌ لم يحن وقتها بعد، وإلّا فقدنا متعة الحياة، فحتّى للقسوة متعة أحيانًا، فلو كان كلّ شيء متاحًا لنا، لما عرفنا قيمة الحياة، لما عرفنا قيمة الأشياء الجميلة، في حياتنا، ربّما من العدالة، أن تكون الحياة متقلّبة أحيانًا، وإلّا فقدنا الشّهية نحوها، تذكّرتُ مثلًا قرأته مرّة، يقول: "إذا أعطتك الحياة أكثر ممّا تستحق، فاعلم بأنّها قد أخذته، من غيرك"، فلو دامت السّعادة لنا، هذا يعني بالضّرورة، دوام التّعاسة لغيرنا، ولكنّ الله عادل، بحيث يرزقك السّعادة لمدّة، يكون غيرك تعيسًا خلالها، ولكن من العدالة أن تتبدّل هذه الأحوال، وتختلف الأدوار بين النّاس، فتعيس اليوم

سعيد الغد، والعكس بالضّرورة صحيح، هذه هي الحياة، قيمتها تكمن في عدالتها، تلك العدالة، التي شرّعها الله قانونًا، بين البشر.

بعد أن فتح لنا الحارس الباب، ركنتُ سيّارتي جانبًا، ثمّ نزلتْ في هذه الأثناء نور، ونزلتُ بعدها، لندخل للمشفى سويًّا، فرمقنا الجميع بنظرات، ملؤها الدّهشة، فأغلب الموظّفين لا يعرفون صلة القرابة، التي تجمعني بها، وكانوا يعتقدون بأنّنا زملاء، لا أكثر.

كانت نور تمشي معي، وهي تتحدّث بكلّ اعتزاز، وكأنّني بها تريد لكلّ من في المشفى، أن يعرف ما كان بيننا، كانت سعيدة جدًّا يومها، أمّا أنا فاكتفيت بدور المراقب، الذي أخذ على عاتقه، مراقبة حركاتها، حتّى إنّي لم أعد أهتمّ، بكلّ من في المشفى، من أطبّاء، وموظّفين، أو حتّى لأولئك المارّة، الذين يبحثون عن غرف أقربائهم المرضى.. ونحن على هذا الحال، وإذْ بي ألمح لبنى، وهي تمشي باتّجاهنا، وقد كانت منشغلة، بإخراج مفاتيح مكتبها، من جيبها، وما إن رأتنا حتّى نظرت إلينا، باهتمام أيضًا، بصراحة نظراتها لم تكن تدلّ على اهتمامها، بقدر ما كانت توحي بالحيرة، فقد تولّدت لديها شكوك بشأننا، منذ آخر مؤتمر التقينا فيه، وها هي الآن، قد باتت متأكّدة تمامًا، ممّا دار في خلدها، من شكوك، لقد لاحظتْ من طريقة حديثنا، أنا ونور، مدى اهتمام هذه الأخيرة بي.. فلا يفهم المرأة إلّا امرأة مثلها، لم تفتح لبنى مكتبها، كما جرت عليه عادتها، بل تمهّلت قليلًا يومها، لتلقيَ علينا السّلام، وما إن أصبحنا على مقربة منها حتّى بادرت (قائلة):

- كيف حالك دكتور حامد؟

- بخير.. وأنت، كيف حالك؟

- بخير.. شكرًا.

والغريب أنّ لبنى لم تسلّم على نور، بل حتّى نور هي الأخرى، لم تعرها أيّ اهتمام، وتجاهلتها كليًّا، وذلك بأن قطعت علينا، هذا الحوار الصّباحي الرّوتيني، والذي نبدأه بالسّلام عادة، حاولت نور أن تشغلني، عن الكلام مع لبنى، وذلك بأن سألتني:

- أيمكنني الاعتماد عليك، في بعض المسائل، المتعلّقة بالشّغل، فأنا كما تعلم جديدة هنا، وهناك الكثير من الأمور، التي لم أفهمها.

فقلتُ لها (مُرحّبًا بالفكرة):

- أنا في الخدمة دائمًا.

استغربتُ من ارتباكها المفاجئ، بل حتّى سؤالها هو الآخر، كان مفاجئًا، فأنا أعرف طبعها جيّدًا، لأنّها حتّى وإن احتاجت لاستشارة، فلن ترجع إليّ، لأنّي أعرفها عنيدة، ولكن كلّ هذا، كان بسبب لبنى، يبدو بأنّ نور قد أحسّت باهتمامها، وحبّها الشّديد لي.. وهذا ما تأكّدتُ منه لاحقًا، فقد لاحظت، بأنّهما لا تطيقان بعضهما، ولا تتعاملان مع بعضهما، بالرّغم من أنّ مكتب نور، قريب من مكتب لبنى، فقد كانتا في نفس الرّواق، ولكنّ الكره كان واضحًا عليهما.

افترقنا - أنا ونور - بعد أن وعدتها، بأن أساعدها، في كلّ ما يصعب عليها هنا، دخلتُ مكتبي، وارتديتُ مئزري، وبعدما بقيتُ قليلًا، لأرتّب

بعض الأمور، خرجتُ لتفقُّد المرضى، الذين أُجريتْ لهم عمليّات، لأرى ما ينقصهم، من مسكّناتٍ للألم، أو لقياس ضغط الدّم، وما شابه ذلك، من الأمور الرّوتينيّة، التي أقوم بها في كلّ مرّة، عدتُ لمكتبي، بعد كلّ هذا، لأتجهّز، لإجراء عمليّة زراعة قلب بالمساء، بصراحة كان هذا الأسبوع مليئًا بالعمليّات، بالإضافة لمشاكل البيت، كنت أحسّ بإجهاد شديد، نظرتُ للسّاعة، التي كانت تشير للعاشرة، والنّصف، لم أكد أجلس حتّى دخلت لبنى، وهي تحمل فنجانيْ القهوة، والقليل من الحلوى الجافّة، وبمجرّد أن دخلت سألتني كعادتها:

- لن تمانعَ إن جلستُ معك، لشرب القهوة، أليس كذلك؟

فابتسمت، وقلتُ لها:

- طبعًا، على الرّحب، والسّعة.

لقد كانت عادة لبنى، أن تأتيَ ببعض الحلوى، والقهوة، لتشاركني الحديث، كلّ صباح، وكنتُ على علم، بأنّها ليست إلّا حجّة، ليتسنّى لها الحديث معي، سألتني عن مريض، أجريتُ له عمليّة، أخبرتني بأنّه قريبٌ لها، فأخبرتها بأنّ حالته مستقرّة، أخذتنا الأحاديث، من سؤال لآخر، ومن موضوع لآخر، حتّى وجدتُها تسألني، عن نور (قائلة):

- سمعتُ بأنّ الطّبيبة الجديدة.. أوه.. ما اسمها؟ أجل تذكّرت.. الطّبيبة نور تكون ابنة عمّك، أهذا صحيح؟

بصراحة سؤالها هذا كان مفاجئًا، فأجبتها (بارتباك):

- أوه.. أجل.

ولزمتُ الصّمت بعد هذا، ولكنّ لبنى كانت مُصرّة، على أن تعرف المزيد، فعلى ما يبدو، بأنّ جوابي المختصر، لم يرضِ فضولها بعد:

- يبدو بأنّك تعني لها الكثير.

- من، نور؟

- أجل..

بصراحة لم أدرِ بما أجيبها، فآثرتُ الصّمت مجدّدًا، ولكنّها عادت لتستأنف الكلام، غير مكترثة لتجاهلي، الإجابة عن سؤالها، وكأنّي بها تريد أن تخرج بنتيجة، لما يراودها من شكوك، فقالت:

- لقد أدركتُ هذا، لمّا كُنّا في المؤتمر، لاحظتُ بأنّ نور لم يرقها، حديثي معك، فقد بدتْ منزعجة جدًّا، منّي يومها..

ابتسمت، في محاولة منّي، إبعاد هذه الشّكوك عنها، ثمّ قلت:

- لا أعتقد بأنّها قد انزعجت، فهي ابنة عمّي، وقد تربّينا مع بعضنا، منذ الصّغر، ليس إلّا..

لم تصدّق لبنى أيّ كلمة، ممّا قلت، ولكنّها سكتت، ربّما لأنّها أحسّت بأنّ استجوابها لي، لم يأتِ بفائدة تُذكر، ساد الصّمت فجأة، أين عدتُ لأتفحّص الملفّات، التي بين يدي مجدّدًا، بينما بقيت لبنى منشغلة مع فنجان القهوة، الذي في يدها، كانت بالإضافة لهذا تتصفّح هاتفها.. ونحن على هذا الحال، حتّى دخلت نور للمكتب، فتفاجأت بوجود لبنى، أين تراجعت للوراء قليلًا، وقالت:

- أوه.. كنت أظنّك بمفردك، لم أتوقّع بأن أجد معك أحدًا.

قالت هذا الكلام، وهي ترمق لبنى بنظراتٍ حادّة، فأجبتُها:

- تفضّلي.. لتشربي معنا بعض القهوة.

- أوه.. حسن.

جلست نور على الكرسيّ المقابل للبنى، وأخذت كلٌّ منهما تنظر للأخرى، دون أن تُكلّم إحداهما الأخرى، أشاحت لبنى بنظرها أخيرًا، فقد شعرت بالخجل، من نور، أو لعلّها أحسّت بانزعاجها منها، أخذت تتطلّع في ملفّ قريبها، مفسحة المجال لنور، ليتسنّى لها النّظر، بينما اكتفت هي بتجاهلها.. شعرتُ بأنّ الجوّ مشحون بينهما، فسألتُ نور، في محاولة منّي لتلطيف الجو:

- هل تشربين فنجانًا من القهوة؟

- لا، شكرًا.

ثمّ سكتت قليلًا، قبل أن تضيف (قائلة):

- ولكنّي لم أعهدك تحبّ القهوة، منذ متى صرت تشربها؟

فرفعت لبنى رأسها، وقد احمرّ وجهها، وكأنّها قد فهمت المغزى، من هذا الكلام، ولكنّها ظلّت صامتة، ومحافظة على ثباتها، بالرّغم من محاولات نور الدّائمة لاستفزازها، إلى أن حسمت الأمر، في الأخير، وذلك بأن قرّرت الاعتذار (قائلة):

- سأترككما، لديّ شغل مهمّ، عليّ القيام به.

خرجت لبنى، وقد بدا عليها الغضب، فشعرتُ بالإحراج الشّديد حيالها، فقد كانت نور قاسية عليها، بينما تعاملت هي معها، بمنتهى

النّبل، وإن أحسستُ بأنّها قد انزعجت، من رؤية نور، إلّا أنّها حاولت التّظاهر بأنّها طبيعية، وغير مكترثة، ولكنّها استسلمت، وانصرفت آخر الأمر، وبالمقابل بدت نور هادئة، وغير مكترثة لذهابها، بهذا الشّكل المفاجئ، لقد شعرت بسعادة غامرة، بعد مغادرتها، واستغلّت الفرصة، لمواصلة حديثها، وكأنّ شيئًا لم يحدث، فقالت:

- لقد أحضرتُ معي بعض الملفّات، هناك أمور لم أفهمها، وأريدك أن تساعدني.

أخذتُ الملفّات منها، وبدأتُ بشرح ما استعصى عليها، وفي هذه الأثناء دخل الدّكتور حازم، وبعدما ألقى التّحيّة، نظر لنور مُطوّلًا، فهو لا يعرفها، ولم يرها قبل الآن، لأنّه كان في إجازة، فقلتُ له:

- هذه الدّكتورة نور، لقد تمّ توظيفها مؤخّرًا.

فقاطعني (قائلًا):

- إذًا أنتِ الدّكتورة الجديدة، تشرّفتُ بمعرفتك آنسة نور.

- شكرًا، وأنا أيضًا، تسرّني معرفتك دكتور..؟

- دكتور حازم.

- أوه.. حسن.. تسرّني معرفتك دكتور حازم.

وعادت لتسألني مجدّدًا، عمّا يثير اهتمامها، وما تريد معرفته، في هذه الملفّات، لقد كانت على استعداد، لمعرفة كلّ شيء، لدرجة أنّها كانت تطرح الأسئلة، في عجالة، ولم تترك لي الفرصة للشّرح، فكنتُ أقاطعها، من حين لآخر (مازحًا):

- على رسلك.. لديكِ الوقت، لتفهمي كلّ ما يتعلّق بالشّغل، فلا داعي للعجلة.

كانت نور كما عهدتها، شغوفةً بمعرفة كلّ التّفاصيل، ومستعجلةً دائمًا، في محاولة إيجاد جواب، لكلّ سؤال يتبادر إلى ذهنها، بينما بقي الدّكتور حازم ينظر لها باهتمام، ولم يبعد عينيه من عليها، كان مهتمًّا على غير عادته، لدرجة أنّه كان يجيب أحيانًا عوضًا عنّي:

- الحقّ مع الدّكتور حامد، فكلّنا أتينا، ونحن لا نعرف شيئًا، ومع الوقت، استطعنا أن نجتاز كلّ هذا.

قال الدّكتور حازم.. ولكنّ نور لم تعره أيّ أهميّة، بل أحسستُ بأنّها قد انزعجت، من تواجده معنا، وتطفّله علينا، وبالرّغم من أنّه كان على علمٍ بانزعاجها، إلّا أنّه قرّر مقاطعتنا، في الأخير، وعرض خدماته عليها (قائلًا):

- يبدو أنّ الدّكتور حامد ليس لديه، الوقت الكافي، ليفهمكِ كلّ ما تريدين فهمه، أستطيع أن أساعدك، في هذا الأمر، إن شئت.

ثمّ ضحك، ونظر إليّ، وقال:

- أنا أمزح ليس إلّا، في الحقيقة، الدّكتور حامد من أكفأ الدّكاترة، في هذا المشفى، ولكن أستغربُ أن تكون كنيتك، هي نفسها كنيته!

- هذا لأنّ حامد يكون ابن عمّي.

قالت نور، ليردّ عليها:

- حقًّا؟ جميل.. إذًا أنتِ من عائلة ابن راضي، لقد لاحظتُ مدى الشّبه بينكما، منذ البداية، وخاصّة من ناحية الشّخصيّة.

- شكرًا لك دكتور، هذا من لطفك.

بعدما أنهى الدّكتور حازم مجاملاته، وتملّقه، نظر إليّ، وقال:

- أيعقل هذا يا حامد؟ لديك ابنة عمٍّ بهذا الجمال، والذّكاء، ولم تعرّفنا عليها من قبل؟

نظرتُ إليه مليًّا، وأنا مستغربٌ من تغيّره المفاجئ، فما أعرفه عنه، هو أنّه إنسانٌ مغرور، ولديه نظرة استعلاء على الجميع، ولم يسبق لي، وأن رأيته يمضي وقتًا طويلًا، مع أيّ كان من قبل، وبالرّغم من أنّنا لسنا أصدقاء، ولم نتعامل مع بعضنا، إلّا بشكل رسمي جدًّا، إلّا أنّه قد بدا، وكأنّه على معرفة بي، منذ أمدٍ بعيد، وكلّ هذا إنّما كان، من أجل نور، بصراحة، لم أكن أعرفه كثيرًا، كلّ ما كنت أعرفه عنه، هو كلام بعض الموظّفين، في المشفى، بحيث كانوا يقولون، بأنّه كسول، واتّكالي، وذلك منذ أن كان طالبًا بالجامعة، بالإضافة لأنّه متكبّر، لأبعد حدّ.. ما أدّى بكثيرٍ من الأطبّاء، والموظّفين لمقته بشدّة، فكانوا لا يتعاملون معه، إلّا للضّرورة.. كنتُ على علم بأنّه مغرور، وأنانيّ، ولكن هذه أوّل مرّة، أعرف بأنّه زير نساء، بالإضافة لكلّ ما قيل عنه.. أجبتُه بعد صمت:

- لم يفتك شيء، ها قد تعرّفت عليها الآن.

***

لاحظتُ حركة غير عاديّة في الرّواق، ممرّضات يذهبن، وأخريات يجئن.. سمعتُ واحدة تقول للثّانية:

- أسمعت؟ لقد أحضروا شابًّا للطّوارئ، وحالته حرجة جدًّا.

فسألتُها:

- ماذا هناك؟

- لقد أحضروا شابًّا، أصيب في حادث مرور مروّع.. وهو الآن في غرفة العمليّات، وقد نزف كثيرًا.

وفجأة رنّ هاتفي، ففتحته، لأجد رقمًا، غير مسجّل عندي.. قلت:

- ألو..

فردّت عليَّ امرأة، لم يبدُ صوتها غريبًا عليّ، كانت تتكلّم بصوت، يختنق خلف تلك العَبرات، التي تقطعه، من حين لآخر، في البداية لم أفهم سبب بكائها، إلى أن وصلتْ لقولها:

- أرجوك تعال بسرعة، الشّرطة أخذت هاني، وأبوك مسافر، وليس لي غيرك، ليساعدني في مصيبتي هذه.

إذًا كانت زوجة أبي، هي التي اتّصلتْ، لطالما كان هاني مصدر إزعاج، وقلق دائمين، لكلّ المحيطين به، ولكن ماذا عساه يكون فعل، هذه المرّة يا تُرى؟

خرجتُ من المشفى على عجل، بعد أن طلبتُ الإذن من المدير، ثمّ توجّهتُ لقسم الشّرطة، الذي ذكرته لي زوجة أبي، لأحاول فهم ما حصل، وفور وصولي سألتُ الحارس، الذي دلّني على القاعة، التي فيها

هاني، فدخلتُ بعدما أُذن لي، ووجدت أخي، الذي كان يقف مكبّلًا، أمام الضّابط، وبجانبه أمّه، وما إن رأتني حتّى هرعت إليّ تبكي:

- ساعدني يا حامد، أرجوك.. لقد اتّصلتُ بأبيك، ولكنّه لا يردّ، والضّابط لم يرضَ، حتّى بالحديث معي..

لم تكد تكمل كلامها حتّى قاطعها الضّابط:

- هلّا سكتّي.. وإلّا فسأطردكِ من هنا.

ثمّ التفت إليّ، وقال:

- ومن تكون أنت؟

فأخبرتُه بأنّني هنا، من أجل هاني، وما إن عرف بأنّه أخي حتّى برزت عيناه، بل وكادت تخرج من وجهه، وقال لي (بتهكّم):

- أتعلم يا سيّدي، بأنّ أخاك قد دهس شابًّا بسيّارته، وهو في حالة سكر؟ وليس هذا فحسب، بل وكان يقود سيّارته بسرعة جنونيّة، والشّاب المسكين يرقد الآن في المستشفى، بين الحياة، والموت.

وبعد أن أنهى كلامه، عاد ليلتفت لهاني، وقال:

- ألا يمكنكم تطبيق قوانين المرور، إلى متى ستظلّون مستهترين، بهذا الشّكل؟

ثمّ أمر الحرّاس برميه في الزّنزانة (قائلًا):

- ضعوه في الزّنزانة رقم تسعة، ريثما ننظر في قضيّته.

وهنا بدأت زوجة أبي بالبكاء، والعويل، لقد بدت منهارة تمامًا، أو هذا ما خُيّل إليّ، بصراحة.. كان يمكن أن أصدّقها، لولا أنّها زوجة

أبي، فهي معتادة على التّمثيل، كما أنّها ليست مهتمة لأمر ابنها، سواء سجنوه، أو قتلوه حتّى، كلّ ما يهمّها هو شماتة النّاس، والإرث الذي لن تحصل عليه، إلّا عن طريقه، فهو بنكٌ مفتوح، يدرُّ عليها الأموال، بالإضافة لكونه وسيلة تأثير على أبيه، لأنّه الابن المدلّل، والأصغر، هذا هو أكبر همّها..

أمر الضّابط بإخراج زوجة أبي، بعد أن أحدثت جلبة في القاعة.. أمّا أنا فحاولتُ أن أستفسر منه، عمّا يمكن فعله، في هذه الحالة، وهل يمكن إخراج هاني بكفالة، ريثما نرى، إلى أين ستؤول حالة الشّاب، ولكنّه رفض كلّ ما ذكرت، وقال:

- المشكلة ليست في دفع كفالة، المشكلة أكبر من ذلك، فلو تعلّق الأمر بنا، لكان من الممكن أن نعفوَ عنه، ولكنّ هذه المسألة، يحسمها أمران، أوّلهما تماثل الشّاب للشّفاء، أو عفو أهله عن أخيك.

ثمّ سكت قليلًا، قبل أن يستأنف الحديث:

- ثمّ إنّ أخاك ولدٌ مدلّل، لقد ارتكب عدّة مخالفات أهمّها: القيادة بسرعة جنونيّة، وفي حالة سكر، ضاربًا سلامة المارّة عرض الحائط.

حين يئستُ من كلام الضّابط، وأحسستُ بعدم جدوى المحاولة، سألته عن اسم الشّاب، وبعدما أعطاني بعض المعلومات عنه، وأهمّها أنّه متواجد بنفس المستشفى، الذي أشتغل فيه، خرجتُ من القسم، متّجهًا للمستشفى، لأطمئنّ على حالته، وأحاول التّواصل مع أهله، إن أمكن.. وأنا على هذا الحال، حتّى رنّ هاتفي مجدّدًا، وحين فتحته، لم

أعرف الرّقم في البداية، فأجبت، لأعرف من الذي يريدني، وإذْ بها نور تتّصل بي، لتطمئنّ عليّ، بعد أن أخبرها المدير، بأنّي قد خرجت، في عجلة من أمري..

يا إلهي، كم هو ثرثارٌ هذا المدير، ولا يكتم سرًّا أبدًا، إنّه مستعدٌّ لأن يخبر جميع من في المشفى، من أطبّاء، وممرّضين، وموظّفين، أيّ خبر، بل هو مستعدٌّ للتّكلّم في أيّ شيء، المهمّ عنده هو أن يختلق موضوعًا، صالحًا للنّقاش، حتّى لو اضطرّ للتّكلّم مع المرضى، لولا أنّ هؤلاء ممنوع عنهم الحديث، لحالتهم الصّحية، لكان أحضر القليل من القهوة، وجلس ليزعجهم بأحاديثه، التي لا تنتهي أبدًا، بل حتّى الزّوار لم يسلموا منه، على أيّ حال.

أخبرتها بما حصل لهاني، وبأنّه محتجز في القسم، فهو من الزّوار الأوفياء، لقسم الشّرطة، الذين يتراودون عليه، مرّة على الأقل، في كلّ شهر، ثمّ إنّ الأمر بالنّسبة له مجرّد فسحة.. فقالت:

- كان الله في عونكم، على أخٍ مثل هاني.

فضحكت، ثمّ قلتُ لها:

-كان الله في عوني، على هاني؟ بل قولي كان الله في عوني، على هاني، وأبي، وزوجته، وأمّي، ومدير المستشفى، و..

ثمّ سكتُّ قليلًا.. فقالتْ (مقاطعة):

- ونور.. أليس كذلك؟

- انسيْ الأمر.. كنت أمازحك، ليس إلّا، ربّما من الأجدر القول، كان الله في عوني، على جميع بني البشر، الذين يلبسون ثوب البراءة، ويُخفون وراء براءتهم ذئابًا شرسة، تتربّص بالطّيبين، من بني جلدتهم.

***

وصلتُ للمستشفى أخيرًا، ثمّ توجّهتُ مباشرة لقسم الطّوارئ، أين كان يرقد الشّاب المصاب.. كنت أمشي في الرّواق، وأنا أدعو الله كيلا ألتقيَ بالمدير، فأنا لم أكن في مزاج، يسمح لي بالدّخول معه، في نقاش، هو أشبه بالتّحقيق، فمديرنا مستعدٌّ أن يدفع عمره كلّه، مقابل خبر دسم كهذا.. لو لم أعرفه مديرًا للمشفى، لقُلت عنه بأنّه من أولئك الصّحفيين المتطفّلين، أصلًا أنا مستغرب، من توجّهه لإدارة المشافي، كان من المفروض، بأن يتّجه للصّحافة، أعتقد بأنّه كان سيصبح من ألمع الصّحفيين.. تسلّلتُ في الرّواق مثل اللّص، ولكن هيهات، فقد سمعت صوتًا يناديني، من آخر الرّواق فجأة:

- دكتور حامد.. تمهّل.

- أوه، يا إلهي، إنّه صوت المدير، ألا يمكن أن يمرّ يوم واحد فقط، دون أن يزعجنا، هذا المتطفّل؟ ماذا كان يمكن أن يحصل، لو لم يكن هناك متطفّلين، هل سيخرب العالم يا تُرى؟

كنت أريد أن أواصل طريقي، دون الالتفات إليه، ولكنّ صوته ازداد حدّة شيئًا فشيئًا، بصراحة.. خشيتُ على المرضى، أولئك المساكين، الذين من المفروض بأنّهم يرقدون هنا، ليحصلوا على بعض الرّاحة، من

المفروض أنّهم في فترة نقاهة، ولكن مع ارتفاع صوت ذاك الثّور، صرتُ أحسّ وكأنّنا في سوقٍ للبهائم، التي تتعالى فيها أصوات الباعة، والبهائم على حدّ سواء، فتملأ الأرجاء..

التفتُّ خلفي، لأرى المدير يركض نحوي مسرعًا، بصراحة لم يكن يركض، بل كان يحاول لا أكثر، فجسمه الممتلئ لا يوحي بالحيويّة، أو النّشاط، أثار هذا المنظر في نفسي، شيئًا من الاشمئزاز، وصل إليّ أخيرًا، وهو يتصبّب عرقًا، ثمّ أخذ منديلًا، ليمسح به جبينه المبلّل، وقد كادت روحه تخرج من جسده، وبتلك الأنفاس، قال بصوتٍ (مختنق):

- أصحيحٌ ما سمعت؟

فأجبته (بتهكّم):

- وماذا سمعت؟

- الشّاب الذي دهسته سيّارة.. أخبروني بأنّ أخاك هو الذي دهسه.

- للأسف، هذا صحيح.. وأنا هنا من أجل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- سأحكي مع عائلة الشّاب، لعلّهم يتنازلون، وإن كنتُ مقتنعًا، بأنّهم لن يفعلوا.. ولكن لابدّ من المحاولة.

- وماذا تنتظر؟ هيّا لنحكيَ معهم.

قال المدير بحماس، وسبقني بالسّير، كي أتبعه إلى غرفة الشّاب، بصراحة لم أكن واثقًا بأنّه سيساعدني، بقدر ما كنت واثقًا بأنّه ذاهب، ليعرف المزيد من التّفاصيل، وليس هذا فحسب، بل إنّه سيفسد كلّ

شيء، فلسانه طويل، وليس لي قدرة، على التّحكّم فيه، وخاصّة إن زاد حماسه، لقد بات هاني في موقف، لا يُحسد عليه، وإن كان يستحقّ ذلك، هذا نتيجة للدّلال، الزّائد عن حدّه.

لم نمشِ إلّا قليلًا، حتّى أشار المدير لشيخ، يقف أمام الغرفة، التي يرقد فيها الشّاب، ثمّ همس في أذني، وقال:

- هذا هو والد الشّاب.

كان الشّيخ متّكئًا على الجدار، وقد بدا عليه الحزن جليًّا، وبجانبه امرأة على الأغلب زوجته، وأمّ الشّاب، كانت تبكي بشدّة، وتدعو الله، راجية أن يمدّ في عمر ابنها، كانت يداها ترتجفان من الخوف، على ما ستؤول إليه حالة ابنها، وغير بعيد عنها شاب يروح، ويجيء.. اقتربنا من الثّلاثة، وما كدنا نفعل حتّى شعرتُ برعشة، تسري في جسدي، ربّما هو تأنيب الضّمير، على ذنب لم تقترفه يداي، ذنبٌ لا ناقة لي فيه، ولا جمل، إلّا أنّ الجاني يكون أخي ابن أبي، كم أحزنني منظر الأمّ، وهي تبتهل لله، وقلبها يكاد ينفطر كمدًا، هالني منظر الشّيخ، الذي كان يمسك بيده سبحة، محرّكًا حبّاتها الفضّية، بين أصابعه بكلّ انسيابيّة، وشفتاه ما انفكّت تدعو الله، تعجّبتُ لحال الدّنيا، عائلة تبكي ابنها، ولا تعرف أيّ مصير سيؤول إليه، هل سيرجع للحياة أم يفارقها؟ وبفراقها يفارق أهله وأحبّاءه؟ كيف للحياة أن تأخذ روح شخص، ليس له ذنب، سوى أنّ شخصًا آخر مستهترًا، في مكان ما من الأرض، قد قُدّر له، بأن يلتقيَ بالضّحية، ساعة وقوع الحادث، وهو لم يره من قبل، ولم يكلّمه،

شخصٌ آخر - من عائلة مرموقة - تافه، وغبيّ، لم يرَ من الحياة، إلّا لونها الورديّ الزّاهر، لا أعرف من الذي دعا عليّ، لأجد نفسي أقفُ عاجزًا، لأتوسّط لغبيّ كهاني، لا أعرف لما تختبرنا الحياة، بهذه القسوة؟ أما يكفيها ما عانيته منها، طيلة السّنوات الفارطة؟

لوهلة شعرتُ بأنّه عليّ التّراجع، بل وعدم المحاولة أصلًا، وترْك هاني ليواجه مصيره، الذي يستحقّه، تركُه يتحمّل ثمن ما اقترفت يداه، ليعرف بأنّ حياة النّاس، ليست لعبة بين يديه.. لطالما ارتكب الكثير من الأخطاء، وكان في كلّ مرّة يخرج منها سالمًا، ولا يزيده هذا إلّا غباء، وعنادًا، فأبي لم يكن يبخل عليه بالمساعدة، متى احتاج لذلك، طالما يجد من يمدّ له العون، من أصدقائه، ومعارفه، الذين كانوا لا يتوانون في مساعدته، متى ما طلب ذلك منهم.

هممتُ بالرّحيل، وأدرتُ وجهي للوراء، لخشيتي من أن تفضحني دموعي، فأنا لستُ من النّوع الذي يستهتر، بأحزان النّاس.. لم أستطع النّظر لتلك الأم التي تبكي ابنها، وعيناها شاخصتان للسّقف، تحملقان في أسى، وخوف، لم أستطع النّظر لذاك الأب المكلوم، الذي وبالرّغم من صمته، وثباته، إلّا أنّه كان يخفي وراءهما حزنًا عميقًا.. وبمجرّد أن أدرتُ وجهي حتّى سمعتُ فجأة، صوت المدير:

- على رسلك يا حامد.

وليس هذا فحسب، بل الأكثر من ذلك، أنّه قد قام بإمساكي من يدي، وكأنّه بهذا يضعني في الأمر الواقع، ثمّ لم يلبث بأن أضاف:

- لا داعي للتّردّد.. أنا سأحكي بالنّيابة عنك.

ودنا من الشّيخ، وهو يمسك بيدي، ويجرّني للحديث معه.. قال:

- أهلًا.

فأجابه الشيخ (بكلّ هدوء، وثبات):

- مرحبًا.

وعاد لهدوئه مُجدّدًا، كما عاد لسبحته، التي كان يقلّب حبّاتها، بين يديه بكلّ انسيابيّة، تتبعها تمتمات، فلم يجد المدير سوى العودة للكلام، فقال:

- سيّدي.. هل يمكن أن أكلّمك، في موضوع؟

- تفضّل..

- هذا الدّكتور حامد، أوه.. حسنٌ.. أخوه هو الذي صدم ابنك.. ولكن بغير قصدٍ طبعًا.

وبمجرّد أن أنهى كلامه حتّى تفاجأنا بالشّاب، الذي كان يقف، على مقربة من الشّيخ، يقترب منّي (صارخًا):

- يا لوقاحتكم، تقتلون القتيل، وتمشون في جنازته، ماذا جئت تريد الآن.. هاه؟

وظلّ يدنو منّي شيئًا فشيئًا، بدون وعي منه، إلى أن صار قريبًا منّي، وجنونه يزداد بشكل رهيب، وفجأة أمسكني من قميصي، وجذبني إليه بقوّة، وغضب، ولو لم أكن أقوى منه، لأوقعني أرضًا، ولكنّني استطعتُ في آخر لحظة، أن أمسك بكلتا يديه، وأدفعه بقوّة للخلف، وهنا تدخّل

المدير، قبل أن يصل الأمر، لما لا يُحمد عقباه، أين وقف حائلًا بيننا، وحاول أن يهدّئ من روعه، فقال:

- اهدأ يا بُنيّ، سيستفيق أخوك من الغيبوبة، وسيعيش بإذن الله، ثمّ إنّ أخا الدّكتور حامد، لم يكن يقصد قتل أخيك.

وهنا عاد الشّاب للصّراخ مجدّدًا، فقد استفزّه كلام المدير، حين ذكر أخي هاني:

- اخرص، وإلّا قطعتُ لسانك، كيف تدافع عن أناسٍ قتلة؟ كلّ شغلهم في الحياة، هو تنغيص حياتنا، كيف تدافع عن ذاك الصّعلوك، التّافه المغرور؟ بعثك لتتوسّط له، أليس كذلك؟ من يظنّ نفسه؟ أم إنّه يريد أن يرميَ لنا بعض النّقود، ليسكتنا بها؟ أخبره بأنّ أمواله لن تنفعه، في شيء، إذا ما وقع أيّ مكروه لأخي، سأقتله بيديَّ هاتين، سأضيف ثأر أخي للثّأر القديم، الذي بيننا، أعدك بذلك، أيّها الوغد.

استغربتُ من كلام الشّاب، الذي جعلني أجزم، بأنّه على معرفة قديمة بهاني، وإلّا فلِما ذكر كلمة ثأر؟ لا أعرف لِما أحسستُ بأنّ أمرًا ما، قد وقع بينهما، ولكن ما هو لا أدري!

خرجتُ من المستشفى غاضبًا، وقد تركتُ المدير خلفي، يحاول اللّحاق بي (وهو يطمئنني):

- لا تقلق يا حامد، سوف نجد حلًّا، أعدك بذلك.

كان المدير يعتقد، بأنّني قد أحسستُ بخيبة أمل، حين لم أتوصّل لحلٍّ، مع أهل الشّاب، ولكنّ ما أغضبني فعلًا، هو إحساسي بغلطتي،

التي لا أستطيع أن أغفرها لنفسي أبدًا، كيف سمحتُ لنفسي بالدّفاع، عن تافهٍ كهاني؟ كان يجب أن أتركه لمصيره، فهو يستحقّ العقاب، لا محالة، ولكنّ الذّنب ليس ذنبه لوحده، بل ذنب أبي، الذي ربّاه على حبّ الذّات، فقد كان دائمًا يقول له:

- أنت ابن أبيك، أنت نسخة من أبيك.

كان يقول له هذا الكلام، حين يقوم بتحطيم لعبة، أو حين يقوم بالاعتداء على أولاد الجيران، أصلًا أنا لا أذكر بأنّ أبي وبّخه، ولو لمرّة في حياته.

خرجتُ من المشفى، دون الالتفات للمدير، الذي ظلّ يناديني، لم أستطع ركوب السّيّارة، كنتُ مخنوقًا بما فيه الكفاية، لأطلق العنان لنفسي، التي تركتها تقودني إلى حيث شاء الله، كنتُ أمشي، ولا أدري أيّ وجهة أقصد، المهمّ أن أستنشق بعضًا، من تلك النّسمات الباردة، التي كانت تتلاطم على وجهي، كأمواج بحر غاضبة، تتراوح بين الشّدّة واللّين، تهدأ لدقائق، ثمّ ما تلبث أن تشتدّ مجدّدًا، وأنا على هذا الحال إذْ لاح مقهى في الأفق، فدخلتُ إليه، لعلّي أجد فيه متنفّسًا، لما أحسّ به من ضيق، وآثرتُ الجلوس على آخر طاولة، كانت تقع بجانب نافذة، مطلّة على البحر، أين أشعلتُ سيجارة، وطلبتُ فنجان قهوة..

ذهب النّادل، ليحضر لي القهوة، بينما بقيتُ أراقب تلك الأمواج، ريثما تأتيني القهوة، لتعدّل مزاجي، الذي عكّره ذاك الشّاب، بقيتُ على هذا الحال لدقائق، أين سرحتُ في تلك الأمواج، التي كانت

تتلاطم، وقطرات المطر المنعشة، التي كانت تتساقط، على زجاج النّافذة، في حركة منتظمة، وهادئة، إنّه حقًّا منظر يبعث السّرور، في القلب، أنساني للحظة، ما أحسستُ به من قلق، وبالرّغم من كلّ تلك الكلمات النّابية، التي صدرت من ذاك الشّاب، إلّا أنّني قد عذرته، ربّما لإحساسي بأنّ هاني لم يقصّر، معه أبدًا، وكيف يقصّر معه، وهو لم يرحم أحدًا التقى به، ولو صدفة؟

***

عدتُ للمنزل أخيرًا، كنتُ أحسّ بتعب، وإجهادٍ فظيعين، وما إن دخلت حتّى تفاجأتُ بأمّي، تقف أمامي (قائلة):

- لقد اتّصلتْ بنا زوجة أبيك، أكثر من عشرين مرّة، يبدو بأنّ ابنها قد ارتكب جرمًا كبيرًا، كعادته طبعًا.

- أعرف ذلك، فقد اتّصلتْ بي أيضًا، وطلبتْ منّي أن أساعدها.

- تساعدها؟ ولِما أنت بالذّات؟ أما كان أولى لها، أن تتّصل بأبيك؟

- أبي مسافر خارج المدينة، وهاتفه مغلق.

تمتمت أمّي (قائلة):

- مسافر؟ ولَمْ يخبرنا؟ تُرى أين عساه يكون؟ هل من الممكن أن..؟

وسكتت فجأة، بعدما رأتني أنظر إليها بتركيز، يبدو بأنّها كانت تعرف إلى أين ذهب، ولكنّها خشيتْ أن تُفصح، عمّا يجيش بخلدها، من أفكار، وهواجس، فسألتها:

- من الممكن ماذا يا أمّي؟

فأجابت (مقاطعة إيّاي):

- كلّا، لا شيء..

وابتسمت ابتسامة غريبة، ابتسامةٌ تخفي خلفها، أمرًا ليس هيّنًا، يبدو بأنّ أبي قد ذهب كعادته، لكي يتاجر في الممنوعات، وإلّا فلما انزعجت، حين سألتها عنه؟ لقد أخبرتني مرّة، بأنّها اكتشفته يتاجر في أمور ممنوعة.

- أوه.. يا إلهي، ما هذا البيت المجنون؟ أتمنّى أن يمضيَ سفره هذا على خير، وخصوصًا أنّه لا يجيب، على اتّصالاتنا..

حضّرت أمّي الغداء كعادتها، واجتمعنا كلّنا على المائدة، ما عدا نريمان، فسألتُ أمّي عنها، لأنّني لم أرها البارحة، على العشاء، ولا حتّى الآن، فأجابت:

- إنّها في غرفتها.

- ولما هي في غرفتها؟ هل هي مريضة؟

- كلّا.. ولكنّها لا تريد أن تأكل.. أنت تعرف السّبب.

- بخصوص موضوعها مع سهيل؟

- أجل.

- أيُعقل أن نأكل بدونها؟ ألم يتحدّث معها أحدكم ليقنعها؟

قلتُ بتهكّم، قبل أن تجيبني أمّي:

- لقد حاولتُ معها، ولكن دون جدوى، فهي عنيدة كوالدها.

فقمتُ من مكاني، وهنا قالت أمّي:

- هل ستحاول معها؟

- أجل، لا يُعقل أن نتركها هكذا، يجب أن نقنعها.

- ليتك تستطيع، آمل أن تقنعها، فلا جدوى للعناد مع أبيك.

تركتها بعد أن أنهت حديثها، وصعدتُ لغرفة نريمان، أين وجدتُ الباب مفتوحًا، ونريمان تطلّ من الشّرفة.. فدخلت، ثمّ قلتُ لها:

- كيف حالك؟

- بخير..

ثمّ سكتت، فسألتُها:

- ألن تأتي، لتأكلي معنا؟

- لا.. شكرًا، لا أريد أن آكل.

- لماذا؟

فسكتت، ولم تجبني، وهنا اقتربتُ منها، وقلت:

- سأجيبكِ أنا، كلّ هذا لأنّ أبي رفض الخِطبة، أليس كذلك؟

- ها أنت إذًا تعرف، سبب عدم نزولي للغداء، إذًا فلما السّؤال؟

- لأنّه وببساطة، لا ترضيني رؤيتك، على هذه الحالة، يجب أن ترمي كلّ هذا خلفك، وتأتي لتأكلي معي على الأقل.

- ولكن..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعتها:

- هيّا.. لا داعي للتّفكير في الغد، دعي الأمور تسير، كما قُدّر لها، فأنتِ لا تعلمين، ما قد يحصل غدًا.

- وما الذي يمكن أن يحصل، ونحن نعيش في منزل، أشبه بالثّكنة، كلّ شيء فيه بالقانون، ألا يمكن أن نتمرّد، وننفّذ رغباتنا ولو لمرّة؟ هذا لا يُعقل يا حامد، لقد تمادى أبي في تصرّفاته كثيرًا، فبعدما حرمك من الزّواج من نور، ها هو ذا يقضي على حلمي، ليكرّر نفس الخطأ، إلى متى سيظلّ يتدخّل في حياتنا، وكأنّنا أطفالٌ صغار؟

فابتسمتُ محاولًا التّخفيف، من حدّة انفعالها، ثمّ قلت:

- ما هذا الكلام يا نريمان؟ ثكنة، وتمرُّد، أتنوين الانضمام للجيش، وأنا لا أعرف؟

فضحكتْ أخيرًا.. وهنا قلتُ لها:

- ما أجمل هذه الابتسامة، ابتسمي هكذا دائمًا، مهما حصل، ولا داعي لكلّ هذا الكلام، ومن يدر؟ فربّما يتحقّق حلمك، في يومٍ ما، يجب أن يكون لديك، إيمان قويّ بالله، ثمّ إنّه ليس شرطًا، أن تعيشي ما عشته، فقد أكون حُرمتُ ممّا أتمنّى، لحكمة ما، ولكن ليس بالضّرورة، أن تكوني مثلي.

- ما أكبر قلبك، وما أطيبك من إنسان، أنت لا تعرف، كم أراحني كلامك هذا، منذ مدّة لم أسمع حديثًا مثله.

نزلنا أخيرًا، بعدما هدّأتُ من روعها، وما إن رآنا خالد حتّى قال:

- زغردي يا أمّاه، فقد نزلت العروس أخيرًا.

فأجابته نريمان (وهي تضحك كما عهدناها):

- كفاك مزاحًا.

فقالت أمّي:

- طبعًا.. حين يحدّثكِ حامد تنزلين، لكن حين أحدّثكِ أنا، وكأنّي أحدّث صنمًا، أليس كذلك؟

فقلتُ لها (مقاطعًا):

- على رسلك يا أمّي، دعينا من هذا الحديث، فأنا جائع، ولستُ على استعداد للتّدخل، إذا وقع أيّ شجار بينكما.. ما هذا الأكل كلّه؟ يبدو لذيذًا.

ووضعتُ أوّل لقمة في فمي، ثمّ سألت:

- من أعدّ هذا الطّبق اللّذيذ؟

فقالت زوجتي جنى (متسائلة):

- أنا.. هل أعجبك؟

- أجل، إنّه لذيذ جدًّا، سلمتْ يداك.

فتدخّلت أمّي (مقاطعة إيّاي):

- ومنذ متى كانت زوجتك تعرف الطّهي؟

ثمّ التفتت لجنى، وقالت لها:

- وأنت؟ ألا تملّين من الكذب؟

ثمّ عادت لتلتفت إليّ، وقالت:

- زوجتك المصون كانت نائمة، لغاية السّاعة الحادية عشرة، وحين قاربتُ على الانتهاء من الطّبخ، نزلت هي كعادتها، وبدأت بالثّرثرة..

وهنا حاولتُ احتواء الموقف، فقلت:

- حسنٌ، سلمت يداك يا أمّ حامد.

قامت جنى غاضبة، وصعدت لغرفتها، دون أن تتفوّه بكلمة، فقالت أمّي:

- أرأيتَ قلّة الأدب؟

فتنهّدتُ مطوّلًا، ووضعتُ الملعقة، ثمّ نظرتُ لنريمان، التي قالت:

- كان الله في عونك يا حامد.

فنظرت إليها أمّي بغضب، وقبل أن تمطرها، بوابل من الإهانات، قال لها خالد:

- كم أنتِ قاسية يا أمّي، حين أتزوّج لن أسكن معك، اعذريني.. ولكنّكِ صعبة المراس.

قال كلامه هذا، ثمّ نظر لنريمان، وأخذا يضحكان معًا، أمّا أنا فلم أجد ما أقوله، فضحكتُ معهما، لأنّي لم أعد أتحمّل هذا الكمّ الهائل، من المشاكل اليوميّة، التي تقع على عاتقي، أنا بالذّات دون غيري، أو هكذا يُخيّل إليّ.. لدرجة أنّ شيئًا لم يعد يؤثّر فيَّ، كسابق عهدي.

***

عاد أبي من سفره المفاجئ، وقد بدا عليه الإرهاق، وبمجرّد أن عاد حتّى جاءت زوجته، تجري كعادتها، لتخبره هذه المرّة، ما حصل لهاني أثناء غيابه، فثارت ثائرته، وصبّ جام غضبه عليها، ونعتها بأقبح الصّفات، وما إن رأته على هذه الحالة حتّى عادت، إلى التّمثيل، فهي

لا تستطيع العيش، دون تقمُّص دور الضّحيّة، فتظاهرت بالبكاء، ممّا جعل غضب أبي يزداد، فقاطعها (قائلًا):

- اخرصي، أيّتها الغبيّة، أليست هذه نتيجة تربيتكِ لذاك الصّعلوك؟ دلالكِ الزّائد له، ولأخته أفسدهما، بحيث لا يكاد يمرّ عليّ يومٌ واحد، حتّى يقوم فيه ابنكِ بحماقة، من حماقاته، التي لا تنتهي أبدًا.

فأجابته (متحدّية):

- أليس ابنك أنت أيضًا؟

- اخرصي، وإلّا قطعتُ لسانك، لي ثلاثة أولاد غيره، ولم يأتِ أحد في يوم، ليشتكي على واحد فيهم، أليسوا رجالًا مثله؟ إذًا لماذا ابنكِ فقط، من يرتكب الحماقات، ويجلب لي العار؟ لقد نفذ صبري، بعد أن كاد يضيّع الشّركة، بسبب غبائه، سأقتله يومًا، وأنت، اغربي عن وجهي، وإلّا فسأرتكب فيكِ جريمة.

وأمر الحُرّاس بإخراجها، قبل أن يقتلها فعلًا، واتّجه بعدها لغرفته، أين اتّصل بأحد معارفه، ليتدخّل لإخراج هاني من السّجن، وهو ما تمّ، فقد خرج هاني، وحاول أن يكسب ودّنا جميعًا كعادته، بعد أن يرتكب حماقة ما، فيظلّ بعدها مدّة من الزّمن، كحمل وديع، متظاهرًا بأسمى معاني النّبل، والإنسانية، حتّى لكأنّ النّاظر له، يجزم بأنّه إنسان محترم، ولكن للأسف، فهذا الاحترام المفاجئ لا يدوم طويلًا.. ليعود لعاداته القديمة.

وها هي ذي أيّامٌ تمضي، على خروجه من السّجن، في هذه المدّة تبادر لذهني، بأن أسأله، عن الذي بينه، وبين ذاك الشّاب، الذي كاد أن يسقطني أرضًا بسببه، بصراحة، لم أعد أستطيع الصّبر أكثر، كان يجب أن أعرف، سرّ كره الشّاب الشّديد له، الذي من المؤكّد، بأنّه قد تأذّى من هاني بطريقة، أو بأخرى.

اتّصلتُ به، فردّ عليّ، مستغربًا سرّ اتّصالي به، فأخبرته بأنّي أريد رؤيته، في قضيّة ضروريّة، وبعد أن اتّفقنا على الالتقاء، في المقهى، الذي بوسط المدينة، أنهيتُ المكالمة، بعدما شدّدتُ عليه بالمجيء في الموعد، لأنّني أعرفه كثير التّماطل، ولا يفي بوعوده.

التقينا بعدها بالفعل، أين دخلتُ إلى المقهى، فوجدته قبلي هذه المرّة.. والحقيقة أنّها أوّل مرّة، يفعل فيها هذا، كان يجلس، وفي يده سيجارة، والهمّ بادي على وجهه، وكأنّ كلّ أعباء الدّنيا، قد وقعت على عاتقه، لدرجة أنّه لم ينتبه لوجودي، وأنا أقترب منه، رثيتُ لحاله يومها، فقد بدى حزينًا، على غير عادته، بصراحة كانت أوّل مرّة أراه هكذا.

جلسنا نتحدّث مطوّلًا، بعد أن ألقيتُ عليه التّحيّة، ثمّ سألني عن سبب اتّصالي به، فأخبرته بما حدث بيني، وبين الشّاب، ثمّ سألته عن سبب كره هذا الأخير له، في البداية امتنع عن الخوض، في الموضوع، ولكن بعد أن أصررت، على معرفة القصّة، أخبرني بأنّ ذاك الشّاب كان يحبّ جارته، وبعد قصّة حبّ طويلة بينهما، تعرّفت البنت على هاني، وأحبّته، وتخلّت عن ذاك الشّاب، وهو ما لم يستسغه، ممّا جعله يحقد

على هاني، وعلى كلّ الأثرياء، ظنًّا منه، بأنّ المال هو السّبب، وليس هذا فحسب، فقد أخبرني بأنّه تشاجر معه، كذا مرّة أمام الملأ، بل وهدّده بالقتل أيضًا.. تفاجأتُ حين سمعتُ كلامه، فسألته مجدّدًا بأن يصدقني القول، وقلتُ له:

- أهذا هو السّبب الحقيقي؟ أم إنّك تخفي شيئًا آخر؟

- هذا كلّ ما حصل بيننا.

بصراحة.. انتابني شعورٌ ما بالسّوء، حيال هاني، فنظرات الشّاب، وكلامه لا يبعثان على الخير، لقد لمستُ كرهه لهاني، فقد كاد يقتلني لمجرّد أنّي أخوه، طلبت منه أن يحذر منه، وأخبرته عن عدم ارتياحي لكلامه، فابتسم، وقال:

- لا عليك يا أخي، لا تقلق.. لن يفعل شيئًا.

نظرتُ له مليًّا، لعلّي أجد تفسيرًا لثقته، فارتبك من نظراتي، وطأطأ رأسه، ثمّ عاد للحديث:

- أوه، حسنٌ، سأحاول حماية نفسي، ما استطعتُ لذلك سبيلًا.

- أرجو ذلك يا هاني، أتمنّى أن تتجنّبه، ما أمكنك ذلك.

ثمّ سكت كلٌّ منّا، وانتهت جلستنا، على هذه الحالة.

***

رجعتُ يومها للبيت، ثمّ صعدتُ لغرفتي، واستلقيتُ على السّرير، لأرتاح، وما إن فعلتُ حتّى دقّ أبي الباب (مستأذنًا بالدّخول):

- هل نمت يا حامد؟

- أبي؟ كلّا.. لم أنم بعد، هل حصل شيء ما؟

فابتسم، ثمّ قال:

- لا.. لم يحصل شيء، جئتُ لأحدّثك في موضوع.

- تفضّل.. على الرّحب، والسّعة.

- أريد أن أسألك عن رؤوف.

قال أبي، فسألته:

- ما به؟

- أحتاجه في أمر ضروريّ جدًّا.

- وما المطلوب منّي؟

- أريدك أن تتّصل به من هاتفك، وتعطيني الهاتف، لأكلّمه، فأنت تعرف بأنّه لا يكلّمني، منذ أن هرب إلى الأرجنتين.

في البداية تردّدت، وبقيتُ صامتًا، إلى أن قطع صمتي(بقوله):

- ما بك؟ ألن تتّصل به؟

- ولكن.. يا أبي..

- أعرف.. أعرف بأنّه لا يريد الحديث إليّ، ولكنّ الأمر مستعجل، هيّا.. اتّصل به.. لا تخف، لن أؤذيَه.

فعلت في الأخير، ما طلبه منّي، فليس لي خيار، على كلّ حال، اتّصلتُ برؤوف، وما كدتُ أفعل حتّى تفاجأت، بأبي يأخذ الهاتف، من يدي، ويردّ عليه:

- ألو.. رؤوف، رؤوف.

سكت رؤوف قليلًا، قبل أن يضيف أبي:

- أعرف أنّك لا تريد أن تكلّمني، ولكنّي أكلّمك لمسألة ضروريّة.

لزم رؤوف الصّمت، وهنا قرّر أبي أن يعطيني الهاتف، لعلّي أقنعه بالتّحدّث إليه، وقد بدا عليه الحزن، والنّدم، عمّا فعله له، في الماضي.. فأمسكتُ الهاتف، وقلت:

- ألو رؤوف أنا حامد.. آسف، لكنّ أبي طلب منّي، أن أتّصل بك، لموضوعٍ يريد أن يحدّثك فيه، وأنا لم أستطع أن أرفض طلبه.

ولكنّه لم يجب، وظلّ صامتًا، فقلت له:

- ما بك؟ ألن تجيبني؟

وهنا لم يتمالك نفسه، أين انفجر (غاضبًا):

- ألم أقل لك بأنّي لا أريد سماع صوته، ألم تعدني بأنّك لن تعطيه الرّقم؟

- مهلًا.. أنا لم أعطه رقم هاتفك، إنّه يكلّمك من هاتفي، وهو لا يعرف رقم هاتفك أصلًا..

فقاطعني:

- وإن يكن، ليس من المفروض أن تلبّيَ له طلبه، بعدما كاد يقضي على مستقبلي، بل ويزجّ بي في السّجن.

قال رؤوف كلّ هذا، وأبي يسمع كلّ كلمة، تصدر منه، وقد احمرّ وجهه في هذه الأثناء، من شدّة الخجل.. فقلتُ له:

- هدّئ من روعك، وانس الماضي، إنّه يريدك في موضوعٍ، وليس عليك سوى الاستماع لما يقوله.

لم أكمل كلامي، حتّى انقطع الاتّصال، يبدو أنّ رؤوف لم يتجاوز ما حدث له، بسبب أبي، وهنا سحب هذا الأخير نفسه، وقبل أن يخرج من الغرفة، ربت على كتفي، ثمّ قال:

- لا عليك يا حامد، اعذرني، إن سبّبتُ لك أيّ إحراج.

وخرج وهو يجرّ أذيال الخيبة، والنّدم، والحسرة باديين على وجهه، لأوّل مرّة أراه منكسرًا، بهذا الشّكل، لقد تغيّر كثيرًا بعد رجوعه، إذ لم يعد ذاك الرّجل، الذي كان بالماضي، وكأنّه نادمٌ على كلّ ما اقترفه، في سابق عهده، ربّما عاد للحياة، بعد موته المزعوم، فقط ليصلح ما أفسده في ماضيه.

عدتُ بعدها لسريري، محاولًا أن أنام، فقد كنتُ متعبًا بما يكفي يومها، غفوتُ قليلًا، و يا له من إحساس، أن تستلقيَ على السّرير، لتنام بعد تعب، هو حقًّا من الأمور التي لا مثيل لها، أمورٌ تبعث على الرّاحة فعلًا، ولكن للأسف، فهذا الشّعور بالرّاحة لم يدم طويلًا، حتّى رنّ هاتفي مرّة أخرى، فكّرتُ في تلك اللّحظة، بأن أرميه من النّافذة، إنّه لأمرٌ مزعجٌ حقًّا، أن يرنّ أكثر من مئة مرّة باليوم، لينقل لك الأخبار البائسة فقط، فأنا لا أكاد أتذكّر منذ أن اشتريته، أنّه نقل لي خبرًا واحدًا سعيدًا..

قمت أخيرًا، لأرى من المتّصل، وبالكاد استطعتُ ذلك، نظرتُ لهاتفي، وإذْ به المدير.. فأجبته (قائلًا):

- ألو..

- ألو حامد، عليك أن تأتي للمشفى حالًا، فقد انهارت الكثير من البنايات، بإحدى المدن المجاورة، إثر زلزال عنيف، وقد نُقل الكثير من الضّحايا إلى هنا، نظرًا لعدم قدرة مستشفيات مدينتهم على استيعابهم، لكثرة عددهم، و..

وقبل أن ينهي المدير كلامه، انقطع الاتّصال، يبدو أنّ هذا اليوم لن يمرَّ على خير، قمت، وغيّرتُ ثيابي، وركبتُ سيّارتي نحو المشفى، وما إن وصلتُ حتّى وجدتُ سيّارات الإسعاف، مكدّسة أمامه، ورجال الإسعاف ينزلون الضّحايا، كانت سيّارات الإسعاف كثيرة، سيّارة تروح، والأخرى تجيء، حتّى إذا ما أفرغت هذه الأخيرة ما فيها، عادت من حيث أتت.. لقد كان مشهدًا مأساويًّا، بكلّ ما في الكلمة من معنى، ضحايا يتألّمون، وممرّضون يركضون لنقلهم، من سيّارات الإسعاف إلى الطّوارئ، أن يتمهنَ المرءُ الطّب، ليس بالأمر الهيّن، ولكن حين يؤدّي واجبه، على أكمل وجه، يحسّ بفخر، واعتزاز بالنّفس كبير، فهي مهنة نبيلة، تحتاج الشّخص الذي يقوى، على تحمّل ما بها من مشاقّ.

دخلتُ للمستشفى، مسرعًا لرواق الطّوارئ، كان الجميع في حالة تأهّب، واستنفار، فسيّارات الإسعاف لم تتوقّف، عن نقل الضّحايا طوال اللّيل لكثرتهم، كان كلّ الأطبّاء هناك، بالإضافة للممرّضين، والعمّال،

بينما ظلّ المدير يجري اللّيل كلّه، بين الأروقة، ليصدر الأوامر كعادته، لا أعرف لِما شعرتُ بأنّه مسرور، بهذا الحدث الجليل، الذي سيمضي فيه وقتًا لا بأس به، وهو يتحدّث عنه للصّحف، والجرائد، فهو لا يفوّت الفرصة، ما وجد إليها سبيلًا، فهذا الحدث يسيل لعاب وسائل الإعلام، وهو ما يحبّه المدير، الذي لا يتوانى في الحفاظ، على سمعة المشفى.

كانت ليلة شاقّة جدًّا.. ضحايا منتشرون هنا، وهناك، فالطّوارئ لم تكفِ لاستيعابهم، بل استوجب نقل الكثير منهم، وتوزيعهم عبر باقي الأروقة، كان علينا نحن الأطبّاء، مهمّة فرز الضّحايا، فالمتضرّرون أكثر من غيرهم، والذين تستوجب حالاتهم إجراء عمليّة مستعجلة، يجب أن يتمّ وضعهم في الرّواق الأوّل، أمّا الضّحايا الأقلّ تضرّرًا، فهم بحاجة للرّعاية الطّبية، ومسكّنات للألم، وما شابه، فيتمّ وضعهم بباقي الأروقة، حسب عددهم طبعًا.

دخلنا لغرفة الجراحة، لإجراء عمليّات للضّحايا، كانت الإمدادات تصلنا من المستشفيات الفرعيّة، مثل الأدوية، والأطبّاء، فالحادث يفوق قدرة المشفى، على استيعابه، بصراحة منذ أن عُيّنتُ هنا، لم أمضِ ليلة كهذه، فالقلق الذي عشناه خلالها، قد فاق الوصف، فقد عشنا على أعصابنا، وخاصّة أنّ الكثير من الضّحايا توفّوا، فور وصولهم للمشفى، لذلك وبالإضافة للجهد الذي نبذله، كان لزامًا علينا محاولة إنقاذ، من يمكننا إنقاذه، والحمد لله أنّنا استطعنا أن ننقذ، من كُتبتْ له النّجاة، لنخرج بذلك بأقلّ الأضرار، والخسائر.

حين انتهينا من الحالات الصّعبة، سرتُ بين الأروقة، لكي أطمئنّ على المرضى، فوجدتُ نور، التي كانت قلقة جدًّا، فسألتها عن سبب قلقها، لتخبرني بأنّ خالها، كان من الضّحايا، وقد أُجريت له عمليّة، وهو يرقد في العناية المركّزة.

***

مرّت أيّامٌ على هذا الحادث الأليم، وها قد تماثل الضّحايا للشّفاء، وفي مكالمة مع المدير، أخبرني بأنّ الصّحافة ستستضيف الأطبّاء، والممرّضين، والعمّال، لتشكرهم على صنيعهم، وقد رشّحني لأكون من ضمنهم، وسألني عن رأيي بقوله:

- ستكون أوّل الحاضرين، أليس كذلك؟

فاعتذرتُ منه، وقلت:

- أشكرك سيّدي، على ترشيحك لي، أن تذكر اسمي، فهذا شرفٌ كبير، ولكن اعذرني، فهذه مهنتي، ولم أقم إلّا بما يمليه عليّ ضميري، وواجبي المهني، وليس لي أيّ فضل.

فسكت للحظات، ثمّ قال:

- بصراحة، لم أرَ في حياتي رجلًا مثلك، أقدّر أخلاقك العالية.

***

عادت الأمور لما كانت عليه، وسادت حالة السّلام في المشفى، ربّما هو السّلام المؤقّت، كما جرت عليه العادة، فككلّ المشافي نعيش فترة من السّلام، قبل أن يبدأ موسم العمليّات الجراحيّة، أو الطّارئة جرّاء

وقوع حادث هنا، أو هناك.. كنت جالسًا مع زميلي، نتناقش حول بعض المسائل الطّبيّة، إلى أن قرّر هذا الأخير الخروج، لشراء بعض الأكل، فقد سئم من الأكل الصّحي، الذي يُقدّم هنا عادة، كانت نور تراقبنا من بعيد، والتي لم تفوّت الفرصة، حتّى جاءت، لتسلّم عليّ (قائلة):

- الكلّ يتحدّثون عنك، وعمّا أبليته يوم الحادث، لقد كنتَ من بين أهمّ الأطبّاء، الذين ساهموا في إنقاذ، الكثير من الضّحايا يومها.

- شكرًا.. لم أفعل إلّا ما يمليه عليّ واجبي، ليس إلّا..

- بصراحة.. لم أتمنَّ يومًا أن أكون جرّاحة، فقد كان كلّ همّي، أن أكون طبيبة، ولكن حين سمعتُ إطراء، كلّ من في المستشفى عليك، وعلى باقي الجرّاحين، أحسستُ برغبة، أو بالأحرى تمنّيتُ أن أكون مكانك.

وسكتتْ قليلًا، ثمّ عادت للحديث مجدّدًا:

- أتعلم؟ لقد كبرتَ في نظري، حين رفضتَ إجراء حوار صحفي، أنت من القلائل، الذين رفضوا إجراء الحوار.

فابتسمت، ثمّ قلتُ لها:

- شكرًا.

- سمعتُ بأنّ الدّكتور حازم هو أوّل من وافق، على الظّهور باللّقاء، يبدو لي بأنّه يشبه المدير، لحدٍّ بعيد.. ولكن ما أثار استغرابي، هو أنّه لم يقم بأيّ مجهودٍ يُذكر، وهذا بشهادة الجميع.

- لا تستغربي، فما أكثر النّماذج التي تشبه حازم بحياتنا، والأدهى أنّ هؤلاء يعتقدون، بأنّهم محور الكون، وبدونهم ستنقرض البشريّة، أو ربّما سوف يسقط نيزك، على بني البشر، فيبيدهم عن بكرة أبيهم، لولا وجود أولئك، الذين يدّعون بُهتانًا، بأنّهم عنصرٌ مهمّ، في هذه الحياة.

لم ننه كلامنا، حتّى دخل علينا حازم، وبدون مقدّمات، دخل معنا في الموضوع:

- أراكما تتحدّثان، خيرًا إن شاء الله؟

فقلتُ له:

- سبحان الله.. الآن فقط كنّا نتكلّم عنك.

- كنتم تتحدّثون عنّي؟ لم أكن أتوقّع بأنّني مهمّ، لهذه الدّرجة، من المؤكّد أنّ الدّكتورة نور، هي من فتحتْ الموضوع.

قال كلامه هذا، وهو ينظر لها، فقالت (محاوِلة إخفاء ضحكتها):

- بصراحة، كلّ من في المشفى يتكلّمون عنك، وعمّا أبليته في اللّقاء الصّحفي، الذي أجريته مؤخّرًا.

فتغيّر لونه فجأة، وابتسم ابتسامة عريضة، ونفخ صدره، مثل ديكٍ روميّ، ثمّ قال (مفتخرًا):

- حقًّا؟ لم أكن أتوقّع، بأنّ الكلّ يمجّد مآثري، بهذا الشّكل.

نظرت نور إليّ في هذه الأثناء، وابتسمت بسخرية، فما كان عليّ إلّا أن أبتسم.. ثمّ أردفتْ (قائلة):

- لقد أبليتَ بلاءً حسنًا، لدرجة أنّ الكلّ يحسدك، على صنيعك.

أحسستُ بخجل شديد، فلهجتها كانت مليئة بالسّخرية، ولأنّي أعرفها تمام المعرفة، فقد فهمتُ سخريتها المبطّنة، خلف ذلك المديح المزيّف، وكم حمدتُ الله، أنّه لم يفهم قصدها، أو لعلّه يكون قد فهم، ولكنّ إعجابه الشّديد بها، جعله يتصرّف بشكل عادي، كي يحفظ ماء وجهه.. لقد لاحظتُ مدى اهتمامه بها، منذ أن عُيّنتْ هنا، فقد كان يتبعها، أينما ذهبت، فهو لا يكاد يراها في مكانٍ ما، إلّا ويتحجّج بأيّ حجّة، للحديث معها، بصراحة هذه أوّل مرّة، أراه مهتمًّا بفتاة، لهذه الدّرجة، فرغم كلّ ما قيل عنه، حول حبّه للنّساء، وخاصّة الثّريّات، إلّا أنّه قد تعلّق بنور فعلًا، وما جعلني أتأكّد من هذا، هو أنّه جاء لمكتبي بعدها، أين كنتُ جالسًا، لأتفحّص بعض الملفّات، فدخل للمكتب، وبعد أن ألقى التّحيّة، قال:

- هل يمكنني الحديث معك، في موضوع شخصي، بعض الشّيء؟

قال كلامه، وقد بدا عليه الارتباك، على غير عادته، فاستغربتُ من طريقة كلامه، التي لم أعهدها، فقد كان مغرورًا جدًّا، فقلتُ له:

- تفضّل، أنا أسمعك.

فابتسم محاولًا إخفاء توتّره، وها هو ذا آخر الأمر، قد استطاع أن يكبح جماح توتّره، وذلك بأن قال:

- أوه، حسنٌ، جئتك في أمر شخصي، وأعلم بأنّه يمكنني الاعتماد عليك.

- إن كان في مقدوري أن أساعدك، فلن أتأخّر، هاتِ ما عندك.

- الأمر متعلّقٌ بابنة عمّك نور.

- نور؟ ما بها؟

- لا تقلق، أوه.. حسنٌ.. لا أعرف من أين أبدأ..

احمرّ وجهه في هذه الأثناء، وابتسم، ثمّ أطرق صامتًا، ففهمتُ مراده، من هذه الحركات، وقلت:

- ماذا تريد أن تخبرني؟ هل لك أن تفصح؟

فاستجمع قواه أخيرًا، وقال:

- سأخبرك، وبدون أيّ مقدّمات، أريد أن أتقدّم لخطبتها، وأخشى ألّا توافق، وبصفتك ابن عمّها، أريد منك أن تفاتحها، في الموضوع.

استغربتُ سرّ تصميمه المفاجئ، على خطبتها، فهو لم يعرفها إلّا من مدّة، لكن وعدته بأن أفاتحها، في أوّل فرصة، وذلك بعد إصرار منه، بالرّغم من اقتناعي، بأنّها لن توافق على عرضه، لا لشيء، إلّا لأنّه ليس من النّوع الذي تحبّه، فهي لا تحبّ الأناني، ولا النّرجسي، والطّماع، ومعدوم الضّمير.. والمشكلة أنّ هذه الصّفات اجتمعت فيه.

لا أعرف لِما شعرتُ يومها، بشيءٍ من الغيرة، أو لعلّه الحنين، وأنا الذي كنت أظنّني نسيت، أو تناسيتُ ذاك الماضي الجميل، حيث أيّام الطّفولة، والمراهقة، وحبّ الماضي، الذي كبر معي، بل وشهد ولادته، كلّ معارفنا، وسمع به القاصي، والدّاني، لقد أجمعوا كلّهم أنّه سينتهي نهاية سعيدة، كما في القصص، والأفلام، ولكنّ هذه النّهايات لا تكون

إلّا في الأفلام، هذا ما اكتشفتُه فيما بعد، حين كبرت، وأرهقتْ قلبي، بقسوتها الدّنيا.

لم أحسّ بنفسي، إلّا وأنا أخرج من المستشفى، كعادتي كلّ يوم، أركب سيّارتي إلى البيت، بعد يوم شاق، لعلّي أستريح، ولكن هيهات، فحتّى منزلنا لم يعد مصدرًا للرّاحة، وصار عبئًا ثقيلًا يجثم على صدري، بمشاكله التي لا تنتهي، فيزيدني تعبًا، أعود للبيت، حيث المشاكل، بين زوجتي، وأمّي، تزداد يومًا بعد يوم، وأصواتهما تسبقهما، فتصل إلى الشّارع، ونريمان الحاضر الغائب، الذي غيّبته الحياة، عن مشاركتنا لحظاتنا العاديّة، حبيسة أربعة جدران، لا تخرج من غرفتها، إلّا لحاجة ماسّة، لقد تغيّرت، لدرجة أنّني لم أعد أعرفها، والحقيقة أنّها ليست وحدها، من تغيّرت، فأنا أيضًا تغيّرتُ كثيرًا، حتّى لم أعد ذاك الشّاب، الذي كنته في السّابق.

خرجتُ من المستشفى يومها، وأنا أسأل نفسي، لعلّها تجيبني، أيُعقل أن يظلّ الرّجل حبيسًا لمشاعر، من أيّام المراهقة؟ أيُعقل أن يتغيّر هو، وتتغيّر تصرّفاته، وكلّ شيءٍ حوله، بينما تبقى مشاعره، هي نفسها؟ أيُعقل أن يكون الحبّ ابتلاء؟ أيُعقل أن يبقى الإنسان أسيرًا لمشاعر، من المفروض أنّها مضت، أيُعقل أن يتذكّر، من حين لآخر تفاصيلًا، عاشها في الماضي؟

وبينما كنتُ مستغرقًا في أفكاري، التي جعلتني بمعزل عن العالم الخارجي، رأيتُ كافتيريا، فتوقّفتُ لأشرب القليل من الشّاي، وجلستُ

بزاوية منها، بعيدًا عن الضّجيج، وأعين النّاس، لأنفرد بأفكاري، ولكن ليس لوقتٍ طويل، فقد دخلتْ أختي جنّات، ومعها بنتان، وشابّان، والذين اقتحموا الكافيتريا، وهم يتحدّثون بصوتٍ مرتفع، دون مراعاة للحضور، كان شكل الشّابين، اللّذين يرافقانها مريب، لا يبشّر بالخير، أمّا البنتان فقد كانتا تضحكان، بشكل هستيري، أثار حفيظة الحضور، الذين رمقوهم باحتقار، ومنهم من نظر لهم بريبة، وذعر، وكأنّهم كلابٌ مسعورة، هجمت على الكافيتريا، دون سابق إنذار، لقد أحدثوا تلوّثًا سمعيًّا، فأخذ الجميع يتهامسون، فيما بينهم، ويشيرون بأيديهم، إلى جنّات، ورفاقها.

كانت جميع الطّاولات مليئة، ما عدا طاولة في الخلف، مقابلة لطاولتي، فلم يجد هؤلاء الخمسة، بُدًّا من الجلوس عليها، وإن بدا عليهم بعض التّذمّر، ولكنّهم جلسوا آخر الأمر، ليواصلوا أحاديثهم التّافهة، وضحكاتهم الهستيرية، التي أخذت تزداد حدّتها، شيئًا فشيئًا، حتّى عانقت عنان السّماء، غير مكترثين للحضور، ونظراتهم.. أثارت تصرّفاتهم، الكثير من الشّكوك حولهم، وأكثرُ شخصٍ أثار الشّكوك، كان شابًّا أسمر، شعره مجعّد، وعيناه ضيّقتان، وحواجبه رفيعة، وحادّة، كانت ملابسه رثّة بعض الشّيء، وكان يتحدّث، ويحرّك يديه بعشوائيّة، ويضحك أحيانًا، رافعًا صوته دون أدنى احترام، وتضحك معه البنتان، اللّتان مع جنّات، أمّا هذه الأخيرة فقد كانت تكلّم الشّاب الآخر، ثمّ تناولت كأس الماء، الذي وضعه النّادل، في هذه الأثناء أمامها، وفجأة

أفلتته ليقع، وينكسر، فأسرعت لتجمع بقاياه، وهي خجلة، وبعد أن انتهت من ذلك، وهمّت بالجلوس.. التفتت يمينًا، ويسارًا، لتتأكّد من أنّ أحدًا لم يرها، وفجأة رأتني، فزاد خجلها، ولكنّها تداركت الأمر، وقامت من مكانها، متّجهة نحوي، ثمّ قالت:

- أوه.. حامد؟ أنت هنا؟ لم أرك، كيف حالك؟

- بخير.. وأنت؟

- بخير.. بخير.

سألتها عن تلك الشّلّة، فأخبرتني بأنّهم رفاقها في الجامعة، وبأنّهم زبائن دائمون هنا، وبينما كنّا نتحدّث، رفعتُ بصري باتّجاه تلك الشّلّة، أين كان الشّاب، الذي يجلس بجانب صديقها، يحدّق فيَّ بطريقة، لم تعجبني، ولكنّي حاولت قدر الإمكان تجنّبه، وأنا أحدّثها، لكيلا أظهر انزعاجي، فسألتها:

- لِما لم نعد نراك يا جنّات؟

فابتسمت، وطأطأت رأسها، ثمّ قالت:

- الحياة مليئة بالمشاغل، ولكنّني أعدك بأنّي سأزورك، بإذن الله.

كانت هذه آخر جملة، أنهينا بها الحديث، لنفترق بعدها.. ولكنّ نظرات ذاك الشّاب لي، لم تفارق خلدي.

***

عدتُ بعدها للبيت، وما كدتُ أدخل حتّى سمعت، الكلّ يصرخ، وما إن رأتني أمّي حتّى أسرعت إليّ (وهي تقول):

- الحمد لله أنّك عدت بسرعة.

- خيرًا إن شاء الله.

- أبوك يريد أن يقتل نريمان.

- ماذا؟ أبي يريد قتل نريمان؟ لماذا؟

- هذا ليس وقت الكلام.

ركضتُ مسرعًا لغرفة نريمان، ولحقتني أمّي، فوجدنا أبي يمسك بها، من ذراعها، قبل أن يوقعها أرضًا، ثمّ قال:

- ألم أقل لكِ بأن تبتعدي، عن ذاك التّافه؟ أتتحدّينني؟

كانت نريمان تبكي بشدّة، فحاولتُ تهدئة أبي، وسحبته بهدوء.. وقلت:

- لا عليك يا أبي، هوّن عليك.

- قل لها بأن تبتعد، عن ذاك التّافه، وإلّا فسوف أقتلهما معًا، ما هذا البيت، الذي صار كلّ واحد فيه، يتصرّف كما يحلو له؟ أنا لم أمت بعد، وما أقوله يُنفّذ بالحرف الواحد.

خرج أبي وهو يتوعّد، أمّا نريمان فظلّت مستلقية، على الأرض، لشدّة صدمتها، كانت منهارة، ودموعها تنهمر، وجسمها يرتعش، ربّما لخوفها من ردّة فعل أبي، فهي تعرف تمامًا، بأنّه سينفّذ ما قاله، فهو لن يتردّد في قتلها، بل وإبادة كلّ العائلة، في لحظة جنون، وغضب، ولكن الحمد لله، أنّ هذا لم يحصل، على الأقلّ هذه المرّة، وإن كنتُ خائفًا

ممّا يمكن أن يحصل فيما بعد، فأبي عنيدٌ جدًّا، ولا يقبل أن يقف أحدٌ في طريقه.

قمنا أنا وأمّي، بمساعدتها على النّهوض، وأجلسناها على السّرير، حاولت أمّي تهدئتها، أمّا جنى فقد أحضرت كوب ماء، لتقدّمه لها، لعلّها تستعيد وعيها، وبعدما شعرتْ بالارتياح، والطّمأنينة، سألتُها:

- ما الذي حدث، حتّى حصل ما حصل؟ أخبريني بصدق، لأرى ما يجب عليّ فعله، لإنهاء هذه المشكلة.

وبعد صمتٍ دام لمدّة، صاحبه خروج أمّي، وجنى، بعدما أومأتُ لهما برأسي، ليتسنّى لها التّكلّم دون حرج، فهي لم تشأ التّحدّث إليّ، إلّا حين طلبتُ منهما الخروج، قالتْ أخيرًا:

- بينما كنت أمشي مع سهيل، في وسط المدينة، مرّ أبي بجانبنا، وما إن رآني حتّى أمر السّائق بالوقوف، وفتح نافذة السّيّارة، ثمّ ناداني، وما إن رأيته حتّى شعرتُ ببرودة، تسري في جسمي، لدرجة صرتُ معها كالمشلولة، لا أستطيع الحراك، فأشار أبي للسّائق بأن ينزل، ليسحبني من يدي..

وسكتتْ لبرهة، ثمّ عادت للحديث مجدّدًا:

- ظلّ أبي صامتًا، طول الطّريق، وهو ما زاد من خوفي، فبالرّغم من صمته، إلّا أنّه قد بدا غاضبًا، هذا ما حصل، والباقي كلّكم رأيتموه، بأُمّ أعينكم..

حاولتُ إقناعها بالعدول، عن رؤية سهيل، على الأقلّ في الوقت الرّاهن، وهو ما أكّدته لها أمّي، فيما بعد (قائلة):

- ابتعدي عن هذا الشّاب يا ابنتي، فأنتِ لا تعرفين أباك، كما أعرفه أنا، سوف لن يتوانى في قتله، إن لزم الأمر..

فنظرتْ نريمان لأمّي بتعجّب، واستغراب شديدين، والحقيقة أنّها ليست وحدها من استغرب، أنا أيضًا تفاجأت، فهل يُعقل أن يكون أبي سفّاحًا، لهذه الدّرجة.. ثمّ صرختْ في أمّي، بعد لحظاتٍ من الحيرة:

- لو حصل أيّ مكروهٍ لسهيل، فسوف أنتحر، هل تفهمين؟

***

غاب أبي كعادته، عن المنزل لأيّام، فهو كثير السّفر، ولم يصادف أن أخبرنا يومًا عن سفره، الذي عادة ما يكون مفاجئًا، ولا عن وجهته، ولكنّه كان يتّصل بأمّي، من حين لآخر، ليطمئنها عنه، دون أن يعطيها أيّ تفاصيل، فلا يحقّ لها أن تسأله أين هو، أو مع من، أو لماذا سافر، كلّ هذه الأسئلة محظورة عنها، هكذا أخبرتني ذات يوم.. أخبرتني فيما بعد، بأنّ سفره هذا مرتبط، بعمليّات تهريب سلاح، ومخدّرات، وغيرها من الأعمال، التي يتستّر عليها، فلا يعرف حقيقتها إلّا هو، وما شركاته إلّا واجهة، يوهم بها الآخرين بوجاهته المزعومة، ويقنعهم بأنّ ثراءه إنّما كان نتيجة عمله، في الاستثمارات، والتّجارة، والأعمال الحرّة..

كان والدي رجلًا ذكيًّا، وكان دائمًا ما يجد الحلول، لأيّ مشاكل تعترض طريقه، وبأيّ وسيلة، حتّى لو كانت غير مشروعة، ولكن ليس

دائمًا، فسفره الأخير قد سبّب له مشاكل كثيرة، فبعد رجوعه من سفره، رجع وهو مصابٌ في كتفه، بطلقٍ ناري، فسألته أمّي، حين رأته على هذه الحالة (قائلة):

- ما بها كتفك يا سالم؟

فتلعثم، وأحسّ بالارتباك، ثمّ قال (والعرق يتصبّب من جبينه):

- أوه.. أنا بخير، لا داعي للقلق.

فقلتُ (مستغربًا):

- ولكن من أصابك؟ ولما لم تبلّغ الشّرطة يا أبي؟

فأجاب، وهو يحاول مسح العرق بمنديل، أخرجه من جيبه:

- لا أعرف من الذي أطلق عليّ النّار، ولو عرفته لقتلته، المسألة هي أنّنا كنّا في سفر، كما تعلمون، وقد أخذتُ بعض عمّالي، لنشتريَ بعض الآلات اللّازمة للمصنع، وفي طريقنا للعودة لاحظ أحد العمّال سيّارتين تلاحقاننا، كنّا حينها في طريقٍ جانبي، وخالٍ من المارّة، وهنا انتهز أصحاب السّيّارتين الفرصة، وأطلقوا النّار علينا، يبدو لي بأنّهم لصوص، ربّما كانوا يريدون سرقة الآلات، التي بحوزتنا، وربّما كانوا يلاحقوننا، منذ البداية، ويعرفوننا.. ومن يعلم؟ المهم أنّنا استطعنا الهرب.

لم أصدّق كلّ ما قاله أبي، ولا أمّي صدّقت، بل حتّى أخي خالد لم يصدّق هو الآخر.. لم أنم يومها رغم محاولاتي، بقيتُ أتقلّبُ يمينًا، ويسارًا، ولكن هيهات، وحين تأكّدتُ من عدم قدرتي على النّوم، نزلتُ للمطبخ أخيرًا، فقد كان من عادتي، شُرب اليانسون، إذا استعصى عليّ

النّوم، نزلتُ للطّابق السّفلي، وفي طريقي، سمعتُ صوت أبي، ينبعث من داخل الصّالون، كان يتحدّث في الهاتف، مع أحد عمّاله، الذين يثق فيهم، وإلّا فلِما تحدّث إليه، بهذا الوقت المتأخّر، من اللّيل، كان يتكلّم، وهو يصرخ، وهو ما أثار انتباهي، وفضولي، في الوقت نفسه، فقرّرتُ أخيرًا أن أبقى، لأسمع الحوار، بالرّغم من أنّه ليس من عادتي، التّنصّت على النّاس، ولكنّ الحادثة التي وقعت لأبي، بالإضافة لكلامه المليء بالغموض، هو ما جعلني أبحث عن الحقيقة، التي لا يريد أن يكشفها لنا.. قال أبي للعامل:

- لقد سارت الخطّة على ما يرام، لولا ذاك الهجوم المفاجئ.. آخ.. ليتني أمسكه بيديَّ هاتين، لأخنقه خنقًا، السّافل يريد أن يبلّغ الشّرطة، ليفضحني، ويسجنني، لن يهنأ لي بال، حتّى أنتقم من الوغد مروان، سأسحقه برجلي.. قُل لي.. هل الأمور على ما يرام؟ ألم تقبض الشّرطة، على أيّ ممّن معك؟

فأجابه الآخر بالنّفي، وهذا ما فهمته، حين قال أبي:

- الحمد لله، الحمد لله.. أنا أعتمد عليك، في كلّ صغيرة، وكبيرة يا زيد، لقد استطعتَ تشتيت انتباه الشّرطة، حين دخلتَ معهم، أنت ومن معك في تراشق، وطلقٍ ناريّ متبادل، ثمّ دخلتم الطّريق الجانبيّ، بحيث لحقت بكم الشّرطة، واستطعنا نحن تهريب البضاعة، وأوصلناها لبرّ الأمان أخيرًا، كانت فكرة جميلة، أن نضع البضاعة، داخل إطارات عجلات السّيّارة..

استغرقتُ في التّفكير، وأنا أقف بجانب باب الصّالون، أمعقول ما يفعله أبي؟ هذا يعني أنّ ما قالته أمّي صحيح، وهذا يعني أنّ البضاعة، التي كانت بحوزته مخدّرات، وإلّا فلما أخفاها داخل العجلات، إن لم تكن بضاعة ممنوعة، وأنا على هذا الحال، من التّفكير، حتّى أسقطتُ مزهرية، كانت موضوعة على مائدة، إلى جانبي، لم أدرِ كيف لمستها، حتّى سقطت، وانكسرت.. وهو ما أحدث جلبة في المكان، أحسستُ في هذه الأثناء برعب، يسري في جسدي بأكمله، ولم أحسّ بنفسي، إلّا وأنا أختبئُ تحت الدّرج، المؤدّي للطّابق العلوي، والحمد لله، أنّني قد استطعت الاختباء، قبل خروج أبي بلحظاتٍ قليلة، والذي أراد أن يعرف مصدر هذه الجلبة، وكم تفاجأ، حين وجد بأنّ المزهرية وقعت، ودون أن يلمسها أحد، فنظر هنا، وهناك لعلّه يجد سببًا لانكسارها، وكم حمدتُ الله، حين رأى النّوافذ مفتوحة، وما زاد من تعجّبي، هو تلك النّسمات التي أرسلتها العناية الإلاهيّة، والتي جعلت ستائر النّوافذ تتحرّك يمنة، ويسرة، ما جعله يطمئنّ، ويبتسم، ثمّ قال:

- كم من مرّة عليّ أن أنبّههم، بضرورة غلق النّوافذ ليلًا، أوه.. إنّهم لا يفهمون، ولكن لا بأس.. المهمُّ أنّ أحدًا لم يسمع كلامي..

شعرتُ بالطّمأنينة أخيرًا، للحظة خُيّل لي بأنّه سيأتي، ليلقيَ نظرة تحت الدّرج، ولولا أنّه لم ينهِ مكالمته لفعل، دخل بعد ذلك للصّالون، ليكمل حديثه، لأنتهز بذلك الفرصة، أين صعدتُ لغرفتي مسرعًا، وقد نسيتُ موضوع اليانسون، عدتُ إلى فراشي، واستغرقتُ في أفكاري مرّة

أخرى، أتُراه يكون مروان هو العمّ مروان، الذي جاء فور رجوع أبي، ليراه؟ ولِما لا؟ فنظراته يومها لم ترحني، وأسلوبه كان مليئًا بالتّهديد.

يبدو أنّ لأبي أعداء كُثر، ولكنّه رجلٌ قويّ بما يكفي، ليخفيَ عنّا كلّ هذا، بصراحة.. كنت كلّ يومٍ أكتشف شيئًا جديدًا عنه، لدرجة أنّي بمرور الوقت، صرتُ أراه لغزًا، يصعب حلّه.

***

في اليوم التّالي، كنتُ أتفقّد المرضى كالعادة، وإذْ بحازم يناديني:

- دكتور حامد..

أوه، يا إلهي.. الدّكتور حازم يناديني؟ لقد نسيتُ موضوعه كليًّا.. ماذا عساي أقول له، إن هو سألني؟

- أهلًا دكتور حامد، كيف حالك؟

قال كلامه هذا، وهو يبتسم بشكلٍ غير معهود، فما أعرفه عنه، أنّه كئيب، ووجهه عابسٌ أبد الدّهر، لعلّه كان يُمنّي نفسه ببشرى سارّة، أزفُّها له، أجبته:

- بخير.. وأنت كيف حالك؟

- بخير.. أخبرني، هل كلّمتَ الدّكتورة نور، بخصوص الموضوع، الذي طلبته منك؟ آمل أنّك قد فعلت.

كان يكلّمني بلهفة، وهو يمسك سيجارة، في يده، شارفت على الانتهاء، كانت عيناه الصّغيرتان تحملقان، وراء نظّارة طبيّة، يضغط عليها أحيانًا بأصابعه، ليثبّتها على عينيه، وكنت بالكاد أستطيع رؤية

عينيه، خلف تلك النّظّارات، التي حجبتها، وقلّصت حجمها.. أجبته، وقد شعرتُ بإحراج شديد:

- أوه.. أنا آسفٌ حقًّا، اعذرني، فضغط الشّغل، بالإضافة لمشاكل شخصيّة، قد طرأت في بيتنا، جعلتني أنسى الموضوع، ولكنّي أعدك أن أفاتحها في الموضوع الآن، إن شئتَ ذلك طبعًا..

فتراجع للوراء قليلًا، أين عاد لتثبيت نظّاراته مجدّدًا، وقد أصيب بإحباطٍ شديد، عندما علم بأنّني لم أكلّمها أصلًا، ولكنّه حاول تدارك الأمر، في الأخير بقوله:

- لا.. لا بأس، تكلّم معها، حين تجد الفرصة سانحة لذلك، شكرًا على كلّ حال.

***

افترقنا بعد كلامه، وقد شعرتُ بحرج شديد، وخاصّة حين لمستُ مدى تلهّفه، لمعرفة الجديد حيال هذا الموضوع.. خرجتُ بعدها متّجهًا للمنزل، بعد يوم متعب، فما من يوم يمرّ في هذا المشفى، إلّا ويحدث فيه الكثير، وأنا في طريقي، قرّرتُ أن أذهب لمنزل عمّي أوّلًا، ثمّ أعود للمنزل، كان يجب أن أحدّث نور بشأنه، فشعوري بالإحراج جعلني أحسّ بتأنيب الضّمير، وهو ما حفّزني على إنهاء هذا الموضوع، حتّى لا أخيّب ظنّه، أكثر من ذي قبل، فقد شعرتُ بشيء من المسؤولية حياله.

وصلتُ لبيت عمّي، لقد مضى وقتٌ طويل، على آخر مرّة زرت فيها هذا البيت، حيث كانت علاقتنا بعمّي جيّدة، قبل أن تحصل المشاكل

بينه، وبين أبي، وقفتُ لدقائق أمام المنزل، قبل طرْق الباب، تذكّرتُ في هذه الأثناء، كيف كنتُ دائم المجيء إلى هنا، وكيف كانت زوجة عمّي - رحمها الله- تستقبلني بحفاوة، وكأنّني ابنها، منذ وفاتها تقريبًا لم أعد آتي إلى هنا، حتّى إنّني لم أرَ زوجة عمّي الجديدة إلّا مرّتين، منذ مجيئها لهذا البيت، أين انقلبتْ حياة نور، وإخوتها، رأسًا على عقب، وحلّتْ المشاكل محلّ السّلام، والحبّ، اللّذين ملآ هذا المنزل، وقفتُ أمام باب المنزل، عاجزًا عن دقّه للحظات، كم هو عجيبٌ حال الدّنيا، فكيف للمكان أن يبقى كما هو، ولكنّ النّفوس تتغيّر؟ كيف للمكان الذي ألفناه يومًا، وأحببناه، وكان مصدر بهجةٍ لأنفسنا، كيف له أن يتحوّل، ليصبح جحيمًا لا يطاق؟ وأنا على هذا الحال، وإذْ بابنة عمّي الصّغيرة - من زوجته الثّانية- تفتح الباب، وما إن رأتني حتّى استغربت، وقالت:

- هل ضيّعتَ منزل أحدهم؟

فابتسمت، وقلتُ لها:

- كلّا.. أنا ابن عمّكِ سالم، الدّكتور حامد.

فرمقتني بنظرات استغراب، فأنّى لها أن تعرفني، وهي لم ترني من قبل.. ونحن على هذا الحال، حتّى سمعتُ صوتًا من الدّاخل:

- من على الباب يا سارة؟

كانت زوجة عمّي تتساءل، فركضت إليها البنت مسرعة، وبعدما أخبرتها من أكون، جاءت الأخرى مرحّبة، وغير مصدّقة بأنّني قد جئت

أزورهم، فالعلاقة بيننا فاترة جدًّا، أو بمعنى أصحّ، لا تجمعنا بهم علاقة أصلًا، وبعد أن رحّبتْ بي، طلبت منّي الدّخول، وذهبت مسرعة لتخبر عمّي، فانتهزتُ أنا الفرصة للنّظر للبيت، ريثما يأتي عمّي، هذا البيت الذي لطالما لعبتُ فيه، وأنا طفلٌ صغير، كنت لا أنظر لركنٍ فيه، إلّا وتتداعى الذّكريات المبعثرة، والمنسيّة بفعل السّنين، ما أسوأه، وأجمله من شعور، في الآن نفسه، إنّه حقًّا لشعور جميل، أن تتداعى تلك اللّحظات الجميلة، فتراها كشريط يمرّ أمام ناظريك، ليذكّرك بتفاصيل تجعلك تضحك لوحدك، فتبدو للآخرين كالمجنون، تلك التّفاصيل، التي تاهت في غفلة منك، تاهت بفعل دوّامة الحياة، التي أغرقتنا في مشاكلها، فلا تكاد تنتهي من واحدة، من فتنها، إلّا وتطفوا للسّطح المئات منها، فتجعلك تدور في حلقة مفرغة، وما أسوأه من شعور حين تتذكّر تلك اللّحظات الجميلة، وأنت تدرك بأنّها مضت، ولن تعود أبدًا، فاللّحظات الجميلة قليلة، بل وقليلة جدًّا، تهرب منك على عجل، كحسناء تخشى أن يراها النّاس معك، فتحاول أن تداريَ نفسها، عن أعين المتطفّلين، لتتركك وحيدًا، وأسيرًا بين جنباتها، تأبى نسيانها، دخل عمّي، ليقطع ذاك التّداعي، لذكريات محتجزة في عقلي الباطن، وذلك بأن قال:

- مرحى.. كيف حالك يا بُنيّ؟

قال كلامه، وهو يحتضنني، فشعرتُ حينها، بأنّ الزّمن قد توقّف، عند آخر مرّة جئت فيها، لهذا المنزل، حيث كانت الأمور بيننا، وبين

أعمامنا على ما يرام، شعرتُ بالأمان، وهو يأخذني بين ذراعيه، كواحد من أبنائه، كسابق عهدي به، فهو لم يتغيّر أبدًا، ما زال طيّبًا، ومسالمًا، ومثالًا للرّجل الشّريف، والمناضل، الذي استطاع أن يبقى، هو وعائلته، بمنأى عن المستنقع، الذي غرق فيه أبي، بل وأغرقنا معه، وخاصّة حين استولى على أموال، هي في الأصل من حقّ أعمامي، عمّي ظلّ مثالًا للرّجل الثّابت، الذي لا تتغيّر قيمه، ولا تتزعزع مبادئه، في ظلّ الفتن بأنواعها، هذه الفتن التي أخذت على عاتقها، أن تغريَ كلّ من حولها، وقليلون هم الذين ظلّوا ثابتين، معاكسين لها، وعمّي واحدٌ من هؤلاء..

تسامرنا مع بعضنا، وذلك بعد أن أحضرت لنا، زوجة عمّي القهوة، سألني عن أبي، وأخبرني أنّه كان ينوي المجيء لزيارته، ولكنّ خوفه قد منعه، فهو يخشى ردّة فعله، فلم ألمه على موقفه، اتّجاه أبي، وقلت:

- إنّه بخير، لقد تغيّر كثيرًا، وأصبح أكثر طيبة، بعد عودته من موته المزعوم.

فرح عمّي لسماع هذا الكلام، وقال:

- الحمد لله.. أتمنّى فعلًا بأن يكون قد تغيّر للأحسن.

سألتُ عمّي عن نور، وعن سبب تغيّبها عن العمل، فقال بأنّها قد أصيبتْ بوعكة صحيّة، كانت نزلة بردٍ خفيفة، وألمٌ في رأسها، لازمها طوال اللّيل، ما جعلها لا تحضر للعمل، وتنهّد مطوّلًا قبل أن يتابع، وقد أخفض صوته، بشكل لافت للانتباه فجأة، وكأنّه لا يريد لأحدٍ غيري، أن يسمع كلامه:

- أنا أحسّ بتأنيب الضّمير، اتّجاه نور، التي أراها تذبل أمام ناظري، يومًا بعد يوم، فمنذ وفاة أمّها، ورحيل إخوتها، أصبحتْ وحيدة حزينة، لا تتكلّم إلّا قليلًا، بالإضافة للمشاكل التي تحصل بينها، وبين زوجتي، لقد ضقتُ ذرعًا بزوجتي، لدرجة أنّني عزمت، في الكثير من المرّات، على تطليقها، ولكنّي كنت أتراجع، حين تقنعني نور، بالعدول عن هذه الفكرة، بل وتُصرّ على أنّه لا توجد أيّ مشكلة بينهما، وأنا على يقين، بأنّها إنّما تفعل ذلك، لتهدئة الأوضاع، ولكن رغم محاولاتها المتواصلة على التّظاهر بالسّعادة، إلّا أنّني ألاحظ مدى الحزن، في عينيها، إنّني أشعر بالذّنب نحوها، وما زاد الأمر سوءًا، هو وقوف ابنتي الكبرى، من زوجتي الثّانية، في صفّ أمّها، والمشكلة أنّهنّ كلّهنّ يتصرّفن أمامي، وكأنّ شيئًا لم يحصل، وحين أخرج تطفوا المشاكل، للسّطح مجدّدًا، استفسرتُ من نور، لأنّها الوحيدة التي لم أعهدها يومًا تكذب، في هذا البيت، ولكن دون جدوى، فهي كتومة، ولا تعبّر عمّا يدور في خلدها بسهولة، هل لك أن تسألها، وتفهم منها؟

طمأنتُ عمّي، ووعدته بأنّي سأسألها، حين تكون الفرصة سانحة، كلام عمّي لأوّل مرّة عن زوجته، وحزنه على ابنته، ذكّرني بزوجة أبي، فهما تشبهان بعضهما، لحدّ بعيد، بل حتّى الظّروف تكاد تتشابه بيننا، وبين بيت عمّي، فلا يكاد يخلو بيتنا من مشاكل، تستثيرها زوجة أبي، بين الفينة، والأخرى، بعدما يسود السّلام بيتنا، لفترة ليست بالطّويلة، وآخر مرّة كانت، حين طرد أبي هاني، بعدما وبّخه، وأهانه أمام العمّال،

وهو ما لم تستسغه أمّه، التي جاءت لتهدّد أمّي، منذ بضعة أسابيع، فقد توعّدتها بالانتقام منها بالسّحر، لأنّها وفي اعتقادها، بأنّ أمّي هي التي حرّضت أبي على طرد هاني، الذي كان سبب هرب رؤوف للأرجنتين، كنوع من الانتقام لرؤوف، وهذا الكلام ليس بجديد عليها، فكلّ معارفنا يعرفون تمامًا، بأنّها مهوسة بالسّحر، فهي لطالما حاولت إيذاء، كلّ من يقف في وجهها، أو يحاول الاقتراب منها، أو من أبنائها، أو يتكلّم عنها بالسّوء حتّى، وما زاد الأمر سوءًا، أنّها تسكن بالقرب منّا، وهذا كلّه بتدبير من أبي، الذي رأى ضرورة أن نسكن قرب بعضنا.

سُمعة زوجة أبي السّيّئة، وصلت لسكّان الحيّ، حتّى أصبح الكلُّ يتجنّبها، وخاصّة النّساء، فهي في نظرهنّ ليست في المستوى، وخاصّة أنّهنّ من عائلات مرموقة، ولهنّ مكانة في المجتمع، تلك المكانة التي لم تستطع زوجة أبي الظّفر بها، رغم محاولات أبي البائسة لدمجها، مع سيّدات المجتمع، ولكنّ فاقد الشّيء لا يعطيه، فهي لم تكن في ماضيها، إلّا امرأة مشرّدة، تبرّأ أبوها منها، بعد أن قرّرت الهرب، من المنزل، لتشتغل كراقصة، بأحد الملاهي اللّيلية، لكي تهرب من الفقر المدقع، الذي كان أهلها يعيشونه، ثمّ تعرّفتْ بعدها على أبي، الذي تزوّجها في السّر، لسنوات طويلة، إلى أن مات جدّي، وجدّتي، فقرّر حينها الإعلان عن زواجه المشؤوم، فهو لم يشأ الإعلان عنه، في حياة جدّي، خوفًا من حرمانه من الميراث، ورغم كلّ ما فعله أبي، من أجل دمجها في مجتمعه الرّاقي، ولكن دون جدوى، فهي دائمًا، وأبدًا تنسى

هذا لتعود لأصلها، وهو ما جعل كلّ النّساء يحتقرنها، ويرينها كاللّعنة، التي حلّت عليهنّ، لتنغّص عليهنّ عيشتهنّ، فأصبحن يلقّبنها بنعوت، كحديثة النّعمة، والمتخلّفة، وسليطة اللّسان، وغيرها من النّعوت.

كلّ هذا كانت أمّي تعرفه، فقد أخبرتنا مرارًا، بأنّ النّساء يتهامسن عليها، حين كنّ يجتمعن بمناسبات كالزّفاف، وأعياد الميلاد، وغيرها، وعلى العكس من هذا، فإنّهنّ اجتمعن على حبّ أمّي، لأنّها محترمة في نظرهنّ، وكلّ هذا قد خلق لأمّي الكثير من المشاكل، وذلك بسبب غيرة زوجة أبي منها، الشّيء الذي جعلها، تحاول بكلّ الطّرق تقليدها، لتحصل على لقب سيّدة مجتمع، ولكن دون جدوى، لذا تلجأ للسّحر، حين تفشل في محاربة أمّي، بالطّرق المشروعة، لعلّها تجد حلًّا يشفي غليلها، ويطفئ غيرتها..

***

استطاع أبي تدارك الخسائر، التي خلّفها غيابه، طيلة سنة كاملة، واحتوى كلّ المشاكل، التي كان السّبب فيها أخي هاني، وأمسك بزمام الأمور، بيدٍ من حديد، وأنقذ الشّركات من الإفلاس، في آخر لحظة، وعاد لإدارتها، ريثما يجد مديرًا، يستطيع الوثوق فيه، وهو ما قاله لي، آخر مرّة، حين طلب منّي بأن أكلّم رؤوف، لعلّه يرجع، ليدير الشّركات من جديد، ولكنّ هذا الأخير أغلق الهاتف، بوجه أبي يومها، ولم يرضَ أن يكلّمه، ومع ذلك فقد ظلّ أبي يلحّ عليّ، بأن أبقى على تواصلٍ معه، لكي أقنعه بالرّجوع، وبالمقابل أعاد هاني كموظّف، بعدما طرده بسبب

المشاكل، التي افتعلها مع العملاء، بسبب تصرّفاته الصّبيانية، التي كاد بسببها، أن يضيّع كلّ ما بناه أبي، في سنين، عودته كانت بعدما فعلت زوجة أبي، كلّ ما في وسعها، لإرجاعه للعمل، وهذا ما قاله أبي لهاني، فور رجوعه للشّركة، بعد أن بقيَ لمدّة، عاطلًا عن العمل، وفي أوّل يوم، تمّ تعيينه فيه، كموظّف في الشّركة، استدعاه أبي لمكتبه، وقال له:

- لقد أرجعتك إلى هنا، من جديد، كموظّفٍ هذه المرّة، وإن بدر منك أيّ تصرّفٍ صبياني، فسوف أرميك خارجًا، هل فهمت؟

فسكت هاني، ولم يجب، وهو ما استفزّ أبي، الذي ثارت ثائرته، فصرخ فيه (قائلًا):

- أفهمتَ ما قلتُ لك؟

- أجل.. أجل.

- حسنٌ.. سأضعك تحت تصرّف خالك، لنرى إن كنت ستحسن التّصرّف هذه المرّة.

وقام بإرساله حيث القسم، الذي يرأسه خاله، دخل هاني لمكتب هذا الأخير، وقد بدا عليه التّذمّر، فقال له خاله:

- تعال يا هاني، اجلس، ما بك؟

- أوه.. ولكن..

- هيّا.. اجلس..

جلس هاني وهو ينظر هنا، وهناك، ثمّ تنهّد بطريقة، توحي بضجره الشّديد، لِما آل إليه حاله، وبعد أن أصبح لوحده، مع خاله، ولا أحد معهما، قال:

- أيُعقل أن أعود إلى هنا مجرّد موظّف، بعد أن كنتُ المدير، والآمر النّاهي؟

- لا تكن غبيًّا يا هاني، فالأمور الآن قد اختلفت، برجوعِ والدك، عليك أن تكسب ودّه، حتّى يثق بك مرّة أخرى.

- ولكن كيف يمكنني العمل الآن، كموظّفٍ بسيط؟ كيف يمكنني النّظر في وجوه الموظّفين، بعد أن كنتُ آمرهم، فيمتثلون لِما أمرتهم به؟ والآن؟ أنا مجرّد موظّف.. لن يحترموني، كما كانوا من قبل.

- لا عليك.. ستتعوّد على هذا، دعنا من هذا الآن، ولتأتي معي، لأريك أين ستشتغل، وما هي الأمور التي عليك القيام بها.

قام الخال عمّار بأخذ هاني لمكتبه، والذي كان عبارة عن مكتبٍ بسيط، لم يعجب هاني في البداية، ولكن بعد أخذ، وردّ مع خاله، ومحاولة هذا الأخير إقناعه بالقبول، بهذا المنصب، بشكل مؤقّت، فقد كان هاني رافضًا تمامًا للفكرة، حتّى إنّه قد فكّر في الخروج، للذّهاب لمكتب أبي، ليشتكيَ من هذا الظّلم، الذي وقع عليه، قبل أن يسحبه خاله، من يده (قائلًا):

- ستفسد كلّ شيءٍ بتهوّرك، وسوف لن يتوانى أبوك في طردك، وزجّك في السّجن، تمامًا كما فعل مع رؤوف، أم تراك نسيت؟

وهنا تراجع هاني يائسًا، وقد خارت عزيمته تمامًا، ثمّ تنهّد بصوتٍ عال، وقال بعدها:

- حسنٌ يا خال.

ثمّ دخل لمكتبه آخر الأمر، وجلس على الكرسيّ متأفّفًا، وبعد أن أملى عليه خاله المهام المنوطة به، خرج ليتركه غارقًا، بين كومة أوراق، يقلّبها يمينًا، ويسارًا، وهو مشتّتٌ تمامًا، فهو لم يفعل شيئًا، في حياته، سوى إثارة المشاكل، حتّى لمّا قام بإدارة الشّركة، لم يكن يفعل شيئًا، إلّا إعطاء الأوامر لهذا، وذاك، بالإضافة لتشاجره، مع أيّ موظّف، يبدي امتعاضًا من تصرّفاته، أو أوامره، بل ويصل به الأمر، لطرد ذاك الموظّف المسكين، قال لنفسه:

- ما هذه الورطة، التي وضعتُ نفسي فيها، كيف لي أن أقرأ، كلّ هذه الملفّات؟ وأنا لم أعمل شيئًا في الحياة، سوى التّسكّع مع الفاشلين أمثالي، والآن ما العمل؟

ظلّ هاني يقلّب الأوراق، لمدّة ربع ساعة تقريبًا، قبل أن يضعها جانبًا، وخرج ليتناول سيجارة، بعدما أغلق مكتبه، لينشغل بإخراج تلك السّيجارة، من جيب بنطله، قبل أن يخرج خالد، من المكتب المقابل، ويسلّم عليه:

- كيف حالك يا أخي؟

- بخير.. وأنت؟

- بخير.. هل عدتَ للشّغل؟

- أجل، لقد عدتُ كما ترى.

وظلّ الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث، إلى أن مرّ موظّفان، من أمامهما، وأخذا ينظران لهاني، نظراتٍ مليئة بالسّخرية، والازدراء، ممّا أثار حفيظته، وأشعل غضبه، ولكنّه ظلّ يحاول الصّمود، والظّهور بمظهر اللّامبالاة، إلى أن قال أحدهما للآخر:

- أرأيت كيف أصبح مجرّد موظّفٍ مثلنا؟

فأجابه الآخر (مبتسمًا):

- هه.. أجل.. تلك هي العدالة الإلاهية.

- لقد صدّق نفسه، لدرجة أنّه نسي، أو تناسى، بأنّنا كنّا زملاءه، قبل أن يُكلّف بالإدارة، والأكثر أنّه كان يقصد إذلالنا، بأوامره السّخيفة، وتصرّفاته الصّبيانية التي لا تطاق، إنّه حقًّا مسكين، وها هو ذا الآن يعود لحجمه الطّبيعي.

- دعك منه يا صديقي، فهو لا يتعلّم من أخطائه، وسيظلّ نذلًا.

وهنا ثار جنون هاني، أين تقدّم منهما (وهو يصرخ):

- ما بالكما، أيّها الغبيّان؟ ألا تعرفان من أنا؟

- أوه، لقد نسيتُ بأنّك كنتَ المدير، في وقتٍ سابق، يؤسفنا حقًّا رجوعك كموظّف، آمل أن يعجبك منصبك الجديد سيّدي.

فتقدّم هاني، ولَكَم الشّاب، لكمة قويّة في وجهه، ليحتدم النّزاع، وتعالت أصواتهما، حاول خالد في هذه الأثناء، سحبه للخلف، ليبعده عن الشّاب، ولكنّ محاولاته كلّها باءت بالفشل، فقد دفعه هاني أرضًا،

بعدما أصرّ على سحبه للوراء، وعاد ليسدّد الضّربات للشّاب، بينما ظلّ هذا الأخير يحاول الصّمود، لصدّ هجماته، ولكنّ هاني أوقعه أرضًا، وأمسكه من رقبته، محاولًا خنقه، فحاول الشّاب الآخر سحب هاني، وإبعاده عن زميله، بمعيّة خالد، الذي نهض ليساعده، ليتجمهر بعض الموظّفين، ولكنّهم سرعان ما حاولوا فضّ النّزاع، إلى أن تدخّل رجال الأمن، وسحبوا الاثنين بالقوّة، وبعد ذلك أخذوا الشّاب، ليسعفوه، أمّا هاني فقد صرخ فيهم (قائلًا):

- اتركوني، دعوني وشأني..

عاد الهدوء للرّواق السّفلي أخيرًا، ورجع الموظّفون إلى مكاتبهم، مستغربين ممّا حصل، أمّا أبي فقد قام باستدعاء هاني لمكتبه، بعد أن علم بالأمر، من أحد رجال الأمن، وما إن دخل لمكتبه حتّى نهره:

- ألم أنهك عن المشاكل؟ ألا يمرّ يوم، دون أن تثير فيه اشمئزازي؟

- ولكن..

- اخرص، أيّها الأحمق، ماذا سيقول الموظّفون الآن؟ سيقولون بأنّ ابن المدير شابٌّ تافهٌ أحمق، وأرعن.

- ولكن أنا لم أتصرّف هكذا، إلّا لأنّه استفزّني.

- وإن يكن.. ما كان عليك التّصرّف بهذه الطّريقة.

- ولكنّه نعتني بأقبح الصّفات، يجب عليك طرده يا أبي.

- هذا ما كان ينقصني! أن أمتثل لأوامر السّيّد هاني.

- لا أقصد هذا، ولكن بدا واضحًا بأنّه يكرهني، وإن لم تصدّقني، فبإمكانك أن تسأل خالد.

- أنت لا تعرف، من هو هذا الشّاب، لا يمكنني طرده، لأرضيك، إنّه ابن صديق لي، أبوه له أفضالٌ عليّ جمّة، هل فهمت؟

- حسنٌ.. وما المطلوب منّي؟ لا تقل لي بأنّك جئتَ بي، إلى هنا، لكي أعتذر منه؟

- هل هذا ابني هاني، أم تُراه شخصٌ آخر، لا أعرفه؟ ما لي أراك قد صِرتَ ذكيًّا؟ أجل.. هذا ما ستفعله بالحرف، وإلّا فسأرميك خارجًا.

أطرق هاني صامتًا، أمّا أبي فقد أمسك بالهاتف، ثمّ طلب من السّكرتيرة بأن تُدخل الشّاب، الذي يقف خارجًا، بعد أن قدّم له رجال الأمن بعض الإسعافات، نتيجة بعض الكدمات الخفيفة، على وجهه، وبعد أن دخل، طلب منه أبي الجلوس، على الكرسيّ المقابل لهاني، فجلس بعد تردّدٍ شديد، متجنّبًا النّظر لهاني، بل حتّى هذا الأخير، قد أبقى تركيزه على الأرض، ولم يحاول النّظر له، كان أبي في هذه الأثناء واقفًا، يطلّ من النّافذة، وظلّ على هذا الحال لمدّة، حتّى عمّ الصّمت، وأخيرًا أزاح نظره عن النّافذة، وعاد ليجلس على كرسيّه، وأخذ سيجارته كالعادة، ونظر للاثنين مليًّا، قبل أن يبدأ الكلام (بجدّية):

- اسمعا أنتما الاثنان، هذه آخر مرّة تتشاجران فيها، مع بعض، في المرّة القادمة، ستجدان نفسيكما في الشّارع، أتفهمان؟

ثمّ سكت قليلًا، قبل أن يعود للحديث مرّة أخرى:

- المرتّب الذي تأخذانه، لا يحلم به أيّ موظّف، في شركة أخرى، إيّاكما والعودة لما فعلتماه اليوم، أليس كذلك يا حسّان؟

فأومأ الشّاب برأسه (قائلًا):

- أجل.

وهنا نظر أبي لهاني، وأعاد عليه نفس السّؤال:

- أليس كذلك يا هاني؟

فسكت هاني قليلًا، ثمّ قال (مستنكرًا):

- ولكنّني لم أكن أنا البادئ يا أبي.

- وإن يكن.. تصرّفك ليس في محلّه، كما هو الحال مع حسّان، أليس كذلك يا حسّان؟

فشعر حسّان بالخجل الشّديد، ووضع عينيه في الأرض، ثمّ قال:

- أوه، أنا آسف.

- حسنٌ، انصرفا.. ولا تعودا لهذا التّصرّف مرّة أخرى.

***

بعد أيّامٍ من زيارتي لبيت عمّي، اتّصلتْ نور، مستفسرة عن سبب الزّيارة، فقد أخبرها عمّي بأنّني جئت، لأتحدّث إليها يومها، وبعد أن سألتُها عن حالتها الصّحية، أخبرتها بأنّ الموضوع يتعلّق بحازم، وبأنّه قد طلب منّي أن أكلّمها، بشأن زواجه منها، فلم تكترث يومها كثيرًا، فسألتُها:

- ماذا أقول له، إن هو سألني؟

- أوه.. قل له بأنّك قد أخبرتني بالموضوع، وبأنّني لم أجبك بعد.

- حسنٌ.

- كلِّمني عن أخبار المستشفى؟ أتعلم، لقد اشتقتُ له كثيرًا.

- المشفى بمن فيه كالعادة، نركض من عمليّة لأخرى، لدرجة أنّنا لا نحسّ بالوقت، صحيح.. أخبريني، متى سترجعين؟

- الأسبوع المقبل بإذن الله.

- حمدًا لله على سلامتك، أعتذر منك، يجب أن أتفقّد المرضى، كما جرى عليه الرّوتين.. أنتِ تعلمين طبعًا.

- حسنٌ، سلّم على عمّي، وزوجة عمّي.

أنهيتُ المكالمة، وعدتُ لدوّامة العمل، التي لا تنتهي أبدًا، إلى أن جاء وقت الغداء، فتوجّهتُ أنا والدّكتور سمير للمطبخ، أين يتمّ تقديم وجبة الغداء، والعشاء عادة، لكلّ موظّفي المشفى، لم يكن الكلّ هناك، فالبعض يأتون لاحقًا، ليتناولوا الوجبة، فليس هناك وقتٌ محدّدٌ لها، فكلّ من أنهى مهامه، يستطيع تناول وجبته، متى ما أتيحتْ له الفرصة، تقدّمنا لأخذ وجباتنا، ثمّ قصدنا الطّاولة الأخيرة، وجلسنا، وما إن فعلنا حتّى دخل الدّكتور حازم، وما إن رآني حتّى أسرع، في إحضار وجبته، وجاء ليجلس معنا، ثمّ قال:

- كيف حالك دكتور حامد؟

- بخير، وأنت؟

- بخير.. كيف حالك دكتور سمير؟

فأجابه سمير:

- بخير.

عاد الدّكتور حازم للحديث مجدّدًا:

- ماذا فعلتَ فيما طلبتُه منك دكتور؟ لا تقل لي بأنّك لم تكلّمها، هذه المرّة أيضًا؟

فابتسمت، وقلتُ له:

- كلّا، لقد كلّمتها في الموضوعِ طبعًا.

- وماذا بعد؟

- أخبرتني بأنّها ستفكّر في الموضوعِ، وستجيبك بنفسها.

- أوه.. شكرًا، أشكرك من كلّ قلبي، على حسن صنيعك.

استغرب سمير، من لهفة حازم، على الحديث إليّ، فهو لم يعهده مُلحًّا، بهذا الشّكل، مَثله في ذلك، مَثل كلّ من في المشفى، فحازم إنسانٌ متعجرف.. نظر سمير لي مستغربًا، وأشار بعينيه، متسائلًا عن الموضوعِ، الذي جعل حازم يتنازل، ليجلسَ معنا، فابتسمت، وقلتُ له:

- لأوّل مرّة أحسّ بمذاق الأكل لذيذ، أليس كذلك يا سمير؟

- لذيذ؟ أوه.. حسنٌ، كما شئت يا حامد، إنّه لذيذٌ فعلًا.

قال سمير كلامه بسخريّة، وكأنّه كان يريد منّي، أن أخبره، عن سبب جلوس حازم معنا، أمّا حازم فقد بدا مسرورًا للغاية.. وفي هذه الأثناء دخلت لبنى، مع زميلتها، وتوجّهتا لأخذ وجباتهما، كانت لبنى تتكلّم مع صديقتها، وفجأة نظرتْ نحوي، وما إن رأتني حتّى لوّحت

بيدها، وسلّمت عليّ، وجلست، هي وصديقتها، بالقرب من طاولتنا، وكانت من حين لآخر، تحدّث زميلتها، وتشير إليّ، أمّا الثّانية فكانت تكتفي بالنّظر إليّ، حتّى شعرتُ بالخجل، ولكن الحمد لله، أنّ أحدًا لم يرهما، فقد كان الكلّ منشغلًا، إمّا بالأكل، أو بالكلام.

***

في اليوم الموالي، زارتنا أختي الكبرى فُلّة، ولكنّها لم تكن زيارة عاديّة، على ما يبدو، فقد بدا عليها الغضب، فبمجرّد دخولها للبيت استقبلتها أمّي مرحّبة، ومستغربة في الآن نفسه، سرّ زيارتها في الصّباح الباكر، إذْ ليس من عادتها ذلك، فكلّ شيءٍ فيها يوحي، بأنّها قد تشاجرت مع زوجها، فقد كانت تتكلّم بصوتٍ عالٍ، كما كانت تحمل حقيبة صغيرة، في يدها اليمنى، وتجرّ حقيبة أكبر حجمًا، بيدها اليسرى، وابناها يسيران خلفها.. صرخت (قائلة):

- أليس أبي من زوّجني له، فليتحمّل العواقب إذًا.. لأنّني لن أعيش يومًا واحدًا، مع استغلالي مثله، لقد تزوّجني لأجل المال، واليوم، وحين يئس من إمكانيّة استرجاع ماله، الذي استحوذ عليه أبي، وحرم إخوته منه، ومنهم حماتي، طردني قائلًا: اذهبي لأبيك، ولا ترجعي، إلّا حين يُعطينا حقّنا.. أرأيتِ يا أمّي أيّ زيجة، ورّطني فيها أبي؟

- حسنٌ، هدّئي من روعك يا ابنتي.

- عن أيّ هدوءٍ تتحدّثين يا أمّي؟ لقد قال بأنّه لن يقف مكتوف اليدين، وبأنّه سينتقم من أبي، بأيّ طريقة، حتّى لو أدّى ذلك، لارتكابه جريمة قتل، فسوف لن يتردّد في القيام بذلك.

- ماذا؟ يريد أن يقتل أباك؟

- لا أعلم، ولكنّه عازمٌ على أن يأخذ حقّه، بأيّ وسيلة.

- لا عليك يا ابنتي، لن يفعل شيئًا ممّا ذكرت، لعدّة أسباب منها: أنّ أباكِ ليس سهلًا، للحدّ الذي يستطيع فيه زوجكِ قتله، اطمئنّي..

كنتُ في هذه الأثناء جالسًا، في شرفة الصّالون، المحاذي لباب المنزل، أشرب فنجانًا من القهوة، كما جرت عليه العادة، وما إن رآني الولدان حتّى ركضا، نحوي فرحين، بأقصى سرعتهما، وقد سبق فارس أخاه ببضع خطوات، وما إن وصل حتّى قال لي:

- أنت هنا يا خالي؟ لقد اشتقنا إليك كثيرًا.

- أجل، كيف حالكما، أيّها الشّقيّان؟ لماذا لم نعد نراكما؟

- ها قد جئنا، ألن تشتريَ لنا الحلوى؟

قال فراس، وهو يفتح يديه، مشيرًا لكمّيّة الحلوى، وعاد للحديث:

- نريد حلوى كثيرة يا خالي.

- هذا مؤكّد، سأشتري لكما ما تريدان، شرط أن تغسلا أسنانكما، بعد أكل الحلوى، أليس كذلك؟

- أنا عن نفسي أغسل أسناني، ولكنّ فارس يتكاسل عن غسلها.

- لا.. إنّه يكذب، أنا أغسل أسناني كلّ يوم.

- كلّا، أنا لا أكذب، وإن شئت يا خالي، فاسأل أمّي، وستؤكّد لك صدق كلامي.

- حسنٌ، كُفّا عن الشّجار، أنتما الاثنان، وإلّا فسوف أغيّر رأيي.

قلتُ للولدين، بعدما احتدم النّقاش بينهما، وهنا قالت لي أمّي:

- ستقع أسنانهما بسببك، فالحلوى مضرّة بالأسنان، من المفروض أنّك طبيب، وتعرف هذا جيّدًا.

- ما بك يا أمّي، هما لا يأكلان الحلوى دائمًا، من حقّهما عليّ أن أشتريَ لهما، كلّ ما هو ممنوع في البيت، أليس كذلك يا فلّة؟

- كيف حالك يا أخي؟

قالت فلّة، وهي تتقدّم نحوي، لتسلّم عليّ، فأجبتها:

- بخير، وأنت؟

- ومن أين يأتي الخير؟ يبدو لي بأنّ حظّي يشبه حظّك تمامًا.

- اسكتي من فضلك، لا نريد المزيد من المشاكل، في البيت.

- ولكن، أليست هذه هي الحقيقة يا أمّي؟ أم أنّكِ تخافين منها؟

- كلّا، لا أخاف منها هي، ولكنّكِ تعرفين أباكِ جيّدًا، إنّه يدافع عنها دائمًا، ويتّهمني في المقابل، بأنّني أنا من يثير المشاكل.

نزلت في هذه الأثناء جنى، ويبدو بأنّها قد سمعت الحوار، الذي دار بين أمّي، وأختي فلّة، فقالت (وهي تهمّ بنزول آخر درج):

- أرى بأنّكما تتحدّثان عنّي، ماذا تقولان عنّي الآن يا ترى؟

- جنى، لا داعي للشّجار الآن، فهذا ليس وقته، وأنتِ يا فلّة أرجوكِ أغلقي هذا الموضوع.. لستُ في مزاج، يسمح لي بسماع هذا النّقاش، النّسائي الصّباحي السّخيف، فلدينا منه ما يكفي.. أرجوك.

- ولماذا تسكتها يا حامد، دعها تتحدّث، فهي لم تحبّني يومًا، لا هي، ولا أمّك.

- وما دمتِ تعرفين، فلما تسألين عن الحوار، الذي دار بيننا؟

- فلّة.. هلّا سكتِّ قليلًا؟

قالت أمّي هذا الكلام، لتنهيَ النّقاش، لكن على ما يبدو، بأنّ فلّة كانت عازمة، على مواصلة الحديث:

- ولماذا عليّ أن أسكت يا أمّي؟ أما كان خيرًا لحامد لو تزوّج بابنة عمّي نور؟ فهي مثقّفة، وجميلة، ومن عائلة مرموقة، وبالإضافة لهذا كلّه فهي طيّبة، وليست جاحدة مثل البعض.

قالت كلامها، وهي تنظر لجنى بازدراء، واحتقار، قبل أن تواصل:

- بالمناسبة.. ألم يخبركِ حامد، بأنّه قد تمّ تعيين نور في المشفى، الذي يشتغل فيه؟

رمت جنى نظراتها الحادّة، التي انطلقت كسهام، تنخر عظام كلّ من تتّجه نحوه، ركّزت في البداية نظراتها نحو فلّة، ونظرت إليّ أخيرًا، نظرة مليئة بالحزن، والشّك، في الآن نفسه، لتتركنا آخر الأمر، وتتّجه ناحية الدّرج، وهي تحثّ الخُطى، بشكل لافت، أمّا فلّة فقد بقيت هادئة، وكأنّ شيئًا لم يحدث، بل وطلبتْ منّي أن أصبّ لها فنجانًا، من

القهوة، بل حتّى أمّي لم يبدُ عليها، أيّ اهتمامٍ يذكر، والغريب في الموضوع كلّه، هو أنّني لم أعد أكترث، بهذه المشاحنات النّسائية، كما في السّابق، فقد كنتُ أحاول ما استطعت، إنهاء الخلاف، بأيّ طريقة، كنتُ كذلك أقف بجانب جنى، في الغالب، لا لشيء، إلّا أنّه لا دخل لها، بالموضوع أصلًا، وأنّها بريئةٌ براءة الذّئب، من دم يوسف، فأبي هو الذي قرّر عنوة، تزويجي منها، وأنا الذي وافقت، لدرء المشاكل بيني، وبينه، لأنّني لم أشأ، أن أكون ابنًا عاقًّا، ولكنّ هذا لم يعد يهمّني، ولم أعد أكترث للمشاكل اليوميّة، التي لا تكاد تنتهي، إلّا وتخلفها أخرى، فلم تعد لديّ رغبة، أو طاقة لفعل أيّ شيء، إلّا التزام الصّمت، الذي اتّخذتُه صديقًا، ومؤنسًا لي، في غربتي، التي أعيشها، رغم كلّ هذا الكمّ، من النّاس.. لقد أصبحتُ أشعر بالغربة، حتّى بين أهلي، وأصدقائي، ولا عجب، فكلّ شيء في الحياة، يجعلك تحسّ بذلك، ألف مرّة في اليوم..

***

- لِما لم تخبرني بموضوع تعيين نور، في المشفى، الذي تعمل فيه؟

قالت جنى متسائلة، بعدما صعدتُ لغرفتي، لأغيّر ثيابي، وأخرج، قالت كلامها هذا، وهي تحضّر حقائبها، لتغادر لبيت أهلها، فعلى ما يبدو بأنّه يوم الشّجار.

- وما المهمّ في الموضوع؟ نور موظّفة، مثلها مثل أيّ موظّفٍ آخر، في هذا المستشفى.

- ولكن لِما أخفيت الأمر عنّي؟

- أنا لم أخفِ عنكِ شيئًا.

- ولكنّك لم تخبرني، في حين أنّك أخبرت أختك.

- نور من أخبرتها، ولستُ أنا، هذا أوّلًا.. ثانيًا لو أخبرتك، كنتِ ستتصرّفين بنفس الطّريقة، التي تصرّفتِ بها الآن، فأنا أعرفكنّ جيّدًا، أنتنّ النّساء.

- حسنٌ.. سأذهب، لترتاحوا منّي، فوجودي بينكم غير مرحّبٍ به.

- أنتِ حرّة، في النّهاية أنتِ كبيرة، وتعرفين مصلحتك، أكثر من أيّ شخص آخر.

- بكلّ هذا البرود، تقول هذا الكلام.

- أنتِ تعرفينني جيّدًا، أنا إنسانٌ ديمقراطي، ولا أحبّ أن أفرض نفسي، على أحد.

- تُرى.. هل كنت ستقول هذا الكلام، لو كانت نور في مكاني؟

- أوّلًا هي ليست في مكانك، ثانيًا أجل.. كنتُ سأتصرّف بنفس الطّريقة، فقد قلت لك، بأنّي لا أحبّ أن أفرض نفسي، على أحد، من يريد الرّحيل فليرحل، مع تمنّياتي له بالسّعادة، والتّوفيق في حياته.

كان هذا آخر كلام، قلته لها، قبل أن تغادر البيت، وهي حزينة، وغاضبة في الآن ذاته، أمّا أنا فقد بقيتُ ثابتًا في مكاني، ولم أبرحه، بقيتُ ساكنًا، لا أعرف إن كان عليّ أن أحزن على جنى، أم أحزن على

نفسي، التي لم تعد تهتمّ بشيء، فما عادت الأمور المفرحة تسعدني، كما في السّابق، ولا المحزنة بدورها تؤثّر فيّ..

***

خرجت زوجة أبي، في الصّباح الباكر، على غير عادتها، قاصدة بيت ساحرة معروفة، في وسط المدينة، بصراحة، لم تكن هذه المرّة الأولى، التي تذهب فيها لتلك السّاحرة، فقد كانت ترتاد عليها بكثرة، وهو ما أخبرتنا به إحدى قريبات أمّي، التي رأتها أكثر من مرّة، تدخل عندها، وهو ما جعلها تأتي في يوم، لتحذّر أمّي من كيدها، ولكنّ هذه الأخيرة لم تعرْ أيّ أهمّيّة، للموضوع حينها، فلطالما هدّدتها زوجة أبي، وتوعّدتها بالشّر أمام الملأ، ولكنّها في كلّ مرّة كانت تحاول فيها، إلّا وتفشل، بل وينقلب عليها شرّها هذا بالوبال، والخسران، ولكن على ما يبدو بأنّها في هذه المرّة، قد ضاقت ذرعًا بأمّي، فعقدت العزم على فِعل المستحيل، بل وقرّرت أن تقصد أقوى ساحرة، لتنتقم منها.

كانت تلتفتُ يمينًا ويسارًا، وهي ترتدي لباسًا فضفاضًا لونه أسود، وتضع وشاحًا على وجهها، وكأنّها مجرمةٌ تحاول طمس معالم جريمتها، كانت تسير في خلسة، من الجميع، في تلك الظّلمة، التي اختلطت بشيءٍ من بياض الصّبح، ليسدل اللّيلُ آخر ستار له، مفسحًا المجال للشّمس، لتلقيَ بخيوطها الذّهبيّة، الباعثة على السّعادة، وصلتْ أخيرًا للبيت، ودقّت الباب عدّة مرّات، قبل أن تفتح لها تلك السّاحرة الباب، لتتبخّر، وتتلاشى، خلف ذلك الباب الأزرق القديم، الذي أكله الصّدأ،

بعدما أذنت لها العجوز بالدّخول، وسارت خلفها لأسفل المنزل، حيث كان هناك سرداب، تستخدمه خصّيصًا، لاستقبال النّسوة، اللّائي يأتين لهذا الغرض، وذلك قصد التّمويه.

لم تكن تلك العجوز تسكن بمفردها، فقد سكن معها أولادها، الذين تزوّجوا منذ زمن، ليس بالبعيد، وقرّروا العيش هنا، مع أولادهم، الذين يتكاثرون كلّ سنة، كالنّباتات المتسلّقة، التي لا تترك جدارًا، إلّا وتملؤه بأوراقها، أو كتلك الطّفيليّات، التي تنموا في كلّ مكان، فصار المنزل يعجّ بالأحفاد، الذين ينزلون للسّرداب، تحت طلب أمّهاتهم، وأحيانًا ينزلون دون سبب، أو بدافع الفضول، أو للتّجسّس على الضّيف، فيطلبون من جدّتهم مختلف الطّلبات، كإعطائهم النّقود لاقتناء المواد الغذائيّة، أو لشراء الشّوكولاطة.. وغيرها من الطّلبات، التي كانت تزعج الجدّة في الغالب، وتحرجها أيّما إحراج، وخاصّة أمام ضيوفها، الذين منهم الرّجال، والنّساء، من فئاتٍ عمريّة، وطبقاتٍ اجتماعيّة مختلفة، يأتونها من مختلف البلدان، محمّلين بالأموال، كلّ واحدٍ حسب طلبه.

أشارت السّاحرة بيدها لزوجة أبي، تأمرها بالجلوس، على الأريكة المقابلة، دون أن تقول حرفًا، ففهمت هذه الأخيرة المقصود، بتلك الإشارة، وجلست دون أن تتكلّم، هي الأخرى، فقد سبق لها التّعامل، معها مرّات عديدة، فهي ترتاد على هذه الأماكن، بشكل مستمر، حتّى صارت تعرف كلّ صغيرة، وكبيرة عن هذه المواضيع، وكلّ الذين يعملون في هذا المجال، صارت تعرف أسماءهم..

- هاتِ ما عندك يا امرأة.

قالت العجوز كلامها هذا، لزوجة أبي بكلّ جدّية، فردّت الأخيرة:

- لقد جئتُ إلى هنا، من أجل ضرّتي، فهي دائمًا ما تسلّط زوجي عليّ، وتريد أن تحرم ابني من الميراث، لقد ضقتُ ذرعًا بها، أرجوكِ ساعديني، وسأعطيك كلّ ما تريدين.

نظرت العجوز مليًّا لزوجة أبي، وصرفت نظرها عنها، لتأخذ ورقة، كانت موضوعة فوق مكتب، وأعطتها الورقة، ثمّ قالت:

- خذي هذه الورقة، فيها بعض الأمور، التي يجب أن تحضريها، في المرّة القادمة، ومعها خمسون ألف دينار.

- ماذا؟ خمسون ألف دينار؟ ولما كلّ هذا المبلغ؟

- من يسمعكِ يقول بأنّكِ فقيرة، أعتقد بأنّ هذا المبلغ، لا يساوي شيئًا، أمام ما يملكه زوجك.

- أوه، حسنٌ.. إذا كان هذا هو المبلغ الإجمالي، فلا بأس بذلك.

- ومن قال بأنّه المبلغ الإجمالي؟ ستقدّمين لي ضعف هذا المبلغ، فور تنفيذكِ لأوّل عمليّة، فهناك الكثير من الأمور، التي عليكِ أن تقومي بها يا امرأة.

- ماذا؟ هل قلتِ ضعف المبلغ؟

- إن لم يعجبكِ هذا، فتستطيعين الذّهاب لشخص آخر.

- لا.. لا.. سأحضر المبلغ كلّه.

- على كلّ حال، كلّما أكثرتِ من المال، كلّما عاد عليكِ بالفائدة.

- ولكنّني لم أستفد شيئًا، في المرّة الماضية، وقد فعلتُ كلّ ما طلبته منّي، ولم يحصل لها أيّ شيء سيّدتي.

- أتشكّكين في عملي، أيّتها المجنونة؟ ألا تعلمين من أنا؟

- لا، العفو يا سيّدتي.. اعذريني.

- أعذركِ على ماذا، أيّتها الغبيّة، أنا لا أتعامل إلّا مع الشّخصيّات المرموقة، والذين يأتون من داخل البلد وخارجه، شخصيّاتٌ من مختلف الجنسيّات، ممّا يعني أنّني في غنى عنك، وعن أموالك.

- أوه.. أنا آسفة جدًّا، ولكنّني لا أعرف السّبيل، للخلاص منها أبدًا.

- كيف لكِ أن تعرفي، وأنتِ لا تتقيّدين بما أطلبه منك، ولا تقومين به بالشّكل المطلوب؟ وفوق هذا كلّه بخيلة، خذي الورقة، وأحضري لي كلّ ما بها من أغراض، ولا تنسيْ المبلغ، الذي طلبته منك، وإلّا.. فلستُ مسؤولة، عمّا سيحصل لكِ فيما بعد.

- حسنٌ.. أشكركِ سيّدتي.

أشارت العجوز مجدّدًا، لزوجة أبي بالخروج، دون أن تكلّمها.. وأدارت وجهها عنها، أمّا زوجة أبي فقد خرجت، تهرول مذعورة، وهي تمسك بتلك الورقة، في يدها، لتضعها في حقيبتها، وأسرعت الخطى نحو الباب، حيث لاذت بالفرار، تمامًا كاللّصوص.

***

جلس أبي في مستودع، تابع لأحد المصانع، التي يملكها خارج المدينة، رنّ هاتفه في هذه الأثناء، فأخرجه من جيبه، وردّ (قائلًا):

- ماذا حصل معكم؟ هل وجدتموه؟

- أجل سيّدي، نحن في الطّريق إليكم.

- حسنٌ إذًا.. نلتقي فيما بعد.

ثمّ أقفل هاتفه، والتفت لأحد رجاله، وقال له:

- حان وقت الحساب، لن أوصيكم عليه، اعتنوا به جيّدًا.

- أوامرك سيّدي.

ظلّ أبي ورجاله ينتظرون، وصول العمّ مروان، وما هي إلّا لحظات، حتّى مَثَل بين أيديهم، وهو مكبّلٌ بالحبال، رجلٌ على يمينه، والآخر على يساره، بينما يقف الثّالثُ خلفه، وهو يدفعه للأمام دفعًا.. ثمّ قال:

- ها هو ذا يا سيّدي.

- جيّد، جيّد.. أخيرًا يا مروان؟ أين كنت طول هذه المدّة يا رجل؟

قال أبي لمروان، الذي كان واقفًا، وجسمه يرتعش، من الخوف، ولكنّه ظلّ صامتًا، ولم ينطق بكلمة، وهنا عاد أبي للحديث مجدّدًا:

- كنتَ تريد أن تدخلني للسّجن، أليس كذلك؟ أرني الآن كيف تستطيع أن تدافع، عن نفسك؟

وأعطى الإشارة لرجاله، بأن يضربوا العمّ مروان، وهو ما تمّ بالفعل، فقد تقدّم أولئك الرّجال كلّهم، وضربوه في مناطق متفرّقة، من جسده، كانت ضربات عشوائيّة كثيرة، ظلّ الرّجل خلالها يصرخ بشدّة، ولكن لا أحد يستطيع سماع صراخه، فهو محتجز داخل مستودع في مصنع، يبعد عن العمران بعشرات الكيلومترات، عمّ صراخه المكان، لكنّ أحدًا

من الرّجال لم يتوقّف، وأنّى لهم أن يتوقّفوا وهم مجرّد مأمورين، فالكلمة الأولى، والأخيرة لأبي.. وبعد دقائق، أمرهم هذا الأخير بالتّوقّف:

- توقّفوا يا رجال.

فابتعدوا عن العمّ مروان، وتركوه ليسقط أرضًا، وقد غطّت الدّماء وجهه وجسمه، سقط مغشيًّا عليه، بسبب تلك الضّربات العنيفة، فتقدّم أبي منه، وقام برفعه من شعره، ثمّ همس في أذنه (قائلًا):

- ألا تريد أن تقول آخر كلمة، قبل موتك؟

ثمّ قام بركله في بطنه، وأخرج مسدّسه بعدها، وصوّبه في جبينه، يريد قتله، وبينما هو كذلك، إذْ رنّ هاتفه مجدّدًا، فأخرجه من جيبه، ونظر للمتّصل، فإذْ به أحد رجاله.. فردّ عليه (قائلًا):

- ماذا حصل معكم؟

- نحن في ورطة سيّدي، هناك سيّارتان من نوع (4by4) تتبعاننا، يبدو بأنّهم يريدون سرقة البضاعة منّا، لقد أطلقوا علينا النّار، وهم الآن يلاحقوننا.

وهنا أعاد أبي مسدّسه لجيبه، ونظر مليًّا للعمّ مروان، ظنًّا منه بأنّه هو من بعث رجاله، ليسرقوا البضاعة، فعاد ليمسكه من شعره مجدّدًا، وصرخ فيه:

- أتريد سرقة البضاعة منّي، أيّها المغفّل؟ ألا تعلم بأنّني أستطيع سحقك، تمامًا كما أسحق أيّ حشرة، لا أهمّيّة لها؟

وهنا كان العمّ مروان قد عاد لوعيه، فقال (نافيًا التّهمة عن نفسه):

- ليس لي دخل بأيّ شيء، أنا لا أفهم ما تقصد.

قال العمّ مروان كلامه هذا، وهو يجتذب أنفاسه، وكأنّه يخرجها من قعر بئر عميقة، كان بالكاد يستطيع التّنفّس، ووجهه مضرّجٌ بالدّماء كليًّا، حتّى عاد لونه أحمر قاني.. وهنا نادى أبي لأحد رجاله (صارخًا بأعلى صوته):

- إلياس..

- أجل سيّدي.

- تخلّص من هذا الأحمق، ولكن ليس قبل أن تبرحه ضربًا، أكثر من ذي قبل، فلم يُشف غليلي منه بعد، اجعله يتمنّى الموت، ولا يناله، ثمّ أطلق عليه بعد ذلك رصاصة، في منتصف جبينه.

- أوامرك سيّدي.

ثمّ خرج مع باقي الرّجال، ليركبوا كلّهم في نفس السّيّارة، وانطلقوا على جناح السّرعة، وتركوا خلفهم العمّ مروان، ليواجه مصيره المحتوم، اقترب الشّاب من العمّ مروان، وهمّ بضربه مرّة أخرى، ولكنّ هذا الأخير قد عزم على تخليص نفسه، من موتٍ مؤكّد، بأيّ طريقة كانت، فقال للرّجل (محاولًا إغراءه):

- لا تقتلني أرجوك.. سأعطيك كلّ ما تريده.

نظر له الشّابُّ مليًّا، وقد سرح بخياله بعيدًا، فالمال أسال لعابه، ولكنّه بقي صامتًا، ولم يتفوّه بأيّ كلمة، بل أفسح المجال للعمّ مروان، ليفصح عن العرض، الذي يريد البثّ فيه، أشعل سيجارة، وأخذ يتفنّن

في إحراقها، ثمّ نظر للنّافذة، وهو يمسك بمسدّسه، ويقوم بتدويره بين أصابعه، من حين لآخر، وقد كان يضع رجله، على الكرسيّ الموضوع، أمام العمّ مروان، الذي كان ممدّدًا على الأرض، في الجهة المقابلة، بينما ظلّت رجله الأخرى ثابتة، على الأرض، وهنا انتهز العمّ مروان الفرصة، للكلام مجدّدًا، حين أحسّ من حركاته، بأنّه مستعدٌّ لسماع عرضه، قال وهو يحاول مسح الدّماء، التي ملأت وجهه بكفّه:

- سأعطيك المبلغ الذي تريده، ولكن لا تقتلني أرجوك.. ما الذي ستستفيده، إن أنت قتلتني؟ أستطيع أن أجعل منك رجلًا ثريًّا، بدلًا من عملك مع هذا البخيل، الذي لا يقدّر مجهوداتك.

ظلّ الشّابُّ صامتًا، متأمّلًا لما وراء النّافذة، ولم يحرّك نظره من عليها، ولكن وبالرّغم من هذا، فقد بدا سارحًا، في عرض العمّ مروان..

***

- ألو، ماذا حصل معكم؟

- لحدّ الآن نحاول الفرار، لقد ابتعدنا عنهم قليلًا.

- وأين أنتم الآن؟

- نحن في الطّريق الجانبي، المحاذي لشارع الاستقلال.

- حسنٌ، حاولوا أن تسلكوا الطّريق الجانبي، الواقع على مقربة من شارع الحيّ العتيق، فنحن على مقربة منه، وسنلتقي هناك بعد قليل.

- حسنٌ.. أوامرك سيّدي.

ظلّ أبي ورجاله يسابقون الزّمن، حتّى وصلوا للمكان المطلوب، أين التقوا ببقيّة الشّباب، بينما ظلّت السّيّارتان تتبعان أثرهم، كان هناك تبادل لإطلاق النّار، ولم ينتهِ إلّا حين وصل الفريقان، لمفترق الطّرق، أين كانت هناك سيّارتان تنتظران أبي ورجاله، يبدو أنّه قد أمر كلّ رجاله بالاستعداد، والاستنفار، لحماية البضاعة من السّرقة، فهو ليس مستعدًّا للخسارة مرّة أخرى، أطلق الرّجال الذين كانوا على متن السّيّارتين النّار، على أولئك اللّصوص، فاستطاعوا إصابة اثنين منهم، وهو ما لم يستطع أولئك اللّصوص تحمّله، فعادوا للخلف، فارّين بجلدهم، بعد أن أحسّوا بعجزهم، على سرقة البضاعة، وليس هذا فقط، بل بعد أن باتوا عاجزين حتّى على حماية أنفسهم، من بطش رجال أبي، فقد حميَ الوطيس، وتضاعف عدد السّيّارات، وازداد معه إطلاق للرّصاص عشوائي، وفي كلّ الاتّجاهات، وهنا لاذ اللّصوص بالفرار أخيرًا، فتنفّس أبي، ومن معه الصّعداء، وعادوا بالبضاعة، وهم فرحون..

***

خرج الشّاب الذي أصابه هاني من المشفى، بعد أن تماثل للشّفاء أخيرًا، وكم حمدتُ الله على خروجه سالمًا، فهذا سيخفّف قليلًا، من احتماليّة انتقام أخيه من هاني، وإن كنتُ متأكّدًا بأنّه يريد الشّر، لهذا الأخير، حتّى قبل تعرّض أخيه للحادث، سألتُ عن عنوان بيتهم، فيما بعد من زميل لي، تجمعه صلة قرابة بهم، وبعد أن دلّني على عنوانهم، ذهبتُ لأطمئنّ على ابنهم، وصلتُ إلى حيث يسكنون، ولكنّي لم أهتدِ

للبيت، فالشّارِع الرّئيسي يؤدّي لشوارِع فرعيّة، وجانبيّة كثيرة، فسألتُ بعض الأطفال، الذين كانوا يلعبون في الشّارِع، فأخذني طفلٌ من يدي، وأوصلني للبيت، وقال لي:

- هذا هو بيت حسام يا عمّاه.

كان باب البيت مفتوحًا، أين دخلت، لأجد بنتًا صغيرةً تلعب، في فناء المنزل، فسألتها:

- هل لكِ أن تخبري أمّك، بأنّني قد جئت لزيارة حسام؟

فانطلقت البنت مسرعة، أمّا أنا فقد آثرتُ الانتظار، حتّى جاءت إليّ امرأة مُسنّة، كانت هي نفسها المرأة، التي رأيتها في المشفى، أثناء الحادث، وما إن رأتني حتّى قالت:

- تفضّل يا بنيّ، لماذا تقف عند الباب؟

وطلبت منّي أن أتبعها للدّاخل، أين فتحت باب أوّل غرفة، وقالت:

- تفضّل، تفضّل.

- شكرًا..

- لقد جاء هذا الشّاب، لرؤيتك يا حسام.

قالت لابنها، الذي كان مستلقيًا على أحد الأسرّة، وبالكاد نهض من فراشه، أمّا هي فحملتْ كرسيًّا، لتضعه أمامي، طالبة منّي الجلوس، وتركتنا، بعدما أغلقت الباب.. جلست، ولم أدرِ ما أقول، فسكتُّ قليلًا، قبل أن أجرأ على الكلام أخيرًا، فقلت:

- كيف حالك يا حسام؟

- بخير، شكرًا.

ثمّ لزم كلٌّ منّا الصّمت مرّة أخرى، قبل أن يسألني هو هذه المرّة:

- هل تعرفني؟

- أوه.. في الحقيقة أنا طبيبٌ في نفس المستشفى، الذي كنتَ فيه.

- فيكَ الخير..

دخلتْ في هذه الأثناء والدته، تحمل في يدها صينيّة، بها إبريق القهوة، وقطعٌ من الحلوى، وضعتها فوق المائدة، وصبّت لي فنجانًا، من القهوة، وقدّمته لي (قائلة):

- تفضّل يا بنيّ.

- أتعلمين من هذا الشّاب يا أمّي؟ إنّه يشتغل في المشفى، الذي كنتُ راقدًا فيه.

قال حسام لأمّه، التي قالت، بعد أن دقّقت النّظر فيَّ:

- أهلًا بك يا بنيّ، منذ دخولك للمنزل، أحسستُ بأنّي قد رأيتك، في مكانٍ ما قبل اليوم.

- أجل.. بصراحة.. لقد تكلّمتُ معكم يومها، بشأن ابنكِ حسام، فأنا أخو الشّاب، الذي صدمه.

- أوه.. أجل، تذكّرتك الآن.

نظر لي الشّاب مليًّا، ثمّ قال:

- أنت أخو هاني إذًا؟

- أجل، وأنا أعتذر لكم بالنّيابة عنه.

- لا داعي للاعتذار.. قدّر الله، وما شاء فعل.

تفاجأتُ من ردّة فعله، التي تنمّ عن إيمانه الشّديد، بقضاء الله، إذْ لم أتوقّع بأن يجيبني بهذه الطّريقة، كما لم أتوقّع بأن يتجاوز المسألة، بهذا البرود، بل حتّى أمّه لم تبدِ اهتمامًا بالموضوع، بعدما أنهيتُ فنجان القهوة، طلبتُ منهم الإذن بالرّحيل، بعدما تكلّمنا، في مختلف شؤون الحياة، أخبرني بأنّه قد تخرّج منذ مدّة، وبحث عن شغل، ولم يحالفه الحظّ، فوعدته بأن أساعده في هذا الشّأن، حين يتماثل للشّفاء، وتبادلنا خلالها أرقامنا، وافترقنا، على أمل أن نلتقيَ مستقبلًا، لأعرّفه على أحد أصدقائي، ليوفّر له منصب شغل، عنده في الشّركة.

***

خرجت زوجة أبي باكرًا، قاصدة بيت العجوز مجدّدًا.. دخلت البيت، وبعد أن جلست، سألتها العجوز:

- هل أحضرتِ ما طلبته منك؟

- أجل.. أحضرتُ كلّ ما طلبته، بالإضافة للخمسين ألف دينار.

- جيّد.. اسمعيني إذًا، سأُملي عليكِ ما ستفعلينه، ولكن عليكِ أن تصغي لي جيّدًا.

- حسنٌ..

أخذت العجوز تملي على زوجة أبي، ما عليها فعله، بينما ظلّت هذه الأخيرة تحاول الإنصات، لكلّ حرفٍ تقوله، بل وتركّز بالإضافة لكلّ ذلك، مع كلّ إشارة منها، أو همسة، وإذا لم تفهم بعض الأمور،

تتظاهر بأنّها قد فهمت كلّ شيء، فهي تعرفها حقّ المعرفة، لا تحبّ إعادة الكلام، وتغضب لأتفه الأسباب، وإن غضبت، فإنّها تصبّ جام غضبها على ضيفها، ولا تكتفي بهذا القدر فحسب، بل يصل بها الأمر لطرده من بيتها، في أغلب الأحيان.

***

كان أبي يكلّم أحد رجاله، والذي جاء لبيتنا لمسألة ضروريّة، أين أخذ يسأله عن نريمان، وصديقها سهيل، فأخبره بأنّهما ما زالا يلتقيان خفية، وهنا وضع الجريدة فوق الطّاولة، وأطفأ سيجارته بغضب، ثمّ قام وهو يتهدّد، ويتوعّد.. قبل أن يواصل حديثه:

- عليك أن تتخلّص منه فورًا، هل فهمت؟

- أجل سيّدي، كما ترى.

***

كان حازم يسير في الرّواق، ليتفقّد المرضى، الواحد تلو الآخر، ويرى التّطوّرات، التي آلت إليها حالتهم الصّحيّة، فيصف المزيد من الأدوية، لمن هو في حاجة لهذا، ويبشّر من سيخرج عن قريب، نظرًا لتحسّن حالته الصّحيّة بعد العمليّة، في الحقيقة كانت تلك إجراءات، يقوم بها الجرّاحون، لِمن أجروا لهم عمليّات، حتّى تستقرّ حالتهم، فيصبح في إمكانهم الخروج، ومغادرة المستشفى نهائيًّا، وهو يقوم بهذا الإجراء رأى نور، تمشي مع زميلتها، في الاتّجاه الآخر من الرّواق، فلم يفوّت الفرصة، وأسرع إليها، ليسألها عن رأيها في خِطبته منها، فبادرها:

- آنسة نور؟ كيف حالك؟

فشعرت نور ببعض الانزعاج، ربّما لأنّها لم تفكّر في الموضوع، ولا تعرف بما تجيبه، خاصّة وأنّها تعرف بأنّه لم يأت، لكي يسلّم عليها فقط، فقد بدا واضحًا عليه السّرور، ما جعلها متأكّدة، بأنّه جاء ليسألها عن رأيها، فحاولتْ أن تتصرّف على سجيّتها، وألّا تُبديَ توتّرها.. قالت:

- بخير، وأنت؟

- بخير.. هل لي أن أكلّمكِ على انفراد؟

- أنا آسفة جدًّا، ولكن لديّ التزامات، أرى أن نؤجّل الكلام لاحقًا.

قالت نور كلامها هذا، وفرّت، وهي تمسك بذراع زميلتها، وكأنّها تخشى أن يقوم بخطفها، إن بقيتْ لثانية أخرى، قالت كلامها، ولم تترك له الفرصة، ليُضيف كلمة، أمّا هو فقد عاد أدراجه، وهو يحسّ بالحيرة، فهو لا يفهم سرّ تهرّبها منه، في كلّ مرّة تراه.

***

- ألو.. أين أنت؟ أسرعي.. فليس لديّ المزيد من الوقت، لأضيّعه في انتظارك يا بنت.

أقفل هاني هاتفه، ووضعه بجيبه، وقد بدا عليه شيءٌ من التّذمّر، فقد تأخّرت صديقته سارة كعادتها، أخذ في هذه الأثناء سيجارة، وأشعلها، واضعًا إيّاها بين شفتيه، ليطفئ بها غضبه، وفتح باب سيّارته، ونزل، وأقفل الباب بقوّة، اتّكأ بعدها على السّيّارة، وأخذ ينظر للمارّة (وهو يقول):

- أحمقٌ من ينتظر النّساء، إنّهنّ حقًّا تافهات، ولكن وبالرّغم من معرفتنا لتفاهتهنّ، إلّا أنّنا ننجرّ وراءهنّ كالأغبياء.

خرجت في هذه الأثناء سارة، وسارت بسرعة، نحو سيّارة هاني، كانت تلتفت وراءها، من حين لآخر، لتتأكّد أنّ ما من أحدٍ من معارفها رآها، وحين قاربت على قطع الطّريق، للوصول للسّيّارة، وإذْ بصديقها القديم حسن أخو حسام، الشّاب الذي صدمه هاني، يناديها:

- سارة.. سارة.

فالتفتت خلفها، وإذْ بها ترى حسن، وهو قادمٌ نحوها، تاركًا رفاقه جالسين في المقهى، أين تقدّم منها، ثمّ قال:

- كيف حالك يا سارة.

فأجابته (بارتباكٍ شديد):

- أنت هنا؟ ماذا تريد منّي؟

- كنت أريد أن أعتذر منك، عمّا بدر منّي آخر مرّة، في الحقيقة..

- أرجوك يا حسن، كفّ عن الحديث، في هذا الموضوع.

- لن أكفّ عن الخوض في الموضوع، لِما لا تدعينا نحاول مجدّدًا؟

- لقد قلتُ لك سابقًا، بأنّني لا أريد الرّجوع للخلف، أنا أريد أن أعيش في رفاهيّة، أتفهم؟

- كلّ هذا لأنّكِ تعرّفتِ على شابّ تافه، وغنيّ، فأصبح أكبر همّكِ أن تصبحي غنيّة مثله؟ عجيبٌ هذا الزّمن، كيف يغيّر النّفوس بين عشيّة وضحاها، لم أعهدكِ طمّاعة، إلى هذا الحدّ يا سارة.

سارة تتأفّف، ممتعضةً من كلامه، الذي نزل ثقيلًا على مسامعها، لدرجة ما عادت تقوى على هضمه، فقالت:

- أجل.. لقد تغيّرت، لكن للأحسن صدّقني، والآن عليك أن ترحل فورًا، لا أريد لأحد أن يراني معك.

وفي هذه الأثناء ضغط هاني، على البوق، بعدما ركب سيّارته مرّة أخرى، ليستعجلها، وأخرج رأسه من النّافذة (مناديًا):

- سارة.. هيّا أسرعي.

فنظرت سارة له، وبدون تفكير سارت لتقطع الطّريق، تاركة حسن خلفها، وهذا ما أثار حفيظته، فأمسكها من يدها، محاولًا منعها، من مواصلة السّير نحو هاني، ثمّ قال:

- إلى أين؟ لم أكمل كلامي بعد.

فصرخت سارة في وجهه (قائلة):

- ألا تفهم؟ قلتُ لك ابتعد عنّي.

نزل هاني في هذه الأثناء من سيّارته، وهو غاضبٌ ممّا رآه، واجتاز الطّريق بسرعة فائقة، وقام بإبعادها عنه، وقال:

- أما زلت تلاحقها، من مكان لآخر، أيّها الأبله؟

- اخرص.. أيّها التّافه، المنحطّ.

- من تظنّ نفسك يا هذا؟

اقترب هاني من حسن، واحتدم النّقاش بينهما، ووصل الأمر لحدّ اشتباكهما بالأيدي، لولا تدخّل بعض الرّجال، الذين كانوا جالسين في

المقهى، لفضّ النّزاع، لوصل الأمر لمعركة، قد تودي بحياة أحدهما، تراجع حسن، الذي أمسكه صديقه، وجرّه للوراء عنوة، وابتعد هاني، لتتبعه سارة، ويقطعا الطّريق إلى سيّارته، وهنا قال حسن (مهدّدًا):

- ستدفعان الثّمن أنتما الاثنان، سأريك من هو حسن، أيّها الغبيّ، سأقتلك بيديَّ هاتين.

نظر هاني لحسن، نظرة كلّها حقد، ولكنّه ظلّ صامتًا.. فتح باب سيّارته، وركب هو وصديقته، تاركين حسن يضرب كفًّا بكفّ، ثمّ توجّه للرّجال بالشّتم، والكلام البذيء، آمرًا إيّاهم بأن يتركوه وشأنه.

***

- ماذا قلت؟ هل ستتعاون معنا؟ أم أقصد غيرك؟

- ولكن..

- قُل لي بأنّك لا تريد أن تساعدني.

- كلّا.. لا أقصد.. ولكن هذه جريمة قتل يا رجل.

- سبق وأن قلتُ لك، بأنّ هذا الشّاب قد تجاوز حدوده، مع أخت قريبٍ لي، وبعد أن أغواها، وتزوّجها بالسّر، حملت منه، وحين أخبرته بذلك، صار يتهرّب منها، ثمّ قاطعها كليًّا، آخر الأمر، وحين علم أهلها ذلك، أرادوا أن يثأروا لشرفهم، فهمت؟

- ولكن لِما لم يتّصل قريبك به، ليحلّ المشكلة بينهم وديًّا؟

- ومن قال لك بأنّه لم يحاول؟ لقد حاول مرارًا، ولكن دون جدوى.

- أمهلني مدّة، حتّى أفكّر في الموضوع.

- لن أمهلك أكثر من يومين، كأقصى حدّ، ولا تنسَ المكافأة، التي تنتظرك، إن أنت وافقت.

- بصراحة، لم أكن أتوقّع بأنّ سهيل بهذه الأخلاق، لقد كان دائمًا مثالًا، للشّاب الشّريف الخلوق، والمؤدّب.

- هذا مجرّد قناع يرتديه، ليقنع الآخرين بحسن نواياه، وهذا تمامًا ما فعله مع أخت قريبي، خدعها بكلامه عن الشّهامة، إلى أن صدّقته، وحصل ما حصل.

وسكت الشّاب قليلًا، ثمّ عاد للحديث:

- ومن يعلم؟ فربّما سيوقع بأخريات، ليفعل فعلته، ويتركهنّ.

- وكيف ستنفّذون هذه العمليّة؟

قال حذيفة مستغربًا، فردّ عليه الآخر:

- سأخبرك حين توافق، ولك عليّ أن أعطيك مبلغًا، لم تكن تحلم به، طوال حياتك، لتسدّد به كلّ ديونك، بل ويجعلك تعيش كالملك.. ماذا قلت؟

- حسنٌ.. دعني أفكّر.

- حسنٌ، معك يومان.. والآن اعذرني، عليّ أن أرحل.

- ولكن إلى أين؟

- لديّ مشاغل كثيرة..

قام الشّاب تاركًا صديقه، بعد أن دفع فاتورة الأكل، وسار بخطى ثابتة، إلى أن غاص في تلك الأزقّة الضّيّقة، واختفى تمامًا، بينما بقي

الآخر شارد الذّهن، وهو يفكّر في العرض، الذي عرضه عليه، وهو في حيرة من أمره، فمن جهة يريد المال، بأيّ طريقة، ليسدّد ديونه، التي تراكمت عليه، ومن جهة يفكّر في سهيل، الذي بدا له كاللّغز، فهو يعرفه منذ سنين، ولكن هذه هي المرّة الأولى، التي يذمّه فيها أحد.

- وما يهمّني أنا؟ إن كان صحيحًا، ما قاله عنه سعيد، فهو يستحقّ الموت، ثمّ إلى متى سأظلّ على هذه الحالة، إلى متى سأنام، لأصحوَ على كوابيس، تثير في نفسي الهلع يوميًّا، بسبب تلك الدّيون، التي لم أستطع لحدّ السّاعة تسديدها؟ إلى متى سأتحمّل الشّجار مع هذا، وذاك، ممّن ضاقوا ذرعًا بي، ولم يعودوا يستطيعون معي صبرًا؟ إلى متى سيظلّ هذا يتهجّم عليّ، وينعتني بأقبح الصفات، أمام الملأ، ويهدّدني ذاك بالتّبليغ عنّي، والزّج بي في السّجن، إن لم أعطه أمواله، التي أقرضني إيّاها منذ سنوات؟

كان هذا كلام الشّاب لنفسه، بعدما تركه صديقه، رهينًا لأفكاره، التي تحاصره أنّى ذهب.. كان جلوسه وحيدًا لربع ساعة، قد أتاح له الفرصة، لينفرد بأفكاره، قبل أن يقطعها النّادل بقوله:

- هل من خدمة أخرى سيّدي؟

- أوه.. ماذا؟ لا.. لا، شكرًا.

ارتدى حذيفة نظّاراته، وقبّعته، وغادر تاركًا المطعم وراءه، ليتبخّر بين تلك الأزقّة نفسها، التي سلكها صديقه قبله..

***

- صباح الخير مدام.

- صباح الخير.. كيف حالك دكتور حامد؟

- بخير.

- اعذرني دكتور إن أتعبتُك، ولكن كنتُ أريد أن أسألك، عن هذه الملفّات، هل يمكنك مساعدتي؟ فأنا كما تعلم طبيبٌ عام، وبما أنّك مختصّ، فلن أجد أحسن منك.

- على الرّحب، والسّعة.

ظلّت مدام سلمى تسألني عن بعض الأمور، التي لم تفهمها، في بعض الملفّات، وكنتُ بدوري أجيبها، عن كلّ تساؤلاتها، ونحن على هذا الحال، وإذْ بنور تدخل، لتتفاجأ بوجودي جالسًا، وأنا أسترسل في شرح، كلّ ما استعصى، على مدام سلمى، وما إن رأتها هذه الأخيرة حتّى قالت:

- دكتورة نور، أنتِ هنا؟

- أجل، لقد جئتكِ بالملفّات، التي طلبتها منّي.

- شكرًا.. تفضّلي عزيزتي.

ثمّ أشارت لنور بالجلوس، على الكرسيّ المقابل، للكرسيّ الذي أجلس عليه، فتردّدت قليلًا، قبل أن تجلس، ولكنّها جلست آخر الأمر، وهنا عادت مدام سلمى للحديث مجدّدًا:

- سامحيني دكتورة، عليّ أن أفهم بعض الأمور منه، قبل أن أرجع للملفّات التي معك، إن لم يكن لديكِ مانع طبعًا.

- لا، ليس لديّ مشكلة.

جلست نور، وقد بدا عليها الاهتمام، بما دار بيننا من نقاش، لم تكن في الحقيقة تكترث كثيرًا، لمعرفة الإجابة، بقدر ما كانت منبهرة، بمعرفتي لكلّ صغيرة، وكبيرة، بصراحة لم تكن وحدها، التي انبهرت بمدى المعرفة، التي اكتسبتُها مع الوقت، بل حتّى مدام سلمى، قد بدا عليها الإعجاب، بما أقدّمه لها من معلومات.. فقالت:

- يبدو بأنّ دراستك في أمريكا، قد عادت عليك بالكثير، أنا أتوقّع لك مستقبلًا باهرًا يا حامد.

فابتسمتُ لإطرائها، ثمّ قلت:

- شكرًا.. أشكركِ من أعماق قلبي.

ثمّ التفتتْ لنور، وقالت:

- سألتُ عنكِ في الأيّام الماضية، فقيل لي بأنّكِ قد أخذتِ إجازة، خيرًا إن شاء الله؟

- مجرّد تعب، وإرهاق، ليس إلّا..

- حمدًا لله على سلامتك يا نور.

- شكرًا.

- أتعلمين؟ أعتقد بأنّه موسم المرض.

قالت مدام سلمى هذا الكلام، وهي تضحك، قبل أن تواصل:

- لقد خرجت الدّكتورة لبنى منذ أيّام، في إجازة مرضيّة، وقبلها الدّكتور مراد.

فسألتُها، مستفسرًا عن حالة الدّكتورة لبنى، فقالت:

- لا أعلم عنها شيئًا، ولكنّني التقيتُ بها مرّة، في أحد المحلّات، وقد بدا واضحًا عليها التّعب الشّديد، بالإضافة لشحوب وجهها، على غير عادتها، وحين سألتُها، أخبرتني بأنّه مجرّد تعبٍ عارض، بصراحة.. أفكّر في زيارتها.. سنزورها أنا، وبعض الزّميلات، أتأتين معنا يا نور؟

فشعرت نور بالارتباك، ولكنّها تمالكت نفسها آخر الأمر، وقالت:

- أوه.. حسنٌ، حين تعزمون على زيارتها، أخبريني.

والتفتت إليّ، وقد بدا عليها الغضب، ولكنّها لزمت الصّمت، أمّا أنا فقد طلبتُ الإذن بالرّحيل:

- اعذريني مدام سلمى، عليّ الذهاب.

- أوه، حسنٌ.. أنا ممتنّة لك.

- لا.. هذا واجبي.

***

جلس هشام زوج أختي فلّة، ليتبادل أطراف الحديث مع صديقه، وقد بدا عليه القلق، إنّه يحسّ بحقد، وكره شديدين، اتّجاه أبي، أبي الذي هضم حقّه، وحقّ أعمامي، وعمّاتي، ولم يفكّر ولو للحظة، فيما يمكن أن يحسّوا به، من ظلم، وقهر..

- اللّعنة.. أخبرني رشيد للتّو، بأنّ خطّتنا قد باءت بالفشل.. تخيّل؟

يقول هشام لرفيقه، الذي هو ابن عمّي الأصغر، وهو يستشيط من الغيض، كان يستنشق دخان تلك السّيجارة بحنق، وغلّ، بصراحة.. لا أدري، إن كان ينتقم من تلك السّيجارة، أم هي من كانت تنتقم منه!

- وما العمل الآن؟

يقول فادي ابن عمّي الأصغر له، فيجيبه هشام (بغضب):

- لا أعرف.. كلّ ما أعرفه، هو أنّنا يجب أن نأخذ حقّنا، من هذا الحيوان، الذي هو خالي، وعمّك، بل وجلّادنا، وظالمنا في الآن نفسه، تخيّل أيّ حظّ هو هذا، الذي لدى ابن (...) الملقّب بسالم؟

ثمّ أخذ نفسًا عميقًا من السّيجارة، التي بيده، قبل أن يعود للكلام:

- لقد فكّرتُ في شيء، لو حصل بالشّكل الذي أرجوه، فسأكون بهذا قد انتقمتُ لأمّي، ولإخوتي، ولكم أنتم أبناء أخوالي، وخالتي، بل ولكلّ عائلة ابن راضي، التي حرمها هذا المجرم حقّها.

- قل لي فيما تفكّر يا هشام؟

- أفكّر في أن أقتله، بيديَّ هاتين.

وأشار بيديه الاثنتين، وقد غزا الغضب وجهه، وجسمه بأكمله.

- لا.. ما الذي تقوله أنت؟

- كما سمعت، لستُ مستعدًّا لتحمّل المزيد، لستُ مستعدًّا لرؤية عدوّي يتنعّم بأموالي، وأسكت.

- أتدري ماذا تقول؟ ثمّ لا تنسَ بأنّه يبقى خالك، وعمّي في النّهاية.

- ليس خالي.. بل عدوّي.

- هدّئ من روعك.. لِما لا نحاول معه مرّة أخرى؟
- أتعتقد بأنّه سيكترث.. ألا تتذكّر آخر مرّة حدّثناه فيها، ماذا فعل؟
- نرسل له بعض معارفنا، ليقنعوه بأنّ ما يفعله ظلم، من المؤكّد..
وقبل أن يكمل فادي كلامه، قاطعه هشام (غاضبًا):
- كُفّ عن هذا الهراء أرجوك، إلى متى ستظلّون جبناء، إلى متى سنترجّاه أن يعطينا حقّنا؟

سكت فادي، حين أحسّ بأنّ الأمر، بدأ يخرج عن السّيطرة، يبدو أنّه قد بات مقتنعًا، بأنّ الرّجل قد جُنّ تمامًا، في حين أخذ هشام القليل من مسحوقٍ مخدّر، كان قد وضعه في ورقة صغيرة، وأخذ يستنشقه، محاولًا الهرب، من ذاك الإحساس الرّهيب بالغضب، خاصّة حين اقتنع بأنّ أخواله، وأولاد أخواله، ليس باستطاعتهم فعل أيّ شيء، في ظلّ غطرسة خاله سالم، الذي هو أبي.

- ستقتل نفسك بهذا السّم، الذي تتناوله يا هشام.

قال فادي مخاطبًا هشام، وهو يحسّ بالشّفقة حياله، فأجابه هذا الأخير (بيأس، وغضب):

- ألم تسمع لقول المتنبّي:

كُلّ حِلمٍ أتى بغير اقتدار حُجّةٌ لاجئٌ إليها اللّئامُ
من يهُن يسهُل الهَوانُ عليه ما لِجرحٍ بميتٍ إيلامُ

هذان البيتان ينطبقان علينا، لأنّنا حين لم نجد حلًّا لمشكلتنا، مع خالي، وحين لم نستطع الوقوف في وجهه، عفونا عنه ببساطة، وسكتنا

عن حقّنا، تمامًا كأولئك الجبناء، الذين وصفهم المتنبّي، في قصيدته باللّئام، نحن أمواتٌ منذ تلك اللّحظة، التي قبلنا فيها بأن يسلبنا، ذاك الحيوان حقّنا، وهذا السّم الذي تراه، يخفّف عنّي القليل، ممّا أحسّه من قهر، فأنا ميّتٌ لا محالة، سواء تعاطيتُ هذا السّم، أم لا.. لا يهمّ.

***

- ألو.. كيف حالك يا نريمان؟

- بخير، وأنت؟

- ألم أنبّهكِ بألّا تتّصلي بي، إلّا في الرّقم الذي أعطيته لك؟

- أعرف ذلك يا سهيل، ولكنّ الرّقم الذي أعطيتني إيّاه، ليس فيه وحدات، لقد نسيت بأن أشحنه.

- لقد اتّصلتُ بكِ قبل قليل، في الرّقم الذي أعطيته لك، بعد أن رأيتُ رنّتك، ولكنّكِ لم تجيبي؟

- لقد تركتُ الهاتف بالغرفة، بعدما اتّصلتُ بك، لهذا لم أسمعه.

- حسنٌ.. أغلقي الهاتف، لأكلّمكِ الآن في الرّقم الثّاني.

وأقفلت هاتفها، ليتّصل بها في الرّقم، الذي اشتراه، ليكلّمها فيه.

- ألو.. هل تسمعينني يا نريمان؟

- أجل.

- ما الأخبار؟

- لا جديد.. وأنت ما أخبارك.

- وأنا أيضًا، ليس لديّ أيّ جديد، بالمناسبة، أيمكننا أن نلتقيَ هذه الأيّام؟

- سأحاول.

- حسنٌ لن أطيل عليك، سأدعكِ على أمل أن نلتقي، لكن أحذّركِ للمرّة الألف، وأوصيكِ بألّا تتصرّفي بطيش، فأنتِ تعرفين أباكِ أكثر منّي، أوه.. صحيح، قبل أن أنسى، هذه آخرة مرّة تتّصلين بي فيها، من رقمك الحقيقيّ، سأتّصل بكِ أنا.. اتّفقنا؟

- حسنٌ.. أستودعك الله.

- في أمان الله.

***

جلستُ لأشرب فنجانًا من القهوة، في شرفة غرفتي، كنت أمعن النّظر في الجرائد اليوميّة، ولكن لا شيء جديد، فكلّ الجرائد تكتب نفس الأخبار، لدرجة أنّي قد حفظتها كلّها.. لقد أدمنتُ قراءة الجرائد، منذ أن كنتُ طالبًا في الثّانوية، كانت تلك عادة اكتسبتها، وورثتها عن أبي، الذي كان مولعًا بقراءتها، كنت أنتظر بفارغ الصّبر، مجيء اليوم الموالي، لأقرأ الأخبار، كم كان ممتعًا الاطّلاع على الجرائد، في ذاك الوقت، كبرنا وفقدنا الشّغف، حتّى للأشياء التي كانت مصدرًا للبهجة، واليوم أصبحت هذه الأخبار، بالرّغم من كثرة الجرائد عن قبل، أصبحت مملّة راكدة، وأنّى لها ألّا تكون كذلك؟ وكلّ شيء قد أصبح راكدًا، في هذه الحياة.

تركتُ الجرائد جانبًا، ونزلتُ لأعيد الفنجان للمطبخ، وخرجت منه لأعود لغرفتي مجدّدًا، وفجأة أحسستُ بدوار رهيب، يغزو جسدي، لقد أصيب جسدي بالوهن الفظيع فجأة، لدرجة لم أعد أقوى على حمله، لقد تراءى لي كلّ شيء غير ثابت، كلّ شيء كان يدور، من حولي، وضعتُ يدي على رأسي، وبالكاد استطعتُ وضع الأخرى على السّلم، لأمسك به، قبل أن أفقد السّيطرة، وأسقط على الأرض، بعد محاولاتٍ يائسة، لصعود الدّرج، أين بقيتُ ممدّدًا لبعض الوقت، وهنا تراءت لي فجأة الكثير من الصّور، وتداخلت، وصارت تتراقص أمامي، لم أدرِ أين أنا بعدها، هل أنا في المنزل، أم في مكان آخر؟ كانت الرّؤية عندي مشوّشة تمامًا، فأحيانًا يبدو لي بأنّي في منزلنا، ولم أغادره، وأحيانًا أرى نفسي راقدًا في المشفى، والممرّضة تقف على رأسي، وهي تكلّمني، ولا أستطيع إجابتها، لأنّ الرّؤية ببساطة مشوّشة، تلك الممرّضة التي تتغيّر فجأة، لتصبح أمّي:

- حامد، ما بك يا حامد؟

كنت أنظر إليها، ولا أستطيع أن أجيبها، فالإحساس بالغثيان حال دون ذلك، ثمّ ما تلبث بأن تعود الممرّضة مجدّدًا، لتحلّ محلّ أمّي، لأجد نفسي راقدًا، في المستشفى مرّة أخرى، تقول الممرّضة:

- دكتور حامد.. هل تسمعني؟

وهنا تشوّشتْ الرّؤية، وتداخلت الأصوات، وامتزجتْ صورة أمّي بالممرّضة، لتصيرا شخصًا واحدًا، وأنا في خضمّ ذلك، لا أحسّ إلّا بالدّوار يتزايد، والصّداع يصبح أكثر حدّة.

***

عادت سارة أدراجها، بعدما قضت الأمسية مع رفاقها، الذين كان من بينهم هاني، وها هي ذي تجتاز شارعًا ضيّقًا، لتصل لآخره، أين يقع بيت أبيها، أحسّت فجأة بشخص يحثّ الخطى وراءها، وقبل أن تلتفت لترى خلفها، أمسكها من يدها، ثمّ قال:

- أتتحدّينني يا سارة؟

- من؟ حسن؟ ما بك، هل جُننت؟

- المجنون من يقف في وجهي.

- ابتعد عنّي، قبل أن أرفع صوتي، طالبة النّجدة من الجيران، الذين لن يتوانوا، في أن يقطّعوك إربًا إربًا.

- سأبتعد.. ولكن ليس قبل أن أخبرك، بأنّني سأنتقم منك، وذلك بقتل ذاك الشّاب، الذي تتسكّعين برفقته طول الوقت، أعدكِ بذلك.

واصلت سارة طريقها، وهي تفكّر في كلامه، فهي تعرفه جيّدًا، وتعرف تمامًا ما يمكن أن يفعله.

***

- صحيح.. ألم تسأل عن الدّكتورة لبنى؟

سألني الدّكتور سمير.. فأجبته (قائلًا):

- أخبرتني مدام سلمى منذ أيّام، بأنّها في إجازة.. ولكن لما تسأل؟

- أوه، كلّا مجرّد تساؤل.. فقد لاحظتُ مدى اهتمامها بك، خاصّة حين كنّا نتناول الطّعام بالمطبخ، ذاك اليوم، أين جاء حازم ليفسد علينا متعة الأكل، أتذكر؟

- أجل.

- مسكينة هي الدّكتورة لبنى، ليس لديها حظّ.

- ولكن لما تقول هذا الكلام؟

- بصراحة.. لا أدري ماذا أقول لك.

- أرجوك يا سمير، أنت تعلم بأنّي أكره المقدّمات، هاتِ ما عندك.

- حسنٌ، لقد مررتُ بعيادة صديقٍ لي، والتقيتُ بها صدفة، ولكنّها لم ترني، فسألتُ صديقي عنها، وأخبرني بأنّها مصابة بالمرض الخبيث.

- هل أنت جادّ؟ لا شكَّ بأنّك تمزح.

- وهل يمكن أن أمزح في موضوعٍ كهذا؟

- هذا غير معقول، منذ أيّامٍ فقط، كانت على ما يرام، ولكن كيف عرف ذلك؟

- ما بك يا حامد؟ من يراك لا يقول أبدًا، بأنّك في نفس المجال، حين اشتدّ الألم عليها، طلب منها أن تجريَ بعض الفحوصات، بأحد المخابر، وهو ما تمّ بالفعل، ليكتشف أنّها مصابة بالمرض، وفي مراحله الأخيرة.

- أرجوك.. بالله عليك، كفّ عن هذا.

سكتُّ قليلًا، وقد أحسستُ بالدّهشة، والغضب في الآن نفسه، ثمّ قلت:

- استأذن لي المدير.

- ولكن إلى أين يا حامد؟

- لم أعد أطيق البقاء أكثر.

خرجتُ من المشفى، وأنا أحسّ بالحزن، لم أكن أدري لِما، أتُراه حزني على حالة لبنى، أم هو تأنيب الضّمير، على ما بدر منّي، من تقصير اتّجاهها، وهي التي حاولت مرارًا، ولكن بدون جدوى، حين هممتُ بالخروج من المشفى، توجّهتُ نحو سيّارتي، ولكنّني لم أشعر بالرّغبة في سياقتها، فقرّرتُ أن أتركها آخر الأمر، لأَمضيَ في طريقي، الذي آثرتُ أن أقطعه راجلًا، وهو ما كان بالفعل.

سرتُ تائهًا، بين تلك الشّوارع، لأراها تتشكّل أمام ناظري، بتلك الألوان المتباينة حينًا، والمتشابهة حينًا آخر، تلك الأحياء التي تتباين، من حيث الجدّة، والقدم، الأصالة، والمعاصرة، الماضي، والحاضر، لكنّ الشّيء الوحيد الذي يجمعها، هو حركة النّاس المتواصلة الدّؤوبة، والسّاعية وراء الرّزق، أولئك النّاس الذين يبدون لأوّل وهلة، مفعمين بالنّشاط، يمشون بخطواتٍ سريعة، لقضاء مآربهم، ولكن لو غُصت في داخلهم، وبالضّبط إلى قلوبهم، لوجدتَ لكلّ منهم قصّة، تصلح أن تكون روايةً بأكملها، روايةٌ لما يحمله الإنسان داخل قلبه، من حزن،

وفرح، خيبات أمل، وانتصارات، وغيرها من المتناقضات، التي تعجّ بها الحياة، روايةٌ يصلح أن يكون عنوانها :تناقضات الحياة..

بدأ المطر يتساقط تدريجيًّا، وأنا أسير، لم أحسّ بنفسي، كيف قطعت كلّ تلك الطّرق، لوجهة لم أعد أعلمها، يبدو بأنّي قد سلكتُ طريقًا، غير الذي كنت أنوي، ولكن على أيّ حال، لم يعد هذا مهمًّا، فقد صارت لديّ قناعة بمقولة: "كلّ الطّرق تؤدّي إلى روما"، ما كان يعنيني أكثر، هو إحساسي بالذّنب، اتّجاه لبنى، والحالة التي وصلت إليها هذه المسكينة، وأنا على هذا الحال، إذْ بي أسمع شخصًا ينادي:

- حامد.. حامد.

فالتفتُّ خلفي، وإذْ بي أجده صهري مروان، أخو زوجتي جنى.

- أوه.. يا إلهي.. وهل هذا وقتك أنت أيضًا؟

قلتُ هذا الكلام في نفسي، لأنّه لم تكن لديّ رغبة في الحديث، مع أيّ كان، وخصوصًا مروان، الذي يعشق المشاكل، تمامًا كوالدي، ولهذا كان هذا الأخير يحبّه بشدّة، لأنّه يشبهه تمامًا.

- هل انزعجت من رؤيتي؟ أم ماذا؟

- لا.. لا، أبدًا، كيف حالك يا مروان؟

- بخير.. لماذا لم نعد نراك، كما في السّابق؟

- مشاغل الحياة.. لا أكثر.

- وماذا بالنّسبة لجنى؟ هل ستتركها هكذا؟

- أنت تعلم جيّدًا بأنّي زرتها، ورفضتْ المجيء معي، فماذا أفعل؟

- لا.. لم يخبرني أحدٌ بذلك.

سكت مروان قليلًا، وقد سرح بخياله ناحية المحلّ، الذي خلفي، ثمّ وضع يده على رأسه، ومرّرها على شعره، في محاولة منه لتضبيطه، قبل أن يعود للحديث مجدّدًا:

- ليس لدينا بنتٌ تفرض رأيها، الرّأي لنا، نحن إخوتها.

- وهل تريد منّي أن أمسكها، من يدها، وآخذها معي بالقوّة؟

- أنا من سيفعل ذلك، إذْ لا نقبل بوجودها بيننا، بعد أن تزوّجت، وأنجبت ولدًا، بيتها أولى بها، ثمّ إنّ هذا ليس موضوعنا، الموضوع هو أنّك لم تحفظ لها كرامتها، بل إنّي لأراك زاهدًا فيها، وأنا لا أقبل أن تُعامل أختي، بهذا الشّكل، لا تعتقد بأنّها قد أصبحت بلا ظهر، بعد وفاة والدي، لاا.. نحن إخوتها نصون كرامتها، من بعد أبي، أفهمت؟

نظرتُ له مليًّا، متأمّلًا إيّاه بتعجّب، وحيرة، وقد سرحتُ بخيالي، أين تذكّرتُ أفعاله الشّنيعة، اتّجاه زوجته المسكينة، التي لا يمرّ يوم، إلّا ويضربها فيه، هذا اللّعين الحقير، بل وتشجّعه أمّه، وأخواته الإناث، على ضربها، وحجّتهم في ذلك، أنّ الرّجل يجب أن يضرب زوجته، حتّى يفرض احترامه عليها، لقد تذكّرتُ كيف ذهبتُ مع جنى، في مرّة لزيارتهم، وحين دخلنا فوجئنا به، يضرب زوجته المسكينة، هو وأخواته وأمّه، كانوا كلّهم يضربونها، وهي تبكي، وتصرخ طالبة النّجدة، أمام أطفالها الصّغار، الذين أخذوا في البكاء هم أيضًا، على حال أمّهم، التي لا يستطيعون لها سبيلًا، وهم مجرّد أطفال.

ركضتُ بسرعة يومها، لأنقذ تلك المسكينة من بطشهم، وحاولت جنى أن تساعدني هي الأخرى، وقد شعرت بالخجل حينها، هدّدتُهم يومها، بأنّي أستطيع أخْذها، لتخرج شهادة طبّية، تثبت ضربهم المبرح لها، ثمّ أتوجّه لأقرب مركز للشّرطة، لأشتكيَ عليهم، فما هكذا تُعامل المرأة، فديننا الحنيف ينصّ على احترامها، والحفاظ عليها، تمامًا كما نحافظ على أموالنا، فهي ليست أقلّ شأنًا، لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "النّساء شقائق الرّجال، ما أكرمهنّ إلّا كريم، وما أهانهنّ إلّا لئيم".. بالإضافة للقوانين الصّارمة، التي شرّعها رجال القانون، في بلادنا، وفي كلّ البلدان، والتي تشدّد على معاملة المرأة برفق، أعطيتُهم يومها درسًا في الأخلاق، وتحوّلتُ فجأة من طبيب لمعلّم، أو أستاذٍ جامعيّ يلقي محاضرة، على طلبته، فخافوا يومها، ولكنّني كنت متأكّدًا، بأنّهم لن يكفّوا، عن هذه الأفعال الشّنيعة، نظرتُ لجنى مستغربًا، ثمّ قلت:

- لقد كانت أمّي محقّة، حين قالت بأنّكم دون المستوى.

واكتفيتُ بالخروج غاضبًا، وذلك بعد أن قالت لي البنت:

- أرجوك يا حامد، لا أريد مزيدًا من المشاكل، فأهلي سيطردونني، إن وصل الأمر للشّرطة، وسيقولون بأنّني قد فضحتهم، فهُم يوصونني بالصّبر دائمًا، هذا هو قدري، وأنا راضية به.

أحزنني يومها رؤية امرأة، في هذا القرن، تُعامل بمنتهى القسوة، وفوق هذا، لا تستطيع أن تشتكي، لأنّها وببساطة، قد وُلدت في عائلة

جائرة، فعائلتها الأصليّة ليست أقلّ جورًا، من عائلة زوجها.. عدتُ لشعوري أخيرًا، وقلتُ لمروان (متسائلًا هذه المرّة بغضب):

- وهل الاحترام يقتصر، على أختك فقط يا مروان؟

قلتُ كلامي، وركّزتُ نظري في عينيْ مروان، كنوع من التّحدّي، فارتبك، وقال:

- ماذا تقصد؟

- زوجتك مثلًا، أليست أهلًا للاحترام هي الأخرى؟ لما لا تحافظ عليها هي أيضًا، كما تحاول دائمًا إن تعلّق الأمر بأختك؟ أم أنّ زوجتك ليست في مقام أختك، أم تُراها أختك في مقام، أعلى من زوجتك؟

فسكت، وقد وضع رأسه، في الأرض خجلًا، أمّا أنا فقد سرت، متجاهلًا إيّاه، بعد أن فقدتُ القدرة، على التّحكّم في مشاعري، لوهلة أحسستُ بأنّ يدي تريد أن تتحرّك، باتّجاه وجهه، لتلكمه لكمة قويّة، ولكنّي سيطرتُ على نفسي، ومشيتُ لأتركه واقفًا، وقد أحسّ بالخجل، من تصرّفاته، وأفكاره البالية.

***

خرجتْ زوجة أبي، في الصّباح الباكر، متّجهة نحو بيتنا، كانت ترتدي جلبابًا أسود، وتضع نقابًا تغطّي به وجهها، حتّى لا يعرفها أحد، كانت تلتفت وراءها من حين لآخر، لتتأكّد من خلوّ الطّريق من المارّة، أو من أيّ أحد يمكن أن يعرفها، وأخذت تسير بسرعة، إلى أن وصلت لبيتنا، كانت السّاعة حينها السّادسة، فتحتْ حقيبتها، لتُفتّش داخلها،

وقد بدا عليها الارتباك الشّديد، أخرجت شيئًا من حقيبتها أخيرًا، ثمّ عادت للبحث مجدّدًا، رآها في هذه الأثناء الحارس، فقام من مكانه، وسار بحذر شديد، ظنًّا منه أنّ لصًّا يريد أن يسطوَ على البيت، أخرجت زوجة أبي ورقتين، من حقيبتها في هذه الأثناء، وتأمّلتهما مليًّا، وقد كانت محتارة، لدرجة أنّها لم تعرف أيّ ورقة، يجب عليها قراءتها، أثناء قيامها بالعمليّة، التي من أجلها أتت، فقالت:

- يا إلهي.. لقد اختلط عليّ الأمر.. تُرى أيّ ورقة، طلبتْ منّي أن أقرأها؟ ما العمل الآن؟

وفكّرت قليلًا، قبل أن تتّخذ القرار.. ثمّ قالت:

- على أيّ حال، ليس لديّ حلٌّ آخر.. سأقرأ الورقتين، وأيًّا كانت النّتيجة، فعليّ تقبّلها، هذه نتيجة إهمالي، فقد دفعتُ أموالًا طائلة، وآخر الأمر، لم أعرف أيّ الورقتين، عليّ أن أقرأ.

وقرأت الورقتين، ثمّ رشّت ذاك السّائل، الذي يميل لونه للأصفر، عند باب البيت، وأخرجت كيسًا صغيرًا، من جيبها، وفتحته، وسكبت القليل من المسحوق، الذي بداخله في يدها، ونفثت فيه اتّجاه البيت، وهي تُتمتم بكلمات، أشبه بالطّلاسم، اقترب منها الحارس، متعجّبًا من تصرّفاتها، التي لم يستطع فهمها، وصاح فيها (قائلًا):

- ماذا تفعلين عندك يا امرأة؟

فارتعدت فرائسها، بمجرّد سماعها لصوته، وطفقت تضع أغراضها داخل الحقيبة، قبل أن تلوذ بالفرار، حتّى لا يتعرّف عليها، وهنا اقترب

الحارس من الباب، ثمّ قام بفتحه، وخرج، أين وجد ورقة مرميّة، على الأرض، فأخذ يدقّق النّظر، فلم يجد إلّا فقرة غير مفهومة، كأنّها مكتوبة بلغة أخرى، ولكنّ حروفها عربيّة، وضع الورقة في جيبه، ونظر ناحية المرأة، لعلّه يتعرّف عليها، ولكن دون جدوى.

***

- يا إلهي.. كم اشتقتُ للبلد، لقد مضى الوقت بسرعة، أتذكّر يوم مغادرتي للبلد، للعمل في قطر، وكأنّه البارحة فقط.

يقول مراد لزوجته، وهما يخرجان من المطار، ليوقفا أوّل سيّارة، تمرّ من أمامهما، كان مراد يبدو سعيدًا، بعودته للدّيار، ولو زائرًا فقط.

- أما كان علينا أن نخبر والدك، ونور بمجيئنا؟

- كلّا.. أريدها مفاجأة لهما، سيفرح أبي كثيرًا بقدومنا.

- ولكنّ زوجة أبيك..

- أرجوكِ يا رُؤى، لا أريد الخوض في هذا الموضوع، أنا لا أصدّق بأنّني قد عدتُ للبلد، لا أريد أن أعكّر مزاجي، بالحديث عنها.

***

رنّ هاتف جنّات، ففتحته، وحين عرفت المتّصل، أغلقت الباب بحذر، حتّى لا تصدر صوتًا، وعادت لمكانها، وردّت عليه:

- ألو..

- ألو.. أين أنت؟ لماذا لم تجيبي، فور اتّصالي بك؟

- كنت مشغولة قليلًا، كيف حالك؟

- بخير.. وأنت؟

- أنا بخير.

- ماذا قرّرت؟ هل ستأتين، لتسهري معنا هذه المرّة؟

- ولكنّني لا أستطيع، وكيف أستطيع ذلك، وأمّي تحرسني بشدّة؟ وحتّى وإن أفلتُّ منها، فكيف سأفلتُ من الحارس؟

- المسألة بسيطةٌ جدًّا، ضعي لهما المنوّم، وتعالي.

قال عادل هذه الجملة، وضحك، ممّا جعل جنّات تنزعج، معتقدة أنّه يمزح، فقالت:

- هل تمزح؟

- لا.. بل أتكلّم بجدّية، ضعي لهما المنوّم في العصير، وعندما يناماذ، اخرجي من باب المنزل، وستجدينني في انتظارك خارجًا.

- ولكن..

- ولكن ماذا؟ إذا لم تأتي هذه المرّة، فلن أكلّمكِ مجدّدًا.. وداعًا.

- انتظر.. أين أنت؟ ألو.. يا إلهي، لقد أغلق الهاتف في وجهي!

أخذت جنّات تفكّر في كلامه للحظات، قبل أن تتساءل:

- إنّه مجنون حقًّا.. يبدو أنّه كان جادًّا في كلامه، وإلّا فلِما أغلق الهاتف في وجهي؟ والآن ما العمل؟ هل أفعل ما طلبه منّي؟

ثمّ ضحكت في هذه الأثناء، قبل أن تواصل حديثها:

- هذا الشّاب مجنون فعلًا، ولكن لا بأس من المحاولة، لا بأس من الجنون من حين لآخر، طول عمري وأنا بنتٌ مهذّبة، ومع ذلك فهذا لم

يشفع لي عند أمّي، التي كانت تسبّني، لأتفه الأسباب، بل وتنصحني بأن أقتديَ بنريمان، وفلّة، فهي تراهما أذكى منّي، وشخصيّاتهما أقوى من شخصيّتي، بل وتقارنني بهما دائمًا، فلا تكفّ عن مضايقتي، بسبب أو بدونه، ودائمًا ما تسمعني تلك الكلمات الرّنانة، مثل: كوني كأختيكِ فلّة، ونريمان، لا يمكنكِ أن تكوني كفلّة، ونريمان، ليتكِ تتعلّمين قليلًا من أختيك، لقد سئمتُ فعلًا، واليوم عليّ أن أثبت للكل، بأنّ لي شخصيّة قويّة، ولن أتركَ أحدًا يسخر منّي، من الآن فصاعدًا، حتّى لو كان أمّي.

ارتدت جنّات ملابسها، ووضعت المال في حقيبتها، وخرجت، لتنزل للأسفل، واتّجهت لباب المنزل، وحين همّت بالخروج أخيرًا، نظرت لأمّها، التي كانت على مقربة منها، وقالت لها:

- أمّي.. أمّي..

- نعم.. ماذا تريدين؟

- سأخرج للحظات.. أريد أن أشحن هاتفي، فقد انتهى رصيدي.

فالتفتتْ نحوها، وقالت لها (مستغربة):

- ولِما لم ترسلي أحد الخدم، ليشحن لكِ هاتفك؟

- ما بك يا أمّي؟ أنا لستُ طفلة، لقد جاء الوقت الذي يجب أن أعتمد فيه، على نفسي.

- ومنذ متى صرتِ تهتمّين بقضاء شؤونكِ بنفسك؟

- من الآن، هل لديكِ مانع؟

- ولكنّ أباكِ قد نبّه عليك، بعدم الخروج بمفردك، أنتِ تعرفين بأنّ أعداءه كُثر، وهو يخاف عليك.

- أرجوك يا أمّي، كُفّي عن هذا الهراء، إلى متى سنظلّ مختبئين كالفئران؟

- ولكن..

- سأخرج بنفسي، أريد أن أستنشق الهواء في الخارج، لن أتأخّر..

خرجت جنّات، بعد أن وضعت أمّها، في الأمر الواقع، تاركة إيّاها فاتحة فاها من الدّهشة، ومستغربة من تغيّرها المفاجئ، قالت:

- أيُعقل أن تكون هذه ابنتي؟ لقد تغيّرت فجأة، ولكن هذا ما كنت أتمنّاه دومًا، كنت أتمنّى أن تكون قويّة مثلي، فلا مكان للضّعفاء.

سارت جنّات، بين تلك الأزقّة، باحثة عن أقرب صيدليّة، إلى أن وجدت واحدة.. وها هي ذي تدخل، أين وجدتها ممتلئة بالزّبائن، وفيها عدّة موظّفين، يستقبل كلّ واحد منهم زبونًا، ليُلبّيَ طلباته، فجلست قليلًا، ريثما يغادر زبونٌ ما، لتحلّ محلّه، وبعد مُضيّ لحظات، يبدو أنّ أحدهم يهمّ بالمغادرة الآن، الأمر الذي جعلها تهبّ، مسرعة للموظّف، ليبادرها (قائلًا):

- مرحبًا بك، هل من خدمة؟

في البداية لم تعرف من أين تبدأ، فهذه أوّل مرّة تدخل لصيدليّة، في حياتها كلّها.. فقد تعوّدت على أن تأتيها كلّ طلباتها للبيت، دون عناء، أو تعب.. تلعثمت، وقالت:

- أوه.. حسنٌ.. أريد أن أشتريَ منوّمًا؟

***

- أين أنت؟

- انظري خلفك يا نريمان، أنا جالسٌ في الطّاولة الأخيرة.

التفتت نريمان خلفها، لتجد سهيل يلوّح لها، فأغلقت هاتفها، واتّجهت إليه، كانت تمشي، وتلتفت، خشية أن يكون هناك من يراقبها في الخفاء، بإيعاز من أبي.

- كيف حالك؟

قالت نريمان، وهي تستعدّ للجلوس، فأجابها سهيل، الذي وضع فنجان القهوة على الطّاولة، بعد أن ارتشف منه القليل:

- بخير.. وأنت؟

- بخير.. أتعلم يا سهيل؟

وهمّت نريمان، أن تخبره أمرًا هامًّا، لولا مقاطعة النّادل، الذي اقترب منهما، ليسألهما عن طلباتهما.. ممّا جعلها تلزم الصّمت، مخافة أن يكون النّادل جاسوسًا، وضعه أبي، كي ينقل أخبارها له، هكذا خُيّل لنريمان، التي أصبحت تتوجّس، من أيّ غريب.

- هل من خدمة سيّدي؟

قال النّادل لسهيل، الذي أجابه:

- أحضر لها كوبًا، من عصير البرتقال، لو سمحت.

ثمّ عاد ليسأل نريمان، بعد ذلك:

- هاه.. ماذا كنتِ تريدين أن تقولي لي، قبل مجيء النّادل؟
- لا أعلم.. لقد نسيت.
- حسنٌ.. أخبريني؟ ألم يلاحظكِ أحد، وأنتِ تدخلين إلى هنا؟
- لا.. لا أعتقد ذلك.
- هل أخذتِ احتياطاتك؟
- من هذه النّاحية لا تخف، لقد أخذتُ احتياطي، ولم يلاحظني أحد، لأنّي وببساطة تظاهرتُ بأنّي مريضة، وهو ما جعل الأستاذ يسمح لي بالمغادرة، سأبقى معك لمدّة نصف ساعة، وأعود بعد ذلك للجامعة مجدّدًا، لأحضر للحصّة التّالية، التي تنتهي على الواحدة زوالًا، وأخرج مرّة أخرى، أين ينتظرني السّائق، ليوصلني إلى البيت، فهذا هو موعد خروجي، الذي يعرفه أبي، من خلال جدول التّوقيت.. وأنا لا أقابلك إلّا بين الحصص.
- ولكن ماذا عساكِ تفعلين المرّة القادمة؟ اليوم تحجّجتِ بالمرض، وقد تعاطف معكِ الأستاذ، وتركَكِ تغادرين، وفي المرّة القادمة؟
- سأتصرّف.. لا تقلق.

***

خرجت نور من المستشفى، مع زميلتها، وهي تضحك، وتقول:
- من أين تأتين بهذه النّكت المضحكة؟ أتعلمين، لم أكن أعلم بأنّكِ مرحة، إلى هذا الحدّ.

- معكِ حقّ.. كلّ من لا يعرفني، يقول عنّي بأنّي جدّية.. فقط من يعرفني عن قرب، يكتشف الجانب الآخر، من شخصيّتي.

سمعت نور فجأة صوتًا، ينادي من الخلف، فالتفتت، لتجد حازم، الذي كان يحثّ الخطى نحوها، ثمّ قال:

- دكتورة نور، كنت أبحث عنك.

- لقد خرجتُ للتّو مع صديقتي.. ما الموضوع؟

- لا.. كنت أريد..

وفجأة وقبل أن يكمل كلامه، وإذْ بنور تلتفتُ خلفها مجدّدًا، أين كان هناك شابّ، يطلّ من داخل سيّارة سوداء، في الجانب المقابل للطّريق، وينادي عليها، مُلوّحًا بيده باتّجاهها، فأخذت تدقّق النّظر، حتّى تعرّفتْ عليه أخيرًا، ثمّ ابتسمت له، فسألها حازم (بفضول):

- من ذاك الذي يناديك؟

فأخبرته بأنّه أخوها، اقتربت السّيّارة منها، لينزل منها مراد، ورؤى، فأسرعت، لتسلّم عليهما، وهي تبتسم، وحازم في مكانه لا يبرحه.. كان مستغرقًا في النّظر لنور، التي رآها لأوّل مرّة تبتسم، منذ أن عُيّنت هنا، ثمّ التفت ناحية مراد، ليتفاجأ فور رؤيته له، أين قال:

- مراد ابن راضي؟ أخوكِ يا نور؟

اقترب مراد منه، ليسلّم عليه، وقال:

- حازم؟ كيف حالك؟

- بخير.. لماذا لم نعد نراك؟

- لقد سافرتُ للعمل في قطر.. وأنت؟

- أنا هنا زميلٌ لأختك، تصوّر؟ هذه أوّل مرّة أعرف بأنّها أختك.

فابتسم مراد، ثمّ نظر لنور، وقال:

- أجل.. نور هي أختي الصّغرى.

كانت نور في هذه الأثناء منشغلة، بالكلام مع زوجة أخيها.. وهنا تابع مراد كلامه:

- هل تذهب بمعيّتنا يا حازم؟ عفوًا.. أقصد الدّكتور حازم.

ثمّ أعقب كلامه بابتسامة، ليقاطعه حازم (بمنتهى الأدب):

- لا يا رجل، قل لي حازم فقط، كما كنّا أيّام الثّانوية، فأنا لا أحبّ الرّسميّات كثيرًا.. عمومًا أشكرك يا مراد.. سيّارتي هناك.

وأشار بيده، لسيّارة مركونة داخل المستشفى.. وعاد للنّظر لمراد، وقال (وهو يؤكّد عليه):

- ولكن عدني، بأنّها لن تكون آخر مرّة، نلتقي فيها.

- أجل.. أعدك بذلك.. أعطني رقم هاتفك، لنبقى على اتّصال.

- أكيد.. سجّل عندك.

وأخذ يملي عليه، وهنا رنّ له مراد، ليعرف رقمه بالمقابل، وبعد أن سجّله حازم عنده، عاد ليقول:

- في المرّة القادمة، سأعزمكم على الغداء، أنت، وزوجتك، ونور، ليتسنّى لنا الحديث أكثر.

- إنّ هذا لمن دواعي سروري.. أشكرك مسبقًا.. اعذرني الآن.

ابتعد مراد، ليركب سيّارته، أمّا نور فلوّحت بيدها، مودّعة لحازم، وسكت الجميع للحظات، قبل أن يضيف مراد (مستغربًا):

- سبحان اللّه.. من يقول بأنّ حازم سيصبح طبيبًا، ليشتغل مع نور! كيف مضت الدّنيا بسرعة هكذا؟

فقالت نور (بنفور):

- ولكنّه ثقيلٌ على القلب.

ابتسم مراد لقولها، ثمّ أضاف:

- مظهره يوحي بأنّه متعجرف، وأنانيّ، ولكنّه طيّب، وهذا بشهادة المقرّبين منه.. هو هكذا، لم يتغيّر أبدًا، صحيح.. إلى أين نذهب الآن؟ إلى زوجة أبي؟

ثمّ ضحك بصوتٍ عال، لتضحك معه زوجته، ثمّ قالت لنور:

- ما رأيك يا نور، هل نذهب، أم لا؟

فنظرت لهما نور، ثمّ تأفّفت، وقالت بعد ذلك:

- أرجوكما كُفّا عن هذا المزاح الثّقيل، سنذهب لأحد المطاعم الفاخرة، لنتناول وجبة شهيّة، ونتحدّث بكلّ حرّية، ثمّ نعود للبيت.

- جميل، لقد كبرت نور، وصارت طبيبة، وستدعونا لأهمّ مطعم في المدينة.

قال مراد كلامه هذا، وعاد للضّحك، قبل أن تقاطعه نور بقولها:

- هذا مؤكّد.

- على هذا ستكثر الولائم، حظّري نفسك، فأنا أحبّ الأكل كثيرًا.

***

بعدما خيّم اللّيل أخيرًا، نزلت جنّات للأسفل، وبالضّبط للمطبخ، وهي تحمل في جيبها قارورة المنوّم، ثمّ قالت للخادمة:

- هل أعددتِ العصير؟

- أجل سيّدتي.

- حسنٌ، سآخذ الكوب بنفسي لأمّي، أمّا أنتِ فعليكِ أن توظّبي لي غرفتي، فهي غير مرتّبة.

- الآن سيّدتي؟

قالت الخادمة مستغربة، فردّت عليها جنّات:

- أجل.. هيّا.. اتركي ما في يدك، وأسرعي، لتنظّفي الغرفة.

قالت جنّات كلامها هذا، بنبرة غاضبة، حتّى لا تشكّ الخادمة في أمرها، فأسرعت هذه الأخيرة مهرولة، لتتركها في المطبخ بمفردها، أين أخرجت القارورة من جيبها، ووضعت بضع قطرات، في كوب العصير، الذي ستقدّمه لأمّها، وأحضرت كوبًا آخرًا، وسكبت فيه العصير، ثمّ قامت بنفس ما فعلته مع الأوّل، قبل أن تعيد القارورة بسرعة لجيبها، بعد أن أحكمت إغلاقها، وأخذت الصّينيّة بعدها، واتّجهت لغرفة والدتها، وقدّمت الكوب الأوّل لها، فاستغربت أمّها سرّ اهتمامها، بتقديم العصير لها، فليس من عادتها أن تكون خدومة، لهذا الحدّ، وقالت:

- وأين هي الخادمة؟ لماذا لم تقدّم لي العصير بنفسها؟

- طلبتُ منها أن ترتّب غرفتي، سأذهبُ لأريَها ما الذي عليها فعله، فقد سئمتُ من وجود سريري، في نفس المكان، سأغيّره عن موضعه، وسأغيّر معه الكثير من الأمور.. لم أشأ أن تتأخّر عليك.

- ومنذ متى صرتِ خدومة؟ لم أعهدكِ إلّا كسولة مشاكسة.

- ما بك يا أمّي؟ أنتِ لا يعجبكِ ما أفعله أبدًا.

- حسنٌ.. أخبريني، لِمن الكوب، الذي تحملينه في تلك الصّينيّة؟

- هاه؟ لي طبعًا.. سأشربه لاحقًا.

خرجت جنّات بالكاد، من غرفة أمّها، بعد أن أمطرتها بوابل، من الأسئلة، وأغلقت الباب، لتضمن عدم ملاحظة أمّها لها، أثناء نزولها للأسفل، وأخذت تسير بحذر، وتلتفتُ للخلف من حين لآخر، إلى أن وصلت لباب المنزل، ثمّ فتحته، واتّجهت للحارس، وقالت له:

- عمّي جلال.. لقد أحضرتُ لك العصير.

- شكرًا يا ابنتي.

شكرها الحارس، وقد استغرب هو الآخر من صنيعها، بينما تركته، لتركض مسرعة لباب المنزل، وقامت بإغلاقه بنفس الحذر، الذي فتحته به، ثمّ صعدت لغرفتها مجدّدًا، فوجدت الخادمة، التي كانت توظّب بعض الأغراض.. قالت لها:

- أوه، حسنٌ، دعي ما في يديك الآن، فقد تأخّر الوقت، اذهبي، لترتاحي، وغدًا ستكملين ما تبقّى.

وأخذت تستعدّ للخروج، مع أصدقائها، للسّهر في أحد الملاهي، بعدما أغلقت عليها باب غرفتها، أين غيّرت ثيابها، ووضعت المكياج، ورشّت القليل من العطر.. كان قد مضى على الوقت حوالي ساعة، ليرنّ في هذه الأثناء هاتفها، فالتفتت نحوه، لتجده عادل صديقها:

- ألو..

تجيب جنات بصوتٍ خافت، فيردّ عليها عادل:

- هل أنتِ جاهزة؟

- أجل، ولكن قبل أن أخرج، عليّ التّأكّد من مفعول الدّواء.

- أسرعي، ماذا تنتظرين؟ اسمعي، ستجدينني في انتظارِكِ خارجًا.

قامت جنّات، بعدما أغلقت الهاتف، ووضعته بحقيبتها، وحملتها مغادِرة الغرفة.. مرّت على غرفة أمّها، لتتأكّد إن كانت نائمة أم لا، دقّت الباب مرّة، واثنتين، لكنّ أمّها لم تجب، ففتحت الباب بحذر، وأخذت تقترب بنفس الحذر، إلى أن وقفت إلى جانب السّرير، فتطلّعت لأمّها، أين لاحظت، بأنّها قد غطّت في نومٍ عميق، فقالت:

- أمّي.. أمّي.. هل أنتِ نائمة؟ يبدو أنّ هذا الدّواء فعّال.

قالت جنّات، وهي فرحة، ومستغربة، في الآن نفسه، ثمّ تراجعت للوراء، وأغلقت الباب بهدوء، ونزلت للطّابق الأرضي، وفتحت باب المنزل، وخرجت متّجهة هذه المرّة، لغرفة الحارس، التي تقع بمحاذاة الباب، فوجدته هو الآخر يغطّ في نوم عميق، اقتربت منه، لتبحث عن مفاتيح الباب الخارجي للمنزل.. وكم فرحت حين وجدتها موضوعة،

على طاولة جانبيّة، فأخذتها، وهي فرحة، وخرجت نحو الباب، الذي فتحته هذه المرّة بطمأنينة، كلّ هذا والحارس نائمٌ، في سباتٍ عميق، وفاتحٌ فاه، كأنّه ميّت، وفور خروجها من المنزل، وجدت سيّارة تنتظرها خارجًا، فعرفت بأنّها تخصّ عادل، أين اقتربت منه، محاوِلة التّأكّد من هويّته، فربّما يكون شخصًا آخرًا.. ففتح عادل باب السّيّارة، وقال:

- لا تخافي.. هذا أنا.

ركبت جنّات السّيّارة، وبعد أن سلّمت عليه، قالت:

- اسمع يا عادل، لقد وافقتُ على السّهر، فقط لأنّك أصررت على ذلك، ولكن عليّ الرّجوع، بعد ساعتين من الآن، اتّفقنا؟

- لكِ ما تريدين، ولكن لم أكن أتوقّع بأنّكِ قويّة، لهذا الحدّ، فقد استطعتِ أن تفلتي من أمّك، وليس هذا فقط، بل والحارس أيضًا.

قال كلامه هذا، وأتبعه بضحك، فيه بعض السّخرية، فقالت معقّبة على كلامه (وهي تقلّد ضحكته بنفس السّخرية):

- ها ها ها.. هيّا انظر أمامك، وكفّ عن مزاحك الثقيل.

- حسنٌ.. أوامركِ سيّدة جنّات، هل تأمرينني بشيء آخر؟

- سُق سيّارتك، وكُفّ عن الثّرثرة.. هيّا.

وضحكا معًا، ليواصل عادل السّير، إلى أن وصل لأحد البيوت، فركن سيّارته جانبًا، وأمر جنّات بالنّزول، فنظرت له مستغربة سرّ وقوفه، عند هذا المنزل، ثمّ قالت:

- ألم تقل لي بأنّنا سنسهر، في أحد الملاهي اللّيليّة؟

- وما الفرق بين الاثنين؟

- لا.. ولكن..

- أنا من النّوع الذي يحبّ أن يسهر براحته، ولا أحبّ السّهر في الأماكن المشبوهة، قد ألتقي بأحد معارفي، فكيف سأتصرّف وقتها؟

- ولكنّك في وقتٍ قريب، كنت تسهر في الملاهي، ولا تبالي.

- كان هذا في السّابق، حين كنتُ مجرّد شابّ تافه، لا شغل له، ولا أهمّيّة، أمّا اليوم فقد اختلف الوضع، وخاصّة بعد أن بدأتُ التّحضير للمشروع، الذي أخبرتكِ عنه سابقًا، سأكون أهمّ رجل أعمالٍ مستقبلًا، والملاهي أماكن مشبوهة، لا تليق بشخصٍ مهمٍّ مثلي، أليس كذلك؟

وأعقب كلامه بضحكات، وصل صداها عنان السّماء، أمّا جنّات فقد اكتفت بابتسامة خفيفة، ثمّ نزل ليفتح لها الباب، وقال (مازحًا):

- ستكونين زوجتي، ويجب أن تتعوّدي على الاحترام، والتّبجيل، الذي يليق بزوجة رجل الأعمال، تفضّلي يا مولاتي.

وقام بإمساك يدها، ثمّ انحنى لها، مرحّبًا بها، لتدخل للقصر الذي ينتظرها، فلم تتمالك جنّات نفسها، من الضّحك، وقالت:

- مجنون.

ودخلا، أين كان هناك الكثير من الشّباب، والبنات يرقصون على أنغام تلك الموسيقى الصّاخبة، التي وصلت لآخر الشارع، نظرت جنّات حولها، مستغربة من هذه الأجواء الخياليّة، ومن تلك الأضواء الملوّنة، التي تتماوج في كلّ الاتّجاهات، تمامًا كأمواج البحر، التي

تتأثّر بالقمر، فتحدث المدّ، والجزر، تلك الأضواء التي تفاعلت، مع الموسيقى، ممّا جعل أولئك الشّباب كالمجانين، يصرخون، ويلوّحون بأيديهم، تردّدت في البداية، فاكتفت بالنّظر لأولئك المجانين، أمّا عادل فقد دخل في وسطهم، وبدأ بالصّهيل كحصانٍ أهوج، كان يصدر أصواتًا، تنمّ عن قلّة ذوقه، يحثّ بواسطتها الشّباب، على الصّراخ أكثر:

- ما بكم يا شباب، مالي أراكُم كسالى؟ السّهرة في أوّلها، دعونا نمرح، ونغنّي، ونرقص، اضحكوا للحياة، لتضحك لكم.

فبدأت الأصوات تتعالى، بفعل تلك الكلمات الحماسيّة، التي قالها عادل، فهاج الشّباب، وماجوا يمينًا، ويسارًا، وتعالت الضّحكات، في كلّ مكان، نظر عادل في هذه الأثناء خلفه، يبحث عن جنّات، فوجدها متسمّرة في مكانها، لا تبرحه، وقد اتّسعت عيناها، من هذا الهرج، فأسرع باتّجاهها، وقال (متسائلًا):

- ما زلتِ هنا؟ هيّا لنرقص..

فسحبت جنّات يدها للخلف، وقالت:

- هل أنت جادٌّ يا عادل؟ أيُعقل أن أرقص مع أولئك المجانين؟

- مجانين؟ أتعلمين بأنّ كلّ الشّباب، والبنات هنا، من عليّة القوم؟ كلّهم أبناء رجال أعمال، وشخصيّات لها ثقل، ثمّ ماذا كنتِ تعتقدين؟ أن نسهر في مطعم، أو كافتيريا؟ هيّا أسرعي ولا تُضحكي علينا النّاس.

- النّاس؟ وأين هم أولئك النّاس؟ أنا لا أرى إلّا شلّة من المدمنين.

- وماذا تقترحين الآن؟ أتريدين العودة، من حيث أتيت؟ ليكن في علمك.. إن أرجعتكِ الآن، فلا أريد رؤيتكِ مرّة أخرى، أتفهمين؟

عاد عادل للرّقص، متجاهلًا جنّات، التي تقدّمت بخطى متثاقلة، لتجلس بجانب بعض البنات، اللّواتي كنّ جالسات، بالقرب من شابّ، وهنّ يتلفّظن بمختلف السّباب، كان كلامهنّ بذيئًا يصحبه ضحك، تتناوبن في إطلاقه، الواحدة تلو الأخرى، جلست جنّات، على طرف الأريكة، محاولة تحاشي تلك الشّلّة، التي على ما يبدو، بأنّها ليست أحسن حالًا من الشّلّة الأخرى، التي ترقص، نظرت لواحدة من البنات، فوجدتها تمسك الشّيشة، معلنة الحرب عليها، فتأخذ نفسًا، لتخرجه بعد ثوانٍ من صدرها، ليتصاعد دخانًا كثيفًا، في أوّله، ولكنّه ما يلبث أن يضمحلّ شيئًا فشيئًا، كلّما تصاعد للأعلى، إلى أن يتلاشى تمامًا، ثمّ تعود لتكرار نفس العمليّة، تلك السّلاسة، التي كانت تتعامل بها، مع الشّيشة، تبيّن بأنّ لها علاقة وطيدة معها، منذ زمن بعيد.

كانت البنت تصدر بالإضافة لذلك، ضحكات متقطّعة، من حين لآخر، بسبب النّكت البذيئة، التي كانت تقصّها إحداهنّ، فتضحك معها معظم الفتيات، أمّا الشّاب فقد أخذ سيجارة ليدخّنها، بصراحة لم تكن مجرّد سيجارة عادية، كتلك التي تباع في المحلّات، بل جهّزها، في تلك اللّحظة، وذلك بأن وضع شيئًا كالعشب، لونه يميل للأخضر، في ورقة، ولفّها لتصبح كالسّيجارة، ولم يكتفِ بهذا فحسب، بل لفّ الكثير من السّجائر، ليقدّمها لبعض البنات، اللّواتي يجلسن إلى جانبه،

نظرت جنّات إليه بطرف عينها، وهي مستغربة، ممّا تراه لأوّل مرّة، وخائفة في الآن نفسه، من هذه الأشكال الغريبة، التي تتعرّف عليها للتّو، ويبدو بأنّها آخر مرّة، فقد قرّرت أخيرًا القيام، للعودة للبيت، قبل أن تقاطعها واحدة من البنات، كانت تجلس بجانبها، فقالت:

- وأنتِ يا حُلوة، ألا تريدين أن تعرّفينا عن نفسك؟

- أنا جنّات صديقة عادل.

- أممم جميل، أتعلمين يا جنّات، هذه أوّل مرّة يختار عادل فتاة جميلة، فهو في العادة منعدم الذّوق.

قالت البنت كلامها، وضحكت، لتضحك معها إحدى البنات، قبل أن تعود للحديث مرّة أخرى:

- أتريدين أن نلفّ لكِ سيجارة، لتعدّلي بها مزاجك؟

- أ.. أأأ.. كلّا.. شكرًا.. أنا لا أدخّن.

قالت جنّات، وقد بدا عليها الإحراج، والخوف، فقالت البنت:

- وماذا تفعلين هنا يا حلوة؟ لا تدخّنين، ولا ترقصين، ولا تفعلين أيّ شيء، سوى الجلوس على حافّة الأريكة، وكأنّكِ خائفة منّا.. لن نأكلك يا بنت.

فقالت الأخرى:

- دعيها، فعلى ما يبدو بأنّها المرّة الأولى لها هنا، إنّها تظنّ نفسها جالسة في المدرسة.

وضحكت، فتعالت الضّحكات، من كلّ اتّجاه، ممّا أثار اشمئزاز جنّات، ولكنّها حاولت السّيطرة على مشاعرها.. قالت أخرى:

- كلّنا كنّا مثلها في البداية، دخلنا أوّل مرّة، ونحن لا نعرف شيئًا، عن هذا العالم، وكنّا نعتقد بأنّها أوّل، وآخر مرّة، ولكن كما ترين، تعوّدنا على المكان، وأحببناه.

وعادت للضّحك، وضحك معها الباقي، وقد حمل بعضهنّ كؤوس الخمر، ثمّ قالت إحداهنّ:

- اشربن نخب هذه البنت، صحيح، ما هو اسمك؟ أوه، تذكّرت، اشربن نخب جنّات، فهي ستكون رفيقتنا، التي لن تفارقنا أبدًا.

وهنا قامت جنّات من مكانها غاضبة، واتّجهت لعادل، الذي كان يرقص، ويصرخ بأعلى صوته، وطلبت منه بأن يرجعها، على الفور، فما كان منه إلّا أن هدّأها، وأخذها من يدها، أين جلسا مع مجموعة أخرى، كانت في الصّالون، ثمّ قال:

- ما الذي جرى لكِ فجأة؟

- لقد أخبرتك سابقًا، بأنّني أكره الأماكن المشبوهة.

- حسنٌ، اشربي من هذا النّبيذ، الذي سيجعلكِ تنسجمين معنا.

- لا أحبّ المسكّرات.

- إذًا خذي هذه السّيجارة، وستشعرين بسعادة، تجعلكِ تسافرين إلى عالم الأحلام، وأنتِ مستيقظة.

- قلت لك لا أريد.

- حسنٌ.. انتظري هنا، ريثمَا أعود.

سار عادل للمطبخ، أين كان هناك مجموعة من الخدم، يحضّرون مختلف المشروبات، ليقدّموها للضّيوف، فطلب من أحدهم، بأن يقدّم له كأسًا من العصير، وهو ما تمّ بالفعل، أين أمسك الكأس، وأخرج من جيبه علبة بها أقراص، تشبه الأقراص، التي تُقدّم لمن يعاني الصّداع، ولكنّها لم تكن كذلك، بل كانت نوعًا من المخدّرات، ثمّ أخذ قرصًا، ووضعه في الكأس، وقام بخلطه جيّدًا، حتّى ذاب في العصير، وخرج من المطبخ، متّجهًا لجنّات، وقال لها:

- الآن.. ليس لكِ أيّ حجّة، خذي، لتشربي هذا العصير الطّبيعي، إذْ ليس من المعقول، بألّا تشربي شيئًا.

فانطلت الحيلة عليها، وأخذت الكأس، ظنًّا منها أنّه مجرّد عصير، لكنّها ومع هذا، ظلّت ممسكة بالكأس لدقائق، دون أن تشرب، وكأنّ هاجسًا ما بداخلها منعها من ذلك، فنظر عادل لها، وقال (مستغربًا):

- ألن تشربي؟ أم تراكِ تخافين أن أضع لكِ شيئًا، في العصير أيضًا؟

ثمّ ضحك بطريقة مفتعلة، ليثبت بأنّه غير مكترث، سواء شربت، أم لا، فشعرت جنّات بالخجل منه، وكأنّه قد علم ما يجول في خاطرها، من هواجس، فأخذت الكأس، وقالت (وهي تضحك):

- لا، أبدًا، كنتُ أفكّر في أنّه يجب عليّ العودة، بعد ساعة للبيت، هذا كلّ ما في الأمر.

ثمّ سكتت، وسكت عادل، محاولًا إظهار عدم اهتمامه بكلامها، أمّا هي فقد شربت القليل من العصير، الذي بيدها، وهي تنظر لأولئك المجانين، الذين كانوا يضحكون، ويصرخون بكلّ ما أوتوا من قوّة، سرحت بخيالها بعيدًا، وهي تنظر لهذا الجمع الغفير، الذي يبدو بأنّه سئم من العالم الخارجي، لدرجة أنّه خلق عالمًا خاصًّا به، عالمٌ يخرجه من تلك الدّائرة الضّيّقة للحياة، وروتينها القاتل، بمشاكلها، وهمومها، ومساوئها، تُرى ما الذي جعلهم يقبلون على المخدّرات، والمسكّرات بأنواعها، ما الذي جعلهم يسأمون، من حياتهم العادية؟ بل ويطلّقونها بالثّلاثة، ليتّجهوا لهذا العالم، وهم شبه مغيّبين، هذا إن لم نقل مغيّبين.

أهي المشاكل العائليّة؟ بالرّغم من أنّهم من عائلات راقية، كما قال عادل، أو هكذا يبدو عليهم، كيف هو شعورهم حين يتعاطون هذه الأشياء، التي تجعلهم مغيّبين عن الواقع؟ تُرى هل غيابهم عن الواقع، شعورٌ جميل أم العكس؟ كانت هذه كلّها تساؤلات، وحديثٌ لجنّات، مع نفسها، وهي تنظر لأولئك الشّباب، الذين لم تعرف إن كان عليها أن تشفق عليهم، أم تغبطهم على سعادتهم الدّائمة، التي لا يمكن أن يزعزعها أيّ شيء، كانت في هذه الأثناء تشرب العصير، حتّى أكملته عن آخره، دون أن تشعر، ولم تنتبه لانتهائه، إلّا حينما أخذت رشفة أخرى، وهنا اكتشفت بأنّ الكأس فارغ، وفي المقابل كان عادل ينظر لها بطرف عين، ولكنّه حاول أن يتصرّف بلامبالاة، حتّى لا تشكّ فيه،

ثمّ قام من مكانه بعدها، قاصدًا الحمّام، وحين دخل، أخذ يتأكّد من خلوّه، من أيّ أحد، وأخرج هاتفه، ليتّصل بشخصٍ ما:

- ألو..

- ألو.. هاه؟ ما الأخبار؟

- لا تخف سيّدي، لقد فعلتُ ما طلبته منّي، في البداية لم أستطع إقناعها، ولكنّني اهتديتُ لحيلة جميلة آخر الأمر، لقد وضعتُ لها قرصًا في العصير، وما هي إلّا ثواني، وسيبدأ مفعول الدّواء.

- جميل، أحسنت.

- أستأذن منك سيّدي، عليّ الذّهاب.

- حسنٌ.. إن طرأ أيّ جديد، اتّصل بي.

وعاد أدراجه، ليجلس مع جنّات، التي كانت ما تزال في مكانها، وتنظر لتلك الجموع، التي تتراقص، وتتمايل بفعل تلك المواد، التي تغلغلت في أجسادهم، لتنقلهم لعوالم أخرى، بدأت قواهم تخور، وتفتر أخيرًا، والصّياح يتناقص تدريجيًّا، فقام عادل، ليمسك بجنّات، وقال:

- هيّا بنا نرقص.

فلم تجد جنّات بُدًّا من المقاومة، فقد وضعها في الأمر الواقع، حين سحب يدها، بسرعة خاطفة، لتجد نفسها وسط تلك الجموع، ليعود للصّراخ، والغناء، محاوِلًا إثارة الحماس، في نفوس الشّباب، مرّت لحظات، وجنّات ترقص مجامِلة له، إلى أن شعرت بصداع خفيف، ودوار بدأ بسيطًا، ولكنّه سرعان ما زاد عن الأوّل، ليصبح أقوى بكثير،

وضعت جنّات يدها على رأسها، بينما كانت تنظر في كلّ الاتّجاهات، أين بدأ كلّ شيء يتحرّك من حولها، وأخذت الصّور تتداخل فيما بينها، ثمّ تثاقلت حركة الأشخاص، عن ذي قبل، ومع هذا فقد ظلّت جنّات تحاول جاهدة، الحفاظ على توازنها، وتوقّفت عن الرّقص، أين حاولت سحب جسمها، عن هذه الدّائرة المشؤومة، والمكوّنة من كتل بشريّة، متراصّة مع بعضها، بدون أيّ معنى، انتبه عادل لجنّات أخيرًا، فاقترب منها، ثمّ قال لها:

- هل من خطب؟

- أحسّ بدوار شديد.. ولا أستطيع التّحكّم في جسمي.

- حسنٌ، تعالي، لتجلسي، لعلّكِ ترتاحين قليلًا.

وأخذها من يدها، ليجلسا، أين كانا جالسيْن من قبل، وأحضر لها القليل من الماء، لتشربه.. قالت بعد ذلك:

- عليّ العودة للمنزل حالًا.

- ولكن ليس قبل أن ترتاحي.

- كلّا.. لن أنتظر ثانية واحدة، فأنت لا تعرف أبي، لو تأخّرتُ وعلم بأمري، فسيقتلنا نحن الاثنين.

فأحسّ عادل بالارتباك، لقد خاف، حين أحسّ بأنّه من الممكن أن يُفتضح أمره.

- تُرى ماذا يمكن أن يفعل أبوها، إن علم بأنّني أحاول تنفيذ خطط شخص ما، يريد الانتقام من أبنائه، وخصوصًا جنّات؟

قال عادل لنفسه، ثمّ قام من مكانه فورًا، ليمسك بجنّات، التي كانت تحاول النّهوض، ولكنّها لم تستطع لذلك سبيلًا، فالدّوار أصبح أقوى ممّا كان، أخذها، ليخرجا أخيرًا، وانطلق بسرعة، بعد أن وضعها في السّيّارة بالكاد، وهو لا يفكّر إلّا فيما يمكن أن يفعله أبي به، إن هو علم بتواطؤه مع أشخاص آخرين لتدميره، وتدمير عائلته برُمّتها، وخاصّة أنّه قد سمع عنه الكثير من القصص، منها الحقيقي، والأسطوري الذي اختلقه البعض، ممّن لم تكن لهم صلة بأبي، فقد كانوا يسمعون عنه الكثير، ويحرّفون ما سمعوه، إمّا سهوًا، وإمّا لحبّهم للتّأليف، والخيال.

- ويحك يا عادل، ماذا صنعت بنفسك؟

- هل تكلّمني؟

قالت جنّات، وهي تضع يدها اليمنى على رأسها، وتضغط بالثّانية على جبينها، لعلّها تخفّف من الصّداع، فأجابها عادل، الذي نسي وجودها للحظة:

- أ..أأ ..كلّا.. لا شيء.

وصل للمنزل أخيرًا، وقام بمساعدتها على النّزول، ثمّ قال لها:

- هل يمكنكِ الدّخول بمفردك؟

- لا أظنّ ذلك.. فأنا أحسّ بأنّ الأرض كلّها تتحرّك.

- حسنٌ.. سأساعدك على فتح الباب.

فتح عادل الباب الخارجي، بعدما أعطته جنّات المفاتيح، وأدخلها لفناء المنزل، ليواصلا السّير، إلى أن وصلا للباب الدّاخلي، أين فتحه أيضًا، ثمّ دخلا للدّاخل.. أخذ عادل ينظر للمنزل، منبهرًا بجماله:

- يا سلام.. ما هذا المنزل الجميل؟ وكأنّه تحفة فنّية نادرة، لِما لم تخبريني من قبل، بأنّكِ تعيشين في قصر؟ صحيح.. أين هي غرفتك؟

فأشارت جنّات إلى فوق، فاتّجه بها إلى حيث أشارت، وبعد أن أوصلها لغرفتها، أجلسها على السّرير، ثمّ ساعدها على نزع حذائها، وطلب منها أن تنام، لترتاح، ثمّ خرج من الغرفة، وأغلقها عليها، أين همّ بالرّحيل، ولكنّه تراجع في آخر لحظة، فقد فكّر في أمر لم يخطر له، قبل دخوله للبيت، قال في نفسه:

- لقد أخبرتني جنّات بأنّ أباها، وأخاها ليسا في المنزل اليوم، وأنّ أمّها لوحدها، وبما أنّها قد وضعت لها المنوّم في العصير، فلِما لا ألقي نظرة خاطفة على البيت، لعلّي أجد شيئًا مفيدًا هنا، أو هناك؟ ولكن من أين أبدأ؟ حسنٌ.. سأبدأ بهذه الغرفة، ثمّ أنتقل إلى الثّانية.

أشار عادل للغرفة، المقابلة لغرفة جنّات، وتقدّم ناحيتها، وأمسك بمقبض الباب، محاوِلًا فتحه، ولكن دون جدوى..

- أوه، اللّعنة..

نظر خلفه، بعدما عجز على فتح الباب، وبالضّبط للغرفة المحاذية لغرفة جنّات، فاتّجه إليها، وما إن أمسك بالمقبض حتّى انفتح الباب، فتقدّم، وهو يُمنّي نفسه، بصيد ثمين (قائلًا):

- آمل أن أجد بعض المال هنا.

وأخذ ينظر في أرجاء الغرفة، لمدّة من الزّمن، أين لاحظ بأنّها تحتوي على سرير، لشخص واحد، وبجانبه قطعة خشبيّة، أو ما يطلق عليها (بعسكريّ غرفة النّوم)، مكوّنة من دُرجين، عليها كأس، وقارورة للماء، بالإضافة لخزانة، في الجهة المقابلة للباب، فاقترب من القطعة الخشبيّة، وفتح الدُّرج الأوّل، فلم يجد شيئًا له قيمة، بل مجرّد أوراق شخصيّة، وبطاقة تعريفٍ لهاني، فقال عادل لنفسه:

- هذه غرفة هاني إذًا؟ وأنت هاني أخوها.. لا أعرف لِما أحسّ بأنّي قد رأيته من قبل، ولكن أين، لا أعلم؟ ربّما أكون قد لمحته في الجامعة.

أعاد الأوراق والبطاقة مكانها، وأغلق الدّرج، واتّجه ناحية الخزانة، أين تأمّلها مليًّا، فهي خزانة من الخشب الرّفيع، كبيرة الحجم، اقترب من الباب الأوّل، على اليمين، وفتحه، ثمّ ألقى نظرة على ما فيه، فوجد الكثير من الثّياب، فقال:

- يا سلام، ما هذه الثّياب الجميلة؟ يبدو بأنّها غاليةٌ جدًّا.

وأخذ ينظر للثّياب، مركّزًا فيها بإمعان، ثمّ قال:

- أممم.. ماركاتٌ عالميّة أيضًا، صدق من قال بأنّ الدّنيا حظوظ.

وقلّب تلك الثّياب، لعلّه يجد بعض المال، صال وجال بين رفوف الباب الأوّل، ولكنّه لم يجد شيئًا، فقال (ساخطًا):

- يعيشون في قصور، وليس لديهم أموال، ما هذا البخل؟

وأغلق الباب، لينتقل للأوسط، ففتحه، ليلقيَ نظرة عليه، كما فعل مع الأوّل، فلم يجد سوى بعض الأطقم الرّجالية غالية الثّمن، بحث في جيوبها، فلم يجد شيئًا، فأغلق الباب مجدّدًا، وهو يتأفّف، ويندب حظّه العاثر، ولكنّه رغم ذلك لم ييأس ، ثمّ نظر لآخر باب، اقترب منه، وفتحه، فوجد أحذية، وملابس رياضية، بحث في الرّف الأعلى، فوجد مبلغًا، قدرُه ستّون ألف دينار، أخذه وهو يحمد الله على عطائه، وأغلق الباب، ثمّ خرج من الغرفة بهدوء، بعدما أغلق بابها، حتّى لا يشكّ أحد، ونظر للغرفة المقابلة، فوجد بابها مفتوحًا قليلًا، اقترب بحذر، ودفعه إلى الأمام قليلًا، فرأى امرأة نائمة على السّرير.. قال لنفسه:

- إنّها أمّ جنّات..

واقترب منها، أين وجدها تغطّ في نوم عميق، ففرح، وقال:

- يبدو أنّها ما زالت تحت تأثير الدّواء، عليّ أن أبحث جيّدًا، فغرفة الأمّ، تعني غرفة صاحب المنزل، من المؤكّد بأنّهم يحتفظون بأشياء قيّمة هنا، أو على الأقلّ بعض المجوهرات.

بدأ الشّاب البحثَ بكلّ أريحيّة، وحين لم يجد شيئًا ذا قيمة، في أرجاء الغرفة، انتقل للخزانة، وقام بفتح أحد أبوابها، وأخذ يفتّش بعناية، وكأنّه قد أحسّ بأنّه لن يخرج خائبًا، انتقل للباب الآخر، فوجد صندوقًا صغيرًا، قام بفتحه، وكم تفاجأ، حين وجده مليئًا بالمجوهرات، فتراجع للوراء، من هذه المفاجأة، وهو ما جعله يوقع بعضًا منها، ممّا أحدث فوضى بالغرفة، فالتفت على صوت أمّ جنّات، التي حاولت أن تستيقظ،

ولكنّها لم تستطع، يبدو بأنّ جنّات لم تضع الجرعة المطلوبة فقط، بل زادت عليها قليلًا، لخوفها من دخول أحدٍ عليها، فيكشف أمرها، توقّف عادل للحظات، ينظر ما يمكن أن تفعله الأمّ، وكم فرح حين عادت، لتغطّ في نوم عميق، فجمع ما سقط من مجوهرات، ووضعها في كيس، وجده فوق المائدة، وسحب نفسه للوراء، بعدما لفّ الكيس جيّدًا، ثمّ أغلق باب الخزانة، وخرج من الغرفة، وأغلق الباب، وحين همّ بالنّزول أخيرًا، تفاجأ بالخادمة تنادي من الأسفل، وقد رفعت رأسها نحو الطّابق الثّاني، كانت تريد معرفة مصدر الأصوات، لأنّ عادل لم يكن منتبهًا لنفسه، حين كان يبحث، فكان يسقط بعض الأشياء مرّة، أو يغلق باب الخزانة بقوّة، دون أن يشعر، فقد كان يعتقد بأنّ المنزل فارغ، إلّا من جنّات، وأمّها، وهو ما جعله يبحث بكلّ أريحيّة، كادت الخادمة أن تراه، وهو ينزل، لولا أنّه اكتشف أمرها، في آخر لحظة، وهو ما جعله يعود أدراجه لفوق، محاولًا المشي، بمحاذاة الحائط، وأخيرًا اختبأ في غرفة جنّات، وأغلق الباب على نفسه، كانت الخادمة في هذه الأثناء قد صعدت لفوق، لتتأكّد بنفسها، فنظرت هنا، وهناك، فلم تجد شيئًا، ثمّ اتّجهت لغرفة أمّ جنّات، وأخذت تنادي:

- سيّدتي.. هل أنتِ نائمة؟

اقتربت أكثر حين لم تسمع جوابًا، ودقّت الباب، وانتظرت قليلًا، وبعدها فتحت الباب، وعادت لتناديَ مرّة أخرى:

- سيّدتي، هل أنتِ بخير؟

وعادت لتغلق الباب مجدّدًا، ونزلت للطّابق الأرضي، حين وجدت بأنّ كلّ شيء على ما يرام، أمّا عادل فقد تنفّس الصّعداء أخيرًا، فخرج من الغرفة، ونزل للطّابق الأرضي بحذر، وأخذ ينظر هنا، وهناك، وحين اطمأنّ خرج بهدوء، وهو يخفي الكيس داخل سترته.

***

اجتمعنا حول مائدة الغداء، أين شرع أبي في إلقاء محاضراته، كما يفعل في كلّ مرّة، يجتمع فيها معنا، فهو لا يتناول وجبتيْ الغداء، والعشاء معنا دائمًا، نظرًا لمشاريعه الكثيرة، أو لغداء عملٍ يجمعه بكبار رجال الأعمال، داخل البلد، أو خارجه، فهو كثيرًا ما يجامل شركاءه.. بدأ حديثه مع نريمان (قائلًا):

- ما هي أخبارك مع الدّراسة؟

فأجابته (وقد بدا عليها بعض التّوتّر):

- كلّ شيء على ما يرام.

- جيّد.. ما هي إلّا سنة وتنهين دراستك، وستجدين وظيفة جميلة تنتظرك، فأنتِ آخر العنقود.

ثمّ ابتسم، فحاولت إخفاء توتّرها، بتلك الابتسامة، التي تعوّدت أن تلجأ إليها، كلّما أحسّت بالخوف، حين أنهى أبي نصائحه لنريمان، التفت إليّ ليسألني، ولكن بجديّة هذه المرّة، لتختفيَ تلك الابتسامة، وذلك بأن قطّب حاجبيه، ثمّ قال:

- وأنت.. ألم يحن الوقت بعد، لتصالح زوجتك، وتعيدها للبيت؟

- أوه.. سأزورها في الأيّام القادمة، إن شاء الله.

بصراحة.. لا أعرف لِما لم أخبره، بأنّي قد تحدّثتُ إليها في الأيّام الماضية، ورفضتْ الرّجوع، ربّما لأنّني سئمتُ الكلام، لمجرّد الكلام، فلم يعد يهمّني أيّ موضوع، في هذه الحياة، نظر لي مليًّا، ثمّ قال:

- حاول معها يا بنيّ، ولا تيأس من المحاولة، فأنت تعرف النّساء، هنّ يعشقن لعب دور الضّحيّة دائمًا، بل ويُجدن الدّور بامتياز.

وضحك.. ثمّ أخذ قطعة جبن، ليأكلها، أمّا أنا فقلت له:

- أعدك بأنّني سأحاول، حين أجد الفرصة سانحة لذلك.

وعاد ليلتفت لفلّة، التي وضعت الشّوكة في فم ابنها، بعدما غرزتها في قطعة صغيرة من اللّحم، وقالت (موبّخة إيّاه):

- ألن تتعلّم كيف تمضغ، في كلّ مرّة أعطيك قطعة، إلّا وتسقط نصفها في الأرض، قبل أن تضعها في فمك.

- ألم يتّصل بكِ زوجك، في الأيّام الماضية؟

قال أبي لفلّة، فأجابته (بعصبيّة):

- أنت تعرف رأيي يا أبي.. لم أعد أريد الخوض في الموضوع.

***

- إنّه وقت الغداء، ولم يقم أحدٌ من نومه بعد.. ما العمل؟

تقول الخادمة، وهي تحدّث نفسها، بعدما أعدّت الغداء.. أخذت صينيّة، فيها إبريق قهوة، وفنجان، واتّجهت للحارس، الذي كان يغطّ في نوم عميق، لأوّل مرّة في حياته، وقالت له:

- عمّي جلال؟ استيقظ.. إنّها الحادية عشرة والنّصف.

فاستيقظ الحارس فزعًا، وقال:

- هاه؟؟ ماذا قلت؟

- قلت لك استيقظ.

- ولكن أين أنا؟

نظر الحارس حوله، وكأنّه يحاول أن يتذكّر آخر شيء، قام به، قبل أن ينام، ثمّ عاد للنّظر لساعته، مستغربًا من نومه، لهذا الوقت المتأخّر:

- كلّ هذا الوقت، وأنا نائم؟

- خُذ هذه القهوة.. لعلّك تصحو.

فأخذ الصّينيّة منها، ووضعها جانبًا، واتّجه ليغسل وجهه، وبعدها ذهب، ليفتح الباب الخارجي للمنزل، وإذْ به يجده مفتوحًا، فاستغرب من ذلك، ثمّ قال:

- غريب؟ لقد أغلقته البارحة بالمفتاح، فمن فتحه بعدي، مع العلم أنّني كنت هنا، ولم أبرح مكاني؟

وفتح الباب على مصراعيه، وعاد أدراجه، وهو مستغرب ممّا حصل اليوم، فليس من عادته النّوم لهذا الوقت، كانت الخادمة في هذه الأثناء قد أخذت صينيّة أخرى، فيها كأسٌ من العصير، وقطعٌ من الحلوى، وصعدت لغرفة زوجة أبي، وبعدما دقّت الباب، استأذنت لتدخل، وتجد أمّ جنّات قد استيقظت للتّو، إثر سماعها لصوت الخادمة، القادم من خلف الباب، وهي تستأذن بالدّخول، فقالت لها:

- سيّدتي.. لقد أحضرت لكِ العصير، هل أنتِ بخير؟
- أجل.. تفضّلي.
- صباح الخير.
- صباح الخير.. ضعي هذه الصّينيّة فوق تلك المائدة.

وقامت وهي تتثاءب، واضعة يدها على فمها، ودخلت إلى الحمّام بعدها، وبقيت فيه للحظات، قبل أن تخرج مجدّدًا، لتشرب القليل من العصير، ثمّ نظرت للكأس، الذي بين يديها، وقالت:

- لقد نمتُ البارحة نومًا عميقًا، لدرجة أنّني لم أدرِ بما حولي، وكان آخر شخص رأيته قبل النّوم هو جنّات، التي ناولتني كوبًا من العصير، ثمّ لم أعد أتذكّر ما حصل بعدها، على الأغلب أنّني كنت نائمة، صحيح، هل هي هنا؟
- من تقصدين، جنّات؟ أجل، إنّها لا تزال نائمة.
- غريب.. ليس من عادتها النّوم لهذه السّاعة، أليس لديها محاضرة الآن؟

نظرت الخادمة لها، وكأنّها تريد أن تقول شيئًا، ولكنّها تراجعت عن ذلك.. وهنا لمحتها زوجة أبي، التي قالت (مستغربة):

- ما بك؟ هل تريدين أن تقولي شيئًا؟
- أوه.. لا.. لا، أبدًا.

- أتعلمين؟ رأيتُ حلمًا مزعجًا البارحة، رأيت بأنّ لصًّا دخل للغرفة، وفتح الخزانة، ليسرق أيّ شيء له قيمة، شعرتُ وكأنّه حقيقة، إنّه حلمٌ غريبٌ حقًّا!

فنظرت الخادمة لها، وقد اتّسعت عيناها، وطفقت تسترجع بعض الذي حصل البارحة، فقالت في نفسها:

- هل ما سمعته البارحة صحيح؟ أيُعقل أن يدخل لصٌّ للمنزل؟ هل عليّ أن أخبرها، بما سمعته البارحة؟ ولكنّني لست متأكّدة.. لا.. لن أقلقها.. فهذه مجرّد هواجس.

- أين سرحتِ بأفكارك؟

قالت أمّ جنّات مستغربة، فردّت عليها الخادمة:

- أوه.. أنا أسمعكِ سيّدتي.. لقد تأثّرتُ بالحلم فقط، ليس إلّا..

- حسنٌ، اذهبي لتوقظي جنّات، وحضّري الغداء، أحسّ بالجوع.

خرجت الخادمة، لتتّجه لغرفة جنّات، التي وجدتها نائمة أيضًا، ولكنّ ما أثار دهشتها، هو أنّها وجدتها نائمة بثياب السّهرة، فقالت:

- سيّدتي.. استيقظي.

ولكنّ جنّات لم تستيقظ، ما زاد من شكّ الخادمة، فتقدّمت لتضع يدها على كتف جنّات، ثمّ عادت للكلام:

- سيّدتي.. هل أنتِ بخير؟

وهنا قامت جنّات فزعة هي الأخرى، ثمّ قالت:

- أين أنا؟ ماذا؟ هل انتهت السّهرة؟

- عن أيّ سهرة تتحدّثين سيّدتي؟

- أوه.. هذه أنت؟ حسنٌ.

نظرت جنّات هنا، وهناك، لتجد نفسها نائمة في غرفتها، ونظرت لنفسها، فوجدت بأنّها لا تزال مرتدية ثياب السّهرة، فأخذت تتذكّر ما حصل لها البارحة:

- أنا في البيت، إذًا من أحضرني إلى هنا البارحة؟ يبدو بأنّه عادل..

وقبل أن تكمل، التفتت نحو الخادمة، لتجدها تنظر لها مستغربة، فحاولت أن تتدارك الموضوع، لأنّها تعرفها فضوليّة جدًّا، لدرجة أنّها من الممكن أن تخبر أمّها، بكلّ ما تراه عيناها، فهي كالجاسوس، الذي لن يتردّد في أن ينقل كلّ صغيرة، وكبيرة، تحدث في هذا المنزل، باختصار هي العين، التي تستعملها أمّها داخل المنزل.. قالت (وهي تبتسم):

- أعلم بأنّكِ مستغربة من منظري.. لقد كنتُ أجرّب ثيابي البارحة، وجلستُ لأتصفّح هاتفي، ونسيت بأنّني أرتدي ثياب السّهرة، فغلبني النّعاس، ونمت.. أحضري لي القهوة رجاءً.

- حاضر سيّدتي.. ثواني، وأجهّز لكِ القهوة.

***

عادت لبنى، لتستأنف العمل من جديد، بعد فترة من الغياب، لقد أحسستُ بفرحة غامرة، حين رأيتُها في المستشفى، لم أدر سبب هذا الفرح، الذي أحسستُ به، قد يكون نابعًا من شعوري بالشّفقة، أو لعلّه إحساسي بتأنيب الضّمير، على ذنبٍ لستُ المسؤول المباشر فيه، هو

الذي جعلني أُسرُّ برؤيتها، كانت تمشي في الرّواق، مع زميلتها، حين التقت نظراتنا صدفة، شعرتُ بذلك الوميض، الذي كنت أراه في عينيها دائمًا، حين تراني، وبمجرّد أن اقتربتُ منهما حتّى استأذنتها زميلتها، تاركة إيّاها معي، بعدما ألقت عليّ السّلام، ربّما لمعرفتها بمشاعر لبنى حيالي، وهنا اقتربتُ لأسلّم على هذه الأخيرة:

- كيف حالك دكتورة لبنى؟

- بخير.. وأنت كيف حالك؟

- بخير.. أشكرك، لقد أخبروني بأنّكِ استأنفتِ عملك.

- أجل، اليوم فقط بدأتُ الشّغل.. لن تصدّقني إن قلتُ لك، بأنّني قد اشتقتُ لهذا المستشفى كثيرًا، فهو أوّل مكانٍ تمّ تعييني فيه.

- أعرف شعوركِ جيّدًا.

أخذت لبنى تتكلّم بتأثّر، وهي تصف لي شعورها حيال المشفى، وذكرياتها فيه، تركتُها تستسلم لمشاعرها، وتحكي كلّ ما تريده، أمّا أنا فاكتفيتُ بتأمّلها لأوّل مرّة، كنت أتأمّل وجهها الملائكي البريء، الذي يشعّ بالنّور، بالرّغم من التّعب، والإرهاق الباديين عليه، لأوّل مرّة أسمح لنفسي بالتّطفّل، لأتأمّل وجهها وحركاتها، وكلماتها التي تصدر من ذاك الصّوت الأجشّ، والمليء بالحسرة، خانتها عبراتها، التي نزلت بدون استئذان، وعبثًا حاولتْ التّحكّم في مشاعرها.. أحسستُ حينها بألمٍ شديد يخترق صدري، لم أعرف ما عليّ فعله، وأنا أراها تبكي لأوّل مرّة أمامي، ولا أستطيع لها شيئًا، انعقد لساني في تلك اللّحظة، فاكتفيتُ

بالصّمت، قبل أن أقرّر كسر ذاك الجوّ المأساوي بابتسامة، تعمّدتُ أن أفتعلها، أمامها فقط، بالرّغم من الألم الذي أحسّه نحوها، لأطرح عليها سؤالًا، تعمّدتُ أن يبدوَ ساذجًا، حتّى لا أجعلها تحسّ بأنّني على علم، بكلّ ما يحصل لها، فقلت:

- ما بك يا لبنى؟ هل ستغادرين هذا المستشفى، دون أن تخبرينَا؟

فقالت (وهي تمسح دموعها):

- كلّا.. لقد تأثّرتُ قليلًا، ليس إلّا..

وابتسمتْ، لتخفيَ ما بداخلها، قبل أن تستأذن، أمّا أنا فقد بقيتُ في مكاني، شارد الذّهن تمامًا، لأسمع صوتًا خلفي، يقول:

- ما بك يا حامد؟ لِما تقف هكذا؟ أليس لديك شغل؟

فالتفتُّ ورائي، لأجد نور ترمقني، بنظراتٍ مليئة بالعتاب، والرّيبة، فأجبتها:

- أ.. أأ.. بلى.. كنتُ فقط..

- كنتَ تتحدّث مع لبنى، أعرف ذلك.

- أجل.. لقد كنتُ أطمئنُّ عليها، فقد غابت لمدّة عن المستشفى.

- آاه.. قلتَ لي بأنّها مريضة، وكيف حالها الآن؟ أعتقد بأنّها قد أصبحت أحسن حالًا، حين رأتك.

- ماذا؟ ما الذي تقولينه؟

وسارت مبتعدة، دون أن تضيف، أمّا أنا فقد عدتُ لمكتبي، وأنا مندهش من تصرّفها، بهذه الصّبيانيّة، التي لم أعهدها منها، حاولتُ أن

أجد تفسيرًا لتصرّفها، بهذه القسوة حيال لبنى، فلم أجد إلّا تفسيرًا واحدًا، وهو شعورها بالغيرة..

***

كان حسن يسير في شارع خال، قبل أن تقف سيّارة كبيرة الحجم أمامه، وتعترض طريقه، لينزل منها ثلاثة رجال، وهم يحملون السّلاح، فتفاجأ حسن، وتراجع خطوتين للوراء، وهو ينظر لهم مستغربًا، ولكن بالرّغم من هذا، لم يبدِ أيّ مقاومة تُذكر، اقترب الرّجال منه، في لمح البصر، وأشهروا أسلحتهم في وجهه، ليقول أحدهم بعدها:

- التقينا أخيرًا يا حسن؟ كيف حالك؟

وأشار للاثنين اللّذين معه، بأن يضعاه في السّيّارة، ولكنّ حسن لم يسكت، وأخذ يصرخ بأعلى صوته (محاولًا إنقاذ نفسه):

- اتركوني وشأني.. من أنتم؟ ماذا تريدون منّي؟

فصرخ أحدهما فيه، ونهره، وهو يدفعه للسّيّارة دفعًا، وقال:

- اخرص أيّها الأبله، ستعرف بعد قليل من نحن، وماذا نريد منك.

وانطلقت السّيّارة على جناح السّرعة، في حين أخذ أحد أولئك الرّجال، قطعة سوداء من القماش، ليضعها على عينيْ حسن، حتّى لا يعرف الطّريق، الذي يسلكونه، ثمّ ربط يديه بحبل، كان يحمله في يده، كلّ هذا والآخر يصوّب مسدّسه نحوه، لكيلا يصدر أيّ صوت، وصلت السّيّارة لمستودع، يقع خارج المدينة، تحيط به الأشجار، من كلّ الجهات، أين قام الرّجال بإنزاله من السّيّارة، ثمّ دفعوه للمستودع،

بعدما فتحه أحدهم، بينما بقيَ السّائق في السّيّارة، وقد أخرج هاتفه، وبعد أن اتّصل برقم، انتظر للحظات، حتّى ردّ الطّرف الآخر، ثمّ قال:

- ألو، سيّدي.. لقد تمّت المهمّة بنجاح.

- جيّد.. أريد منكم أن تؤدّبوه، لن أوصيكم، علّموه كيف يحترم، من هُم أعلى منه شأنًا، وقدرًا، قبل مجيئي.. هل فهمت؟

- أوامرك سيّدي.

أغلق الشّاب هاتفه، لينزل، وينضمّ لرفاقه في الدّاخل، وأشار لأحد الرّجال بأن ينزعِ القماش، من على عينَيْ حسن، الذي كان جالسًا، ولا يعرف ما الذي ينتظره، ففعل الرّجل ما طُلب منه، وعاد أدراجه، ليتقدّم السّائق من حسن، ويهمس في أذنه:

- سأعلّمك درسًا في الأخلاق.. اعذرني عمّا يمكن أن تراه الآن.

ولكمه لكمة قويّة في أنفه، فأحسّ بأنّ الأرض تتحرّك من حوله، ليصرخ بعدها صرخة مدوّية.. ثمّ تقدّم الآخر، وأمسك بناصيته، وقال:

- وهذه الهديّة لك منّي.

ولكمه مجدّدًا في خدّه، فوقع على الأرض، وهو يصرخ من فرط الألم، ليأتيَ الآخر، ويهمس مرّة أخرى في أذنه:

- نسيتُ بأن أخبرك، بأنّ السّيّد هاني يسلّم عليك.

ثمّ ركله في بطنه، هذه المرّة، فصرخ حسن بقوّة، وأخذ يقول:

- اتركوني.. اتركوني.. أرجوكم.

مضت لحظات، والرّجال يتناوبون على ضربه، في مناطق مختلفة بجسمه، حتّى وصل هاني، ودخل وخلفه الحرّاس، ونظر لحسن، الذي تكوّم كالكرة، وهو يئنّ بصوتٍ خافت، كان مظهره يوحي بمدى الألم، الذي يحسّ به، فاقترب منه، وهو يضحك، ثمّ صفّق للرّجال، وقال:

- أرى بأنّكم لم تقصّروا في غيابي.

فأجابه السّائق:

- أنت تأمر، ونحن ننفّذ.

اقترب هاني من حسن، وأمسكه من شعره، وهمس في أذنه:

- هذه المرّة سأكون لطيفًا، فقط لأنّني أشفقتُ عليك، ولكن في المرّة القادمة، سأجعل أمّك تبكي على فقدك، طوال حياتها، أفهمت؟ في المرّة القادمة لا تنظر لشيء، هو ملكٌ لأسيادك.

ثمّ دفعه بقوّة، بعدما أرخى قبضته عن شعره، والتفت لأحد رجاله بعد ذلك، وقال:

- أعيدوه لنفس المكان، الذي جلبتموه منه.

ثمّ وضع نظّاراته، وانصرف، أمّا الرّجل فقد نظر للآخرين، وقال:

- لقد سمعتم ما قاله السّيّد هاني، هيّا.. احملوه بسرعة.

***

ظلّ الصّداع ملازمًا لجنّات طيلة اليوم، فبالرّغم من تناولها لدواءٍ للصّداع، إلّا أنّ الألم لم يزل كليًّا، فقامت لتشرب بعض القهوة، لعلّها تُشفى منه.

- أليستْ لديكِ محاضراتٌ اليوم يا جنّات؟

سألتها أمّها، مستغربة عدم ذهابها للجامعة، فأجابتها جنّات:

- بلى.. ولكنّي لم أستطع الذّهاب، لأنّ رأسي يؤلمني بشدّة.

وصعدت لغرفتها مجدّدًا، واستلقت على سريرها، لترتاح، مرّت لحظات، وهي على هذا الحال، قبل أن يرنّ هاتفها، ففتحته، لترى من المتّصل، وإذْ به عادل، فقامت، وأغلقت الباب، وعادت لتقول:

- ألو..

- كيف حالك؟

- بخير.. وأنت؟

- بخير، أردتُ أن أطمئنّ عليك، فحالتكِ كانت سيّئة بالأمس.

- أوه، بصراحة لا أذكر شيئًا، ممّا حصل.. أدخلتَ معي للمنزل؟

شعر عادل بالارتباك، فاعتدل في جلوسه، وتنحنح، ثمّ قال:

- أأ..أ بصراحة لا، فتحتُ لكِ الباب فقط، بعد أن فقدتِ تركيزك، وانصرفت، بعد أن وضعتُ المفاتيح بجانب الحارس.. حتّى لا يُكتشف أمرك.. ولكن لما تسألين؟

- مجرّد سؤال، لا أكثر.. لأنّني لا أذكر شيئًا، ممّا حصل.

فعاد عادل ليستلقي مجدّدًا، بعدما اطمأنّ من أنّ أحدًا لم يكتشف دخوله للمنزل، وسرقته للمجوهرات بعد، كان يتكلّم، وهو يمسك في يده قلادة من ذهب، يقلّبها بين أصابعه، وهو يُمنّي نفسه بمالٍ وفير، بعد أن يبيعها.. عاد للحديث مجدّدًا:

- ما رأيكِ لو نعيد الكرّة، وتأتين، لتسهري معنا اليوم أيضًا؟

- أوه.. لا أظنّ ذلك يا عادل.. فرأسي يؤلمني بشدّة.

وهنا انتبه عادل لِما قالت، فقال (بفرح):

- ولكن ما بك؟ عليكِ أن تخرجي من هذه القوقعة، التي يجبركِ أهلك، على أن تظلّي فيها، سهرة اليوم ستنسيكِ هذا الصّداع.

- لا أظنّ ذلك، لقد أخذتُ للتّو دواءً للصّداع، ولم أذهب للجامعة بسببه.

- ولكن اسمعي منّي..

فقاطعته (غاضبة):

- قلتُ لك لا أريد.. ثمّ إنّي أخاف من افتضاح أمري، إن أكثرتُ من الهرب، من المنزل كلّ ليلة.

- حسنٌ، على كلّ حال، كنت أريد مصلحتك، فالانغلاق الذي أنتِ فيه، بالإضافة لاهتمامكِ الزّائد بالدّراسة، دون أيّ شيء آخر، هما السّبب في هذا الصّداع، الذي تحسّين به، لأنّكِ تحسّين باكتئاب، ممّا جعل عقلكِ يترجم هذا الاكتئاب، على شكل صداع.

- أوه.. لم أكن أعلم بأنّك عالم، في مجال الطّب، وما هي الوصفة التي تقترحها يا دكتور؟

- أتسخرين منّي؟ على كلّ حال لديّ دواءٌ يزيل الصّداع، ما رأيكِ لو أمرُّ لأعطيكِ إيّاه، وسترين كيف سيزول الصّداع.

- أوه.. لا.. ليس الآن، لقد أخذتُ الأسبرين.

- على أيّ حال، سأترككِ الآن، لديّ الكثير من المشاغل.

- حسنٌ.. إلى اللّقاء.

أغلق عادل هاتفه، واتّجه للحمّام، وبعدما قام بحلاقة ذقنه، ارتدى ثيابه، وحمل تلك القلادة، ونظر لها مليًّا، وقال موجّهًا لها الكلام:

- تعالي إلى هنا.. سنرى كم هو ثمنك، بعد قليل.

وقبّلها، ثمّ وضعها في جيبه، وخرج قاصدًا محلّات المجوهرات، سار بين الشّوارع، إلى أن قادته رجلاه لمحلّ، فنظر له مليًّا، قبل أن يقرّر الدّخول، وعزم أخيرًا، ليجد امرأة تقف عند صاحب المحلّ، تسأله عن ثلاثة خواتم احتارت بينهم، فجلس ريثما تنهي كلامها، وبعد لحظاتٍ قالت:

- حسنٌ.. سأغادر الآن، على أمل أن أعود، في أقرب وقت.

وهنا نظر صاحب المحلّ لعادل، وقال له:

- مرحبًا بك سيّدي.

ولكنّ عادل لم يسمعه، لأنّه كان شارد الذّهن تمامًا، فعاد صاحب المحلّ ليعيد صياغة جملته، بطريقة مختلفة:

- سيّدي؟ هل من خدمة؟

- أوه.. أنا آسف، لم أسمعك.

- تفضّل سيّدي.. نحن في الخدمة.

- أأ.. بصراحة، كنتُ أريد أن أسألك، عن ثمن هذه القلادة.

فأخذ الرّجل القلادة، وهو ينظر لعادل بشكّ، ثمّ قال (متسائلًا):

- ولماذا تريد أن تبيعها؟ اعذرني على تطفّلي، ولكن..

- حسنٌ، معك حقّ، بصراحة هذه القلادة لأمّي، وهي مريضة، وليس لدينا المال لعلاجها، فاقترحتْ أن تبيعها، لأشتريَ لها الدّواء.

سكت صاحب المحلّ للحظات، لأنّه لم يصدّق حرفًا، ممّا قاله، ولكنّه نطق أخيرًا (بشيء من اليأس):

- حسنٌ.. سأخبرك بعد أن أزنها.

***

كانت السّاعة تشير للثّامنة مساءً، حين نظر حازم لساعة يده، إنّه اليوم في إجازة، تردّد قليلًا، قبل أن يمسك هاتفه، للمرّة الأخيرة، لقد أحسّ لأوّل مرّة بالخجل، ولكن ها هو ذا قد عزم، على الاتّصال بمراد، رنّ الهاتف، ولكن ما من مجيب، فأعاد الكرّة مجدّدًا، وانتظر، ليجيبه مراد هذه المرّة (قائلًا):

- ألو..

- ألو.. مراد كيف حالك؟

- أوه.. عفوًا، ولكن من معي؟

- أنا حازم..

- اعذرني، كيف حالك دكتور حازم؟

- بخير.. وأنت؟

- بخير.. اعذرني، فقد نسيتُ أن أسجّل رقم هاتفك يومها.

- لا بأس.. اتّصلتُ بك، حين رأيتُ بأنّك لم تكلّمني، أما وعدتني بأن نلتقي، قبل أن تسافر؟

فضحك مراد.. وقال بعد ذلك:

- وأنا عند وعدي، ما رأيك لو تأتي غدًا، لتتغدّى معي في البيت؟

- الوليمة هذه المرّة عليّ أنا.

- حسنٌ، كما تشاء، ولكن بشرط أن تكون عليّ المرّة القادمة.

- حسنٌ.. إذًا نلتقي غدًا، إن لم يكن لديك مشاغل؟

- بالطّبع.. أعطني العنوان، وسآتي بمشيئة الله.

- أرى بأن تعطيني عنوان بيتك، وسأمرّ عليك غدًا، لنذهب معًا.

بعد أن أنهى حازم حديثه، مع مراد، أغلق هاتفه، والدّنيا لا تسعه من الفرحِ، وقام من على سريره، مسرعًا للحمّام، لينظر في المرآة، وأخذ يحدّث نفسه، وكأنّه يتكلّم مع مراد، لقد أخذ به الإعجاب بنور مأخذًا بعيدًا، لدرجة أنّه بات اللّيل بأكمله، وهو يستعدّ للقاء مراد، تمامًا مثل أولئك الذين يجتازون مسابقة، للظّفر بشغل في شركة ما، فيبيتون اللّيل كلّه، يحظّرون أنفسهم للقاء تلك اللّجان، المكلّفة بمقابلة الموظّفين، لاختيار من هم أكثر كفاءة، ولباقة على حدٍّ سواء.

- لا أعرف من أين أبدأ، ولكنّني أريد أن أفاتحك، بشأن أختك، أوه.. ولكن لا يجب أن تبدوَ ساذجًا، لهذا الحدّ، عليك أن تتماسك يا حازم، ما بك؟ حسنٌ، أرى بأن أقول له مباشرة: أريد التّقدّم لخطبة نور،

ولكن ما هذا الذي أفعله الآن، حسنٌ، سأخلد للنّوم الآن، وغدًا أكلّمه، كيفما اقتضى الموقف.

كان حازم يكلّم نفسه في المرآة، وفي كلّ مرّة يعدِلُ عن كلامه، فتارة يحاول أن يكون جدّيًّا، ثمّ ما يلبث أن يتوقّف قليلًا، ليغيّر بعد ذلك الطّريقة، إلى أن استسلم أخيرًا، وقرّر أن ينام، ليدع الأمر للغد، فليس هناك أجمل من العفويّة، فحتّى لو حاول مرّاتٍ عديدة، إلّا أنّه قد صار مقتنعًا، بأنّه سيرتبك لا محالة، فلاذ بالفرار للنّوم، تاركًا الفرصة سانحة أمام الموقف، ليتدخّل، ويحسم المسألة بدلًا منه.

***

ركب هاني مع سارة اليخت، أين كانت المفاجأة، التي حظّرها لها تنتظرها، فبمجرّد دخولها حتّى بدأت شلّته، بالغناء بصوتٍ عال، مع التّصفيق، على أنغام الموسيقى، فقالت سارة (مستغربة ممّا رأته):

- ما هذا يا هاني؟

- أليس اليوم هو يوم ميلادك؟

- أجل، أتقصد أنّ المفاجأة التي قلتَ لي عنها، هي عيد ميلادي؟ وهنا؟

ثمّ ضحكت، بعد أن وضعت يدها على فمها، من فرط دهشتها، أمّا الباقي فقد عادوا للغناء مجدّدًا:

Happy birthday to you.. happy birthday sarrah.

- عيد ميلاد سعيد يا سارة.

قال هاني، وهو يتقدّم نحوها، ليلبسها القلادة، التي اشتراها لها، وسلّم عليها.

- عيد ميلاد سعيد سارة.

قال الجميع بصوتٍ عال، فأجابتهم سارة (ودموعها تنهمر):

- شكرًا لكم جميعًا.

أخذ الكلّ، وعلى رأسهم هاني، يسكرون، ويرقصون لوقتٍ متأخّر.

***

ظلّت أمّ هاني مستيقظة طول اللّيل، وهي قلقة على ابنها، كانت تنظر في هاتفها تارة، وتطلّ من شرفة غرفتها أخرى، لعلّها تطمئنّ عليه، كعادتها حين يتأخّر كلّ مرّة، فتقف عند الشّرفة، لتنتظره، إلى أن تراه يجتاز بسيّارته مدخل البيت، فتخلد إلى النّوم، بعدما يطمئنّ قلبها عليه، ولكنّه تأخّر اليوم أكثر من اللّازم، قالت في نفسها، وهي تحاول جاهدة، طرد تلك الهواجس من رأسها:

- أين عساه يكون الآن يا تُرى؟ لو علم أبوه بهذه العادة السّيّئة، التي لازمته في المدّة الأخيرة، فسيقتله، ماذا عساي أفعل، وهو لا يجيب على هاتفه، هل وقع له مكروه؟ أوه، لا، يجب ألّا أستسلم لهذه الأفكار السّلبيّة.

خلدت للنّوم أخيرًا، بعد أن تعبت من الانتظار، أين أخذت تتقلّب يمينًا، ويسارًا، لعلّها تنام، لكنّ تلك الهواجس ما انفكّت تلاحقها، حتّى سمعت صوت شخص، ينادي في الخارج، إنّه صوت هاني الذي

كان ينادي للحارس، الذي غلبه النّعاس، ونام، فهرولت نحو الشّرفة، لتجده ينتظر الحارس، الذي ركض بشكل لا إرادي، ليفتح له الباب على مصراعيه، وهنا شعرت بشيء من الارتياح، يدبّ في روحها، ثمّ ما لبثت أن سيطر عليها الغضب، وذلك حين نظرت لابنها، الذي نزل من السّيّارة، وهو يتململ، لقد بدا عليه السُّكرُ واضحًا، فخرجت من غرفتها، نحو غرفة ابنها، الذي طفق يغنّي في الأسفل، ليملأ صوته البيت بأكمله، صعد الدّرج بالكاد، محاولًا الإمساك بالسُّلم، المؤدّي للطّابق الثّاني، يبدو أنّه أكثر من الشُّرب اليوم، وبعد أن وصل لغرفته، بشقّ الأنفس، وضع يده، يتحسّس الحائط، محاولًا الوصول للضّوء، لينير الغرفة، وبمجرّد إشعاله للضّوء حتّى تراجع مذعورًا للوراء، فقد وجد أمّه جالسة على السّرير، والشّرر يتطاير من عينيها، فقال بكلماتٍ غير مفهومة، كلماتٌ بدت متداخلة في بعضها، بفعل الخمر، الذي شربه حتّى الثّمالة:

- من؟ أمّي؟ ظننتكِ شبحًا، لِما تجلسين في الظّلام كالأشباح؟

كلماته هذه أجّجت النّار في قلب أمّه، التي زاد غضبها، فثارت:

- أشباح؟ وهل تخاف من الأشباح، وأنت تدخل للمنزل آخر اللّيل، دون أن تحسب حساب اللّصوص، والمجرمين، الذين يجدون ضالّتهم، في اللّيل خاصّة؟ قل لي.. ماذا كنت ستفعل، إن اعترض طريقك لصٌّ، وأشهر السّكين في وجهك، ليأخذ منك السّيّارة، ويتركك، وأنت ثملٌ هكذا في الشّارع؟ انظر إلى نفسك، تبدو كالمجانين.

ظلّت أمّ هاني تصرخ، لنصف ساعة، مستعينة في ذلك، بالموشّح اللّيلي، الذي تعوّدت أن تلقيَه عليه، كلّ ليلة، لدرجة أنّه أصبح كحكاية قبل النّوم، التي تُروى للأطفال ليناموا، بصراحة أولادها كبروا، وما عادوا يخشون صراخها، كما كانوا في السّابق، رمى هاني بجثّته فوق السّرير، ثمّ وضع الوسادة فوق رأسه، ليتجنّب صراخ أمّه، التي فقدت الأمل كليًّا هذه المرّة، فسكتت قليلًا، لأنّها شعرت بأنّ صوتها قد بُحّ، ولكنّ منظر ابنها، وهو يتقلّب في فراشه، بكلّ أريحيّة، وهدوء، ودون أدنى شعور، بما تقوله من نصائح، هو ما استفزّها، ممّا جعلها تعود للصّراخ:

- أنا أكلّمك أيّها الأبله، أخبرني.. أين كنت كلّ هذا الوقت؟ ألم أنبّهك أكثر من مرّة، بضرورة ولوج البيت قبل العاشرة مساءً؟ إنّها الثّالثة صباحًا، هل تريدني أن أخبر أباك، أم ماذا؟

- أوه.. أرجوك يا أمّي، هذا ليس وقت الحديث، أريد أن أنام.

- تنام؟ لاا، أنت مستفزٌّ فعلًا.. سأبلّغ أباك غدًا بتصرّفاتك، التي لا تريد أن تغيّرها أبدًا.

- أنتِ حرّة.. أريد أن أنام.. من فضلكِ أغلقي الباب خلفك.

- هذه نهاية الدّلال.. حسنٌ.. سنرى يا هاني.

وقامت بعدما أنهت كلامها، متّجهة لغرفتها مجدّدًا، بعدما أطفأت النّور، وأغلقت الباب عليه، مستسلمة لليأس من تصرّفاته، التي تزداد سوءًا، بمرور الوقت.

***

- هل حظر هاني اليوم؟
- لا يا سيّدي.. لم يحظر اليوم أيضًا.
- حسنٌ.. انصرف أنت الآن، وحين أكلّمك، تأتيني على الفور.

أمسك أبي هاتفه المحمول، ليتّصل بأمّ هاني، بعدما أنهى حديثه، مع أحد الموظّفين، وقد ثارت ثائرته، حين علم بغياب هاني المستمرّ، انتظر لثوان، قبل أن تردّ زوجته، ليمطرها بوابل من الشّتائم، لدرجة ارتعدت معها فرائسها، ممّا سمعته من شتم، وكلام جارح، وإهانة في حقّها، وبالرّغم من تعوّدها على أبي وشتائمه، إلّا أنّها تخاف من غضبه، ربّما لسببٍ لا نعرفه نحن، سألها في الأخير عن هاني، فأخبرته بأنّه لا زال نائمًا، فأمرها بالذّهاب لغرفته، وإعطائه الهاتف، ليكلّمه، فانطلقت مسرعة نحو هاني، الذي كان يغطّ في سباتٍ عميق، وقالت له:

- هاني.. هاني.. أبوك يريد أن يكلّمك، استيقظ.

فسقط هاني من على سريره، فور سماعه لكلمة أبي، ظنًّا منه بأنّه موجود، معهم في البيت، ثمّ قام من على الأرض (متسائلًا):

- أبي؟ أين.. أين هو؟

فأشارت أمّه للهاتف، فبقيَ واقفًا في مكانه، ولم يعرف ما يجب عليه فعله، ولكنّها لم تنتظره ليقرّر، وإنما قرّبت الهاتف من أذنه، فسمع صراخ أبي.. وارتجفت شفتاه هو الآخر، وقال:

- أأ.. أبي؟ صباح الخير.
- صباح الخير؟ كم السّاعة الآن يا مغفّل، لما لم تحظر للشّغل؟

- أوه.. في الحقيقة.. كنتُ..

- كنتَ ماذا أيّها الغبيّ؟ بعد ربع ساعة أريدك في مكتبي، أَفهمتْ؟ وإذا لم تحظر، فسترى بعينك ماذا سأفعل.

وأغلق الهاتف، دون أن يضيف كلمة، بينما بقي هاني متسمّرًا في مكانه، بلع ريقه، وأخذ يفكّر فيما سيفعله أبي، لو علم بموضوع الشّلّة، والسّهرات التي لا تنتهي، إلّا بكميّات كبيرة من الكحول.. فسأل أمّه:

- أوه.. هل أخبرتِه عن الحفلات، التي أحضرها مع أصدقائي؟

- أيّها الغبيّ.. أهذا وقتٌ للتّساؤلات؟ اذهب، وارتدِ ثيابك بسرعة، قبل أن يأتيَ إلى هنا، ويسمعك ما لا يرضيك.

ركض هاني مسرعًا للخزانة، واختار منها ما يتناسب مع شغله، في الشّركة، ودخل للحمّام، ليغسل وجهه، ويرتديَ ثيابه بعد ذلك، أمّا أمّه فقد وقفت في مكانها، تتحدّث مع نفسها:

- تُرى ماذا فعل هذه المرّة؟ هذا الأحمق لا يريد أن يتغيّر أبدًا، آاه.. ليته كان كرؤوف، أو حامد، أو حتّى خالد، هذا الولد لا يعرف مصلحته أبدًا.. لا أعرف ممّن ورث هذا الغباء كلّه؟

***

وصل حازم أخيرًا لبيت مراد، بعد أن سأل بعض المارّة، فكان بعضهم يخبرونه بأنّهم لا يعرفون أحدًا، باسم مراد ابن راضي، ربّما لأنّه مقيم في قطر، فلا يعرفه أحد هنا، وهناك من يقول له بأنّه ساكنٌ جديد، في هذا الحيّ، إلى أن وجد طفلًا، يلعب مع أصدقائه.. كان يركض،

ليلحق بالكرة، التي حلّقت بعيدًا، سأله عن بيت مراد ابن راضي، فسأله الطّفل فيما يكون لمراد هذا إخوة، أم لا، فاستغرب حازم كيف لم يخطر على باله، منذ أن بدأ بسؤال المارّة، أن يخبرهم عن نور، لعلّ أحدهم يهتدي إليها.. سكت للحظات، قبل أن يجيب:

- له أختٌ اسمها نور.

- أوه.. أجل.. إنّها طبيبة، أليس كذلك؟

- أجل.. هي بالضّبط.

فأشار الولد بيده، إلى بيتٍ في آخر الشّارع (قائلًا):

- أترى هناك؟ البيت الذي له باب كبير، لونه أسود، ذاك هو بيتهم.

فشكره حازم (قائلًا):

- أحسنت أيّها البطل.. شكرًا.

فعاد الولد للحديث:

- لا شكر على واجب.. نسيتْ، حين تصل سلّم على أختها، فهي زميلتي في القسم.

ابتسم حازم لكلامه، وسار بسيّارته نحو البيت، وهو مستغربٌ من جرأته، إذْ وبالرّغم من كونه طفلًا صغيرًا، إلّا أنّه لم يخجل من أن يطلب من رجل، أن يسلّم على زميلته.. فقال في نفسه:

- يا لهذا الجيل الغريب!

وما إن همّ حازم بدقّ الباب حتّى تفاجأ، بمراد يفتحه، ليتفاجأ هذا الأخير به، يقف وراء الباب، فابتسم، وقال بعد أن صافحه:

- بعد أن أبطأتَ في الوصول، قدّرتُ بأنّك لم تعرف البيت، فقلتُ أخرج عند بداية الشّارع، لعلّك تكون هناك، أرأيت؟ لقد اقترحتُ عليك بأن أنتظرك عند بداية الشّارع، لكنّك أصررتَ على المجيء، لغاية باب منزلنا.

فقال حازم:

- لا بأس.. لم يحصل شيء.

- هيّا، ادخل، لتشرب معي القهوة.

- أوه.. لا، في المرّة القادمة، سآتي خصّيصًا لأشرب معك القهوة، أعدك بذلك.

وأشار بيده للسّيّارة، وأسرع ليفتح الباب الأمامي لمراد، ليتسنّى له الجلوس، وانطلق به لمطعم بوسط المدينة، وفي الطّريق ساد الصّمت، أين كان مراد ينظر لكلّ شبر، في المدينة.. ثمّ قال أخيرًا:

- كم مضت الأيّام بسرعة، أتعلم، لي في هذه المدينة ذكريات.. فلا أكاد أرى شارعًا، أو مطعمًا، أو مدرسة، إلّا وتتداعى الذّكريات الكامنة في نفسي.

- كلّ إنسانٍ فينا أسيرٌ لماضيه، أتعلم؟ لا أعرف إن كنّا قد عشنا، في ذلك الماضي الجميل؟ أم هو الذي لا زال يعيش بداخلنا؟

فضحك مراد.. وقال بشيء من الدّعابة، ليكسر جوّ الحزن، الذي بدأه قبل لحظات:

- أوه، لم أكن أعلم بأنّك شاعر.. صحيح، لِما لا تكتب الشّعر؟

فضحك حازم لسؤاله، ثمّ قال:

- لا يا صاحبي، الشّعر يحتاج لإنسانٍ مرهف المشاعر، وأنا طبيبٌ كما تعلم، والطّب يعلّمك بمرور الوقت، أن تصبح أكثر صلابة، فنحن نتعامل مع الآلاف من العمليّات، التي تكاد تكون شبه يوميّة، هذه العمليّات التي أماتت قلوبنا، بمرور الوقت، فأنّى لي أن أكتب الشّعر، وقد فقدتُ الإحساس، بسبب شغلي.

..ركن حازم سيّارته، عند المطعم أخيرًا، ثمّ نزل برفقة مراد، ودخلا إليه، وبعد أن جلسا، وارتاحا قليلًا، جاء النّادل ليسألهما عن طلباتهما، ثمّ ذهب ليحضر لهما، ما طلبا من أكلات، ظلّ حازم يتناقش مع مراد، حول الحياة، ومفارقاتها، ثمّ سأله عن الحياة في قطر، ومميّزاتها، إلى أن ساد الصّمت فجأة، كان حازم يأكل، وفي كلّ مرّة يرفع عينيه، لينظر لمراد، ثمّ ما يلبث بأن يعود للأكل، فنظر له مراد باستغراب، وسأله:

- ما بك يا حازم؟

- أوه.. لا.. لا شيء.

- أحسّ بأنّك تريد أن تقول شيئًا، لكنّك تعدِل عن الخوض فيه، في آخر لحظة.

- حسنٌ.. معك حقّ.. بصراحة..

وضع حازم الشّوكة، وتناول سيجارتين.. قدّم لمراد واحدة، وسأله:

- أتشرب سيجارة؟

- أوه.. كلّا، لا أدخّن، شكرًا.

فأعاد الثّانية للعلبة، وأشعل الأخرى، ثمّ قال:

- بصراحة.. أريد أن أصاهرك يا مراد.

- ماذا؟ تصاهرني أنا؟

- أجل.

- ولكن ليس لي بناتٌ للزّواج.. أوه.. انتظر لحظة، أتقصد نور؟

- أجل.

- ولِما لم تكلّمها بشكل مباشر، خاصّة وأنّك زميلها؟

- حسنٌ، لقد تكلّمتُ مع ابن عمّك حامد، وطلبتُ منه مفاتحتها، وتكلّم معها، لكنّها لم تردّ بالموافقة، أو بالرّفض.

- ماذا تقول؟ تكلّمت مع حامد؟

- أجل.. أنا أريدك أن تسألها، وتخبرني عن قرارها.

- حسنٌ.. أعدك بأنّي سأفاتحها في الموضوع.

***

خرج سهيل من البيت، ليذهب إلى الجامعة، وفي الطّريق اعترضه صديقه، الذي يملك محلًّا، لبيع المواد الغذائيّة، كان قد تعوّد سهيل، من وقت لآخر، بأن يجلس معه قليلًا، داخل المحلّ، ويعود للبيت بعد ذلك، ولكنّه في المدّة الأخيرة، لم يعد يجلس معه إلّا نادرًا.

- كيف حالك يا حذيفة؟

- بخير.. أين أنت؟ لماذا لم نعد نراك؟

- مشاغل الحياة، من الجامعة للشّغل، لا وقت لديّ لأتنفّس.

- كان الله في عونك، ولكن لن تذهب، إلّا حين تشرب القليل من الشّاي معي، ونتكلّم قليلًا كالعادة.

في البداية رفض سهيل البقاء، بحجّة المشاغل، التي يجب عليه أن ينهيها، ولكنّ إصرار حذيفة عليه بالبقاء، جعله يخجل منه، فقرّر أخيرًا البقاء قليلًا، فاستأذن حذيفة منه، أن ينتظره لدقائق، ريثما يتّصل بأحد التّجار، متحجّجًا بأنّه قد نسي أنّ اليوم، هو موعد تسليم البضاعة، أخذ هاتفه، واستخرج منه رقمًا، ليتّصل به:

- ألو.

فردّ الآخر عليه، وهنا عاد حذيفة للحديث (وقد بدا عليه القلق):

- لقد وصلت البضاعة الآن، وعليك أن تأتي حالًا.

وعاد ليجلس بجانب سهيل، والزّبائن يروحون، ويجيئون، ليسألوه عن ثمن بعض السّلع، ولكنّه كان شارد الذّهن، على غير عادته، حتّى إنّ بعض الزّبائن حملوا أنفسهم، وانصرفوا، لشعورهم بأنّه قد تجاهلهم متعمّدًا..

- هيّا بنا.. لن نأتيَ إلى هنا مرّة أخرى.

- معكِ حقّ، أرأيتِ كيف تجاهلنا؟ كلّ التّجار هكذا، في البداية يتصرّفون بمنتهى التّواضع، وحين يُسمع صيتهم، يتكبّرون على زبائنهم.

وخرجت الفتاتان، وهما ساخطتان على حذيفة، بعدما تجاهلهما، وهو ما أثار حفيظة سهيل، فنظر له مستغربًا سرّ شروده.. ثمّ سأله:

- ما الذي حصل لك اليوم؟ تبدو على غير العادة.

- لا تكترث.

- أما زالت مسألة الدّيون تؤرّقك يا حذيفة؟

- أجل، لا أعرف كيف أسدّدها، والأكثر.. أنّها في تفاقمٍ مستمر.

ظلّ حذيفة يبثّ شكواه لسهيل، بشأن تلك الدّيون، التي أرّقته، إلى أن دخل صديقه، الذي اتّصل به، فأحسّ حذيفة ببرودة، تسري في جسده، وهبّ واقفًا، ولكنّ الآخر لم يدعه يتكلّم، وقال (بغضب):

- أين أنت يا رجل؟

- أوه.. كيف حالك يا سعيد؟

- لستُ بخير، كما ترى.

- ولكن لماذا؟

- أتسخر منّي؟ أين المال، الذي قلتَ بأنّك ستؤمّنه هذا الأسبوع؟

- أأ.. ولكنّي لم أستطع..

وقبل أن يكمل حذيفة كلامه، قاطعه سعيد:

- أريد أموالي حالًا، وإلّا فسوف أقتلك.

اجتمع الزّبائن حول الاثنين، وانقسموا بين خائف، ومستغرب، أمّا سهيل فقد وقف ليتدخّل، إذا احتدم النّقاش بينهما.. عاد سعيد للصّراخ مجدّدًا، بعد أن أمسك بحذيفة، من قميصه، وقال:

- هيّا، أسرع.. أريد أموالي الآن حالًا.

فأحسّ حذيفة بالذّعر، للحظة اعتقد بأنّ ما يحصل حقيقة، وليس مجرّد تمثيل، تدخّل في هذه الأثناء سهيل، ليبعد سعيد عنه، وقال له:

- أرجوك سيّدي، أمهله بعض الوقت، لو كان معه المال لما تأخّر.

- ابتعد، ولا تتدخّل بيننا، هذا الرّجل الذي تراه أمامك كذّاب، لقد وعدني منذ ما يقرب السّتة أشهر، بأن يعيد لي مالي، ولكنّه لم يفعل، لحدّ السّاعة.

- أنا لستُ كذّابًا.. قلتُ لك، ليس معي المال الآن.

قال حذيفة لسعيد، الذي اقترب منه مجدّدًا، وعاد ليمسكه من قميصه، وجذبه إليه بقوّة، ولكنّ حذيفة لم يستسلم، ودافع عن نفسه، بكلّ ما أوتي من قوّة، فتدخّل بعض الزّبائن، ومعهم سهيل، ليفرّقوا بين الاثنين، وهو ما حصل بالفعل، وفي هذه اللّحظة، استلّ سعيد سكّينه، الذي في جيبه، واقترب من حذيفة، ووجّه السّكين لسهيل، الذي وقف أمام حذيفة، ليحميه، وطعنه في القلب، ممّا جعل الحضور يصرخون، ومعهم حذيفة، الذي صُعق من هول الصّدمة (قائلًا):

- ويحك.. أيّها الأحمق.. لقد قتلتَ الرّجل.

فتراجع سعيد للوراء، بعدما رأى الدّماء، تغطّي جسد سهيل، أمّا حذيفة فقد جثا على ركبتيه، ليسنده على كتفه، وفي هذه الأثناء ثارت ثائرة الحاضرين، داخل المحلّ، فهبّوا كلّهم للقبض على سعيد، الذي همّ بالفرار، بعد فعلته، ولحسن الحظّ، أنّهم أمسكوه في آخر لحظة.

بعد لحظات جاءت سيّارة الإسعاف، لتنقل سهيل، أمّا سعيد فقد قامت الشّرطة بالقبض عليه، هو وحذيفة، كما أخذوا بعض الزّبائن، ممّن كانوا حاضرين، أثناء وقوع الجريمة، للإدلاء بأقوالهم، أمّا الباقي

فتفرّقوا، وكلّهم حزنٌ، على ما وقع لسهيل، ذاك الشّاب، الذي لم يعرفوا عنه، إلّا أنّه كان مسالمًا، فكلّ الحاضرين جيرانه، قال شيخٌ اعتاد الجلوس، أمام المحلّ لصديقه:

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله، ما هذا الزّمن، الذي أصبحت الرّوح فيه رخيصة، لهذا الحدّ؟

فأجابه الآخر (بنفس الحيرة، والحزن):

- ما الذي فعله سهيل، ليلقى هذا المصير؟ مسكينٌ هذا الشّاب.

- قُم، لنلحق بهم إلى المستشفى، علينا أن نطمئنّ عليه.

- آمل أن يسعفوه، قبل فوات الأوان.

وصلت سيّارة الإسعاف، للمستشفى أخيرًا، تتبعها سيّارة الشّرطة، أين تمّ إدخال سهيل، للعناية المركّزة، فأسرع الأطبّاء، ليُجروا له عمليّة، وبعدما وضعوا كلّ ما يلزم، لإجراء العمليّة، ضعف نبض قلبه، وانخفض ضغط دمه بشكل كبير.

***

دقّ مراد باب غرفة أخته نور، مستأذنًا بالدّخول، للحديث معها، في موضوعٍ، فطلبت منه بأن يدخل (قائلة):

- بالطّبع.. تفضّل يا أخي.

- كيف حال أختي الصّغيرة؟

- بخير.. شكرًا.

- لقد مرّ الوقت بسرعة، أليس كذلك؟

- أجل.. ولكن هذه هي سنّة الحياة، أليس كذلك؟

ابتسم مراد.. ثمّ عاد للحديث:

- أجل.. أتعلمين؟ صرتُ أخاف من تسارع الزّمن.

- معك حقّ.. كلّنا متخوّفون.. ولكن ما باليد حيلة.

- على كلٍّ دعكِ من هذا.. أنا أنتظر يوم عرسك، بفارغ الصّبر.

- لا تقل لي بأنّك قد جئت إلى هنا، لتحكيَ لي عن أمنياتك؟

- لا.. ولكن أريد أن أخبرك، بأنّني قد تغدّيتُ اليوم مع حازم.

- حازم؟

- أجل، وطلب منّي أن أسألك، إذا كنتِ موافقة على الزّواج منه؟

- أوه.. لقد نسيتُ الموضوع تمامًا.

- ولكن إلى متى ستظلّين هكذا يا نور؟

فنظرت نور بتمعّن، لأخيها مراد، ثمّ سألته (باستغراب):

- ماذا تقصد؟

- إلى متى سترفضين، كلّ من يتقدّم لك، بحجّة أنّكِ لم تجدي الرّجل المناسب بعد؟

- أوه.. بالله عليك يا أخي.. كفّ عن هذا الهراء.

- هراء؟ أتسمّين الزّواج، والاستقرار هراء؟

وسكت قليلًا، قبل أن يضيف:

- اسمعي، كلانا يعرف السّبب الحقيقي، وراء رفضكِ للموضوع، ولكن أنصحك، بأن تفكّري هذه المرّة جيّدًا، فلن تظلّي صغيرة للأبد،

فالعمر يمضي بسرعة، ثمّ إنّ حازم ليس سيّئًا، إلى الحدّ الذي يجعلكِ ترفضينه، هو طبيب، ولديه سكنٌ خاصّ، وفوق هذا كلّه معجبٌ بك، لا تضيّعي الفرصة من يدك، أملًا في شخص، ليس منه بُدّ، فحامد رجل متزوّج الآن، ولن يطلّق زوجته، ليتزوّجك، أتمنّى أن تفكّري هذه المرّة جيّدًا، قبل أن ترفضي حازم أيضًا.

خرج مراد، بعد أن قال هذا الكلام، وأغلق الباب وراءه، تاركًا نور شاردة الذّهن، بعد أن نفذ كلامه لقلبها، كالسّهم الذي ينفذ لأعماق الطّريدة.

***

كانت نريمان في غرفتها، تحضّر للامتحانات، التي قرب أجلها، ولم يبقَ لها إلّا أسبوعين، رنّ هاتفها، فأسرعت إليه، ظنًّا منها أنّه سهيل، ولكنّها تفاجأت بجودي تتّصل.. والتي عرّفها عليها سهيل، فيما سبق، لتستعين بها في إرسال الرّسائل له، إذا شدّد عليها أبي الحراسة، وراقب هاتفها، بالإضافة للمحاضرات، التي تنقلها من عندها، في حال عدم ذهابها للجامعة، بالمختصر كانت جودي هي عين سهيل، التي يبصر بها، ويعتمد عليها، في أيّ أمر متعلّق بنريمان، لأنّها تكون ابنة خالته، وجارته في آنٍ واحد، فهي تسكن في الحيّ الذي يسكن فيه، استغربت نريمان من اتّصالها، فمنذ مدّة ليست بالقصيرة لم تتّصل بها، فقالت:

- ألو.. كيف حالكِ جودي؟

- ألو نريمان..

- ما بك يا جودي؟ صوتكِ ليس كالعادة، أتبكين؟

لم تنطق جودي بكلمة، ولكنّها عوضًا عن ذلك، انفجرت باكية، وهو ما جعل نريمان تهبّ واقفة، لتعيد سؤالها مرّة أخرى:

- ما بك يا جودي؟ لما تبكين؟ لقد أقلقتني، هل جرى لكِ شيء؟

- سهيل.. سهيل يا نريمان.

- ما به سهيل؟

- لقد مات..

أحسّت نريمان بثقل في جسمها، فلم تعد تقوى على الوقوف، وجلست دون إرادة منها على الكرسيّ، الذي بجانبها، ورمت الهاتف، وقالت:

- سهيل.. مات؟؟ هل جُنّت البنت، أم ماذا؟

وبقيت شاردة الذّهن تمامًا للحظات، إلى أن دقّت عليها الخادمة الباب، لتستأذنها في الدّخول لتنظيف الغرفة، ولكنّها لم تجب، فعادت لتدقّ الباب مجدّدًا، ولكنّها لم تجبها أيضًا، ممّا جعلها تفتح الباب، لتتأكّد من وجودها في الغرفة، وهو ما تمّ بالفعل، فوجدتها جالسة، وهي فاتحة ثغرها، وهاتفها على الأرض، فسألتها عن الأمر، ولكنّها ظلّت صامتة، ولم تجبها، فاقتربت منها، وقالت:

- سيّدتي.. هل أنتِ بخير؟

فنظرت نريمان لها مليًّا، نظراتٍ مبهمة، فلم تفهم ما بها، وعادت لتسألها مجدّدًا، وهنا لم تتمالك نريمان نفسها، أين بدأت بالصّراخ، فأسرعت الخادمة نحوها، وربتت على كتفها (قائلة):

- ما الذي حصل يا ابنتي؟

- سهيل.. سهيل.. مات.

فأسرعت الخادمة للقارورة، التي كانت موضوعة، بجانب السّرير، وصبّت القليل من الماء، لتعطيه لها، ولكنّها رمت الكأس، ثمّ عادت للصّراخ مجدّدًا، وهنا ركضت الخادمة ناحية الباب، ونادت لأمّي، التي كانت في الأسفل، فخرجت فلّة من غرفتها، لترى ما بها، وقالت:

- ماذا هناك؟

- نريمان يا سيّدتي.

- ما بها نريمان؟

ركضت فلّة للغرفة، لتستفسر عن سبب صراخ نريمان، ولحقت بها أمّي، التي سمعت نداء الخادمة، فوجدتا نريمان منهارة كليًّا، من الصّدمة، وأثر الصّراخ، والخادمة تحاول تهدئتها، ولكن بدون جدوى، فأسرعت أمّي نحوها (قائلة):

- ما بك يا ابنتي؟

فأجابتها الخادمة:

- لا أعلم سيّدتي، دخلتُ بالصّدفة، لأجدها على هذه الحالة، لقد قالت لي، بأنّ شخصًا اسمه سهيل، قد مات.

فنظرت أمّي لفلّة مستغربة، وعادت لتُكلِّم نريمان، التي وبمجرّد سماعها لاسم سهيل حتّى عادت للصّراخ، بعدما خارت قواها، وقالت لأمّي (مردّدة):

- أرأيتِ يا أمّي؟ لقد قتله أبي، سهيل قتله أبي.

فصرخت أمّي في فلّة (قائلة):

- فلّة، أسرعي، واتّصلي بأخيكِ حامد، هي تحتاج لدواء، ليهدّئها.

وأشارت لفلّة بأن تتّصل بهاتفها، الذي في غرفتها.

***

كان أبي في الشّركة، حين اتّصل به أحد رجاله، ليبلّغه بنجاح مهمّة، كان قد كلّفه بها، فقال له:

- لقد أنجزنا المهمّة بنجاح سيّدي.. ونُقلت البضاعة لمكان آخر، كما طلبت، واليوم تمّت المهمّة.

كان الرّجل يتكلّم عن قضيّة سهيل، ولكنّه لم يقلها بصراحة، لأنّه كان يتكلّم في الهاتف، فقد تعوّد أبي بأن يكلّم رجاله بالرّموز، في الهاتف، خشية أن يكون مراقبًا، وكان لا يتكلّم في أمر، إلّا حين يلتقي برجاله، وجهًا لوجه، وبأحد الأماكن البعيدة عن الأنظار، فهو حريص جدًّا.. قام أبي من على كرسيّه مسرورًا، واتّجه ناحية النّافذة، ونظر من خلالها مليًّا، وقد سرح بخياله بعيدًا.. ثمّ قال لنفسه:

- ارتحنا من واحد.. ولكن هناك آخرون، يجب أن يلحقوا بسهيل، للعالم الآخر، لأعيش بسلام.

وعاد، ليجلس على كرسيّه.. قبل أن يتّصل، ليطلب من الحارس، بأن يحضر له فنجان قهوة.. وبعد لحظاتٍ اتّصلت به فلّة، فردّ عليها:

- ألو.. كيف حالك يا ابنتي؟

- أبي، الحقنا، نريمان منهارة كليًّا، وقد اتّصلتُ للتّو بحامد، ولكنّه لا يجيب..

وانقطع الاتّصال فجأة، فوضع أبي فنجان القهوة، على المكتب، وتأفّف، ثمّ قال (بانزعاج):

- هذا ما كنت أخشاه.

وسكت قليلًا، ثمّ عاد ليحدّث نفسه:

- ألا يمكن للإنسان أن يفرح، دون أن ينغّص عليه شخصٌ ما؟

وقام من مكانه، وخرج بعد أن أوصى السّكرتيرة، بأن تؤجّل اللّقاء، الذي سيجمعه بالصّحافة، بعد ساعتين، ليوم آخر.

***

خرجتُ من المشفى، بعدما أخذتُ إذنًا، وفي الطّريق رأيتُ لبنى، التي كانت تمشي بمفردها، قبل أن تقف على الرّصيف، لتنظر لجانبيْ الطّريق، وحين تأكّدت من خلوّه من السّيّارات، همّت باجتيازه، كانت متعبة جدًّا، بالرّغم من محاولتها التّصرّف بشكل طبيعي، سرتُ بالسّيّارة نحوها، ثمّ توقّفتُ عندها، قبل أن تجتاز الطّريق، وفتحتُ نافذة السّيّارة، وطلبتُ منها بأن تأتيَ معي، لأوصلها لبيتها، في البداية تردّدتْ قليلًا، ولكنّني بقيتُ مُصرًّا، إلى أن وافقت، ونحن في الطّريق تحدّثنا قليلًا،

قبل أن تتّصل بي فلّة، لتخبرني ما حدث لنريمان، وتطلب منّي المجيء بسرعة، لأعطيها مهدّئًا.

تفاجأتُ من هذا الخبر، وهالتني وفاة سهيل، كم هو مسكين، هذا الشّاب، بقيتُ شارد الذّهن، لبعض الوقت، ولم أشعر بنفسي، إلّا وأنا أسرع في القيادة، لتسألني لبنى عن الموضوع، وحين أخبرتُها تأسّفتْ، لسماع هذا الكلام، بل وسعت جاهدة، مواساتي بتلك الكلمات، التي يستعملها النّاس عادة، حين يسمعون خبرًا حزينًا، أمّا أنا فلم أركّز مع كلماتها، بقدر ما ركّزتُ مع حالتها الصّحيّة، فهي أكثر شخص يحتاج للمواساة، في الدّنيا، ومع ذلك فإنّها لم تبخل عليّ بكرمها، وطيبتها، وددتُ حينها لو أبكي، فما يحصل في هذا الزّمن لا يعقل، ولا يصدّقه عاقل، سهيل؟ لبنى؟ نريمان؟ وأنا ونور، كلّنا لا نستحقّ ما يحصل لنا.. أتُراه اختبارٌ لنا، على مدى قوّتنا، وقدرتنا على التّحمّل؟ أم تراه عقابٌ لنا، على ذنوبنا؟ كنت أتألّم، وأنا أسمع صوتها الأجشّ، وأنا أراها تسعى جاهدة، لتظهر بمظهر البنت، الواثقة من نفسها، ولكن عبثًا..

***

وصلتُ للبيت أخيرًا، بعدما قمتُ بإيصال لبنى، وصعدتُ بسرعة، للطّابق الثّاني، فوجدتُ أبي يقف، منتظرًا الطّبيب، ليسأله عن حالة نريمان، أمّا أمّي وفلّة فقد طلب منهما هذا الأخير، بأن تبقيا في الغرفة المجاورة، ريثما ينتهي الطّبيب من عمله، حين وصلتُ كان هذا الأخير قد شارف على الانتهاء، فقام، وأغلق حقيبته، وتبعه أبي متلهّفًا، ليسأله

عن حالة نريمان، فطمأنه.. وأخبره بأنّها ستكون بخير، ولكن عليها أن تنام، لترتاح، وقدّم له وصفة، فيها أدوية مهدّئة، لنعطيها لها بانتظام، حتّى تتماثل للشّفاء تمامًا.

***

- أخبرني يا حذيفة، ما علاقتك بالمجني عليه (سهيل. ف)؟

سأل الضّابط حذيفة، ليجيبه هذا الأخير (بحزن):

- كان صديقي، وجاري يا سيّدي.

- ولماذا كان عندك، يوم وقوع الجريمة؟

- كانت عادة قديمة، أن يأتيَ ليجالسني، ونتكلّم، إذا لم يكن لديه ما يشغله.

- وما علاقتك بالجاني المدعوّ (سعيد. ك)؟

- هو صديقٌ لي أيضًا.

- ولماذا جاء إليك، يوم وقوع الجريمة؟

- لقد أقرضني مبلغًا من المال، وحين لم أستطع ردّه، جاء للمحلّ، وقام بفعلته الشّنيعة.

نظر الضّابط للحارس، وأمره بأخذ حذيفة، وإحضار سعيد، وبعد لحظات، دخل هذا الأخير، مطأطئًا رأسه، فأمره الضّابط بأن يثبت مكانه، ووجّه له الكلام، بعد أن نظر في بطاقة التّعريف خاصّته:

- ما العلاقة التي تجمعك بالمدعوّ (حذيفة. ل)؟

- هو صديقي.

- ولماذا كنت عنده، يوم وقوع الجريمة؟

- سيّدي، لقد أقرضته المال، منذ سنة تقريبًا، ولم يرجعه لي للآن.

- وهل هذا سببٌ يدعوك لتقتله؟

- لم أتمالك نفسي، فقد كنت محتاجًا للمال، وحين فقدتُ الأمل في استرجاعه، سحبتُ السّكين، دون شعور منّي، وفي لحظة غضب، طعنتُ الشّخص الخطأ، طعنتُ ذلك الشّاب، عوضًا عن حذيفة.

نظر الضّابط للحارس مجدّدًا، وطلب منه بأن يأخذ سعيد، ويدخل الشّاهد الأوّل.

***

كانت نور جالسة في مكتبها، تدقّق في بعض الملفّات كالعادة، كانت تبحث عن ملفٍّ لمريض، يحتاج لإجراء عمليّة جراحيّة لعينيه، ولكنّها لم تجده، فأخذت تبحث في الخزانة الخاصّة بالملفّات، وحين عجزت، سحبت مجموعة من تلك الملفّات، التي كانت موجودة، في الأعلى، ثمّ وضعتها فوق المكتب، وأمسكت نظّارتها، وعادت لتجلس، وتبحث عن الملفّ المطلوب، دخلت للمكتب في هذه الأثناء، زميلتها رشا، ثمّ سحبت الكرسيّ، وجلست، وهي تتأفّف من معاملة المدير، السّيئة لها، ومحاسبته لها على الغياب السّابق، فقالت:

- ألا يمكن أن يتغيّب الإنسان أبدًا؟

فرفعت نور عينيها، ناظرة إلى رشا، وهي تبتسم، ثمّ قالت:

- هل عاد ليزعجكِ مرّة أخرى يا رشا؟

- وهل تركني يومًا دون أن يزعجني؟

- حسنٌ، هوّني عليك، لقد وضعتُ الحلوى في الدّرج، سأطلب بعض الشّاي، لنشربه مع هذه الحلوى.

جلست رشا بجانب نور، ليتسنّى لها مشاركتها، أكلَ الحلوى، مع الشّاي، وأخذت تثرثر تارة، وتشتكي أخرى، كلّ هذا ونور تصغي لها، بالكثير من الاهتمام، لأنّ رشا هي أكثر فتاة فضوليّة، في هذا المشفى، فلا تكاد تسمع خبرًا، إلّا وتنقله للجميع، ولهذا فالكلّ يحبّها هنا، ربّما لأنّها تغيّر بعضًا من الرّوتين، الذي يعيشه العمّال، أخذت نور تضحك، حين سمعت ما دار بينها، وبين المدير من كلامٍ بذيء، فرشا من النّوع، الذي لا يخجل من قول الحقيقة، وخصوصًا حين تشعر بالغضب، ولهذا فهي لا تحبّ المدير، وهو بدوره لا يطيقها، عادت لتستأنف الحديث، بعدما احتست القليل من الشّاي، ولكن بسؤال هذه المرّة، وجّهته لنور:

- صحيح.. أتعلمين مع من رأيتُ الدّكتورة لبنى، آخر مرّة؟

فعادت نور للوراء فجأة، بعد أن سمعت اسم لبنى، واعتدلت في جلوسها، وقالت (وهي تحاول أن تبدوَ طبيعيّة):

- مع من رأيتها؟

- مع ابن عمّك.. رأيتها تركب معه في سيّارته، ولكنّها لم تنتبه لي.. بصراحة، لا أعلم لما يهتمّ بها بهذا الشّكل؟ فهي ليست فائقة الجمال، الدّنيا حظوظ.. أتعلمين؟ لطالما حاولتُ معه مرارًا، ولكن دون جدوى، أوه.. لما حظّي سيّءٌ هكذا دائمًا؟

فضحكت نور من كلامها، ثمّ قالت:

- حسنٌ.. كُلي، واسكتي.

وسكتت، محاوِلة الظّهور بمظهر اللّامبالية.. ولكنّها عادت لتفكّر في كلامها، وفي رأسها ألف علامة استفهام.

***

جلستُ بجانب نريمان، التي عاودتها النّوبة، بمجرّد استفاقتها من النّوم، بعد أن أعطيتها حقنة، ممّا جعلها تنام بعدها بدقائق، كانت أمّي تجلس بالجهة المقابلة، عند رأس نريمان، وهي تمسك بيدها، وتربت على كتفها، بيدها الأخرى، ثمّ أخذت تتمتم:

- مسكينة أنتِ يا ابنتي.. أنتِ لا تستحقّين كلّ هذا.

فحاولتُ أن أهدّئها، رغم ما يختلج صدري، من قلقٍ نحو نريمان، وفجأة بدأتْ هذه الأخيرة، تهذي بكلام مفهوم، وكأنّها تريد إطلاعنا، على أمرٍ ما، فقالت:

- أبي.. أبي.. قتل سهيل.. سهيل.. ماذا قلت؟ أبي؟ كنت أعلم.. هو.. من.. من فعلها..

وعادت لتهذيَ بكلام غير مفهوم، كان عبارة عن أصوات، تختنق داخل صدرها، تلك الأصوات التي تتقطّع أحيانًا، فيعقبها أنينٌ خافت، يوحي بأنّها على موعد مع حلم، أو لعلّه كابوس، كانت قطرات العرق، تنساب من جبينها لامعة، تبادلنا النّظرات أنا، وأمّي، ولكنّنا لم نتفوّه بكلمة، وكأنّنا لا نريد أن نصدّق، ما قالته، بالرّغم من قناعتنا التّامة، بأنّ

في كلامها شيئًا من الصّواب، ولكنّنا لا نريد أن نعترف بهذا، حتّى لأنفسنا، ولكنّ ما أثار استغرابي، هو الحلم، الذي كانت تراه نريمان، ذلك الحلم الذي راودها من قبل، وبالضّبط قبل وفاة سهيل بأسبوع، فقد قصّت علينا، بأنّها رأت سهيل في المنام، وهو يخبرها بأنّ أبي قتله، وقد كانت الدّماء تغطّي جسده، يومها طمأنّاها، وقلنا بأنّها مجرّد هواجس، ووساوس، تشكّلت على شكل كوابيس، فعقلها الباطن دائم التّفكير، فيما يمكن أن يفعله أبي، لو رآها مع سهيل، وخصوصًا وأنّه قد هدّدها، في أكثر من مناسبة، بأنّه سيقتله، إن رآهما سويًّا، وما زاد من استغرابي، هو دخول أبي للغرفة مباشرة، بعدما ذكرته نريمان، في الحلم، الذي راودها قبل قليل، وكأنّ هناك سرًّا ما، يجب علينا معرفته، قال أبي:

- كيف حال نريمان الآن؟ هل هي بخير يا حامد؟

فأجبته، بعدما أبعدتُ عينيَّ عن أمّي، حتّى لا نثير انتباهه، وقلت:

- لقد أعطيتها حقنة، وهي نائمة كما ترى.

فقاطعتني أمّي (قائلة):

- لقد عاودتها النّوبة، ولولا وجود حامد، لما عرفتُ كيف أتصرّف.

فقال لها (بتذمّر):

- أنتِ حسّاسة يا خديجة، إنّها بخير، صدّقيني، ما هي إلّا أيّام، وستعود لطبيعتها، ولكن سأحضر لها ممرّضة، لتعطيها الأدوية، والحقن إن لزم الأمر، ريثما تُشفى، وتعود لصحّتها، وعافيتها.

أكمل كلامه، ثمّ توجّه لسرير نريمان، وجلس على مقربة منها، ثمّ وضع يده على شعرها، وأخذ يحرّك أنامله، بين خصلات شعرها، وهو ينظر لها بشفقة، أو ربّما هو النّدم، على شيءٍ ما، شيءٌ لا نعلمه، لحدّ الآن، أو لعلّنا نعلمه، ولكنّنا لا نريد الإصغاء لإحساسنا، قمتُ من على الكرسيّ، مستأذنًا أمّي، وأبي، في الذّهاب للنّوم، فقالت أمّي:

- أوه.. لقد أتعبناك معنا يا حامد.

- ما هذا الذي تقولينه، أأنا غريبٌ بينكم، ولستُ أدري؟ نريمان أختي، وهذا أقلّ ما أستطيع فعله.

نظر لي أبي، ثمّ ابتسم، وقد بدا عليه الإعجاب بما قلته، ثمّ قال:

- أتعرفين يا خديجة، أحيانًا أحسّ بأنّ حامد هو أبونا، وليس ابننا، بصراحة، لا يوجد في أولادي، من هو أكثر طيبة منه، طوال فترة غيابي، لم أحسّ يومًا بالخوف، لأنّني كنت أعلم بأنّه لن يتخلّى عنكم، بوركتَ يا بُنيّ.. اذهب، لترتاح، لديك شغلٌ غدًا، وقد تأخّر الوقت.

ثمّ نظر لساعته، وقال (مستغربًا):

- لاا.. إنّها الثّانية صباحًا.. لقد مضى الوقت بسرعة.

***

رنّ المنبّه على السّابعة صباحًا، بالكاد استطعتُ أن أستيقظ، توجّهتُ للحمّام، لأغسل وجهي، وغيّرتُ ثيابي، ونزلتُ للمطبخ آخر الأمر، لأشرب فنجانًا من القهوة، خرجتُ من المنزل بعد ذلك، مسرعًا نحو المستشفى، ككلّ يوم، وما إن وصلتُ حتّى وجدتُ المدير، يقف

عند مدخل المشفى، وهو يتفحّص الشّاردة، والواردة، فلا يمرّ طبيب، أو موظّف، إلّا ويسلّم عليه، ويفتح معه تحقيقًا، آااه.. متى سيقلع عن هذه العادة السّيّئة.

ركنتُ سيّارتي، في الجزء الخاصّ بسيّارات الموظّفين، ثمّ نزلت، وأنا أدعو الله مخلصًا، بأن ينقذني منه هذا اليوم أيضًا، لأنّه لم تعد لديَّ أيّ رغبة في الحديث، مع أيّ كان، بل لم تعد لي رغبة، في مجاملة أحد، اتّخذتُ طريقي، بين الحدائق، لأصل للباب الدّاخلي للمشفى، وبالرّغم من أنّ هناك طرقًا كثيرة، تؤدّي للدّاخل، إلّا أنّني ألفت المرور، بين تلك الحدائق، التي تُعتبر بالنّسبة لي، المتنفّس الوحيد، الذي ألجأ إليه أحيانًا كثيرة، للهرب من ضغط المشفى، بالمختصر، إنّها أجمل ما فيه، وصلتُ أخيرًا للباب الدّاخلي، وكم فرحت، حين وجدت نفسي أجتازه، دون أن يراني المدير، يبدو أنّ هناك أمرًا جللًا، قد وقع له، وإلّا لما أفلتني من قبضته.

دخلتُ لمكتبي، وأنا منهكٌ كليًّا، لأنّي لم أنم اللّيل بأكمله، كنت أفكّر طوال اللّيل فيما قالته نريمان، حين كانت تهذي، فبالرّغم من أنّني لستُ ممّن يؤمنون بعالم الرّوح، فأنا أؤمن بكلّ ما هو مادّي، بحكم دراستي للطّب، إلّا أنّ هناك شيئًا ما بداخلي، يخبرني بأنّ كلامها، لم يكن اعتباطًا، فأحيانًا يكون الحلم رسالة لنا، لنكتشف بعض الحقائق، التي نجهلها، في عالمنا المادّي هذا، لا أدري من أخبرني مرّة، بأنّ الإنسان حين ينام، فإنّ روحه تسافر في ملكوت الله - طيلة نومه - باحثة

عن بعض الحقائق، وتعود للجسد حين يستيقظ الإنسان.. تذكّرت، إنّه أستاذ الفلسفة، هو من أخبرنا يومها، بهذا الكلام، كنتُ حينها طالبًا، بالثّانوية.. لو فرضنا أنّ كلامه صحيح، إذًا من الممكن أن يكون الحلم، الذي راود نريمان، قبل موت سهيل صحيح.

- حامد.. صباح الخير.. لاااا.. أنت لست هنا أبدًا.

رفعتُ بصري، وإذْ به الدّكتور سمير يكلّمني، كنت مستغرقًا في أفكاري، لدرجة أنّني لم أنتبه لوجوده، إلّا حين نادى عليّ، فقمتُ من على الكرسيّ، ومددتُ يدي، لأسلّم عليه (قائلًا):

- دكتور سمير، أين أنت؟

- كنت مسافرًا خارج البلد.

- الحمد لله على عودتك سالمًا إذًا.

- أستأذنك في الذّهاب، لقد جئت، لأسلّم عليك فقط.

- إلى أين؟ خذني معك، لديّ زيارة تفقّديّة، للذين أجريتُ لهم عمليّات بالأمس.

ظلّ سمير يحدّثني، عمّا فعله في إنجلترا، حتّى وصلنا لطابق ما بعد العمليّات، أين التقينا بنور، التي كانت تسير، رفقة صديقتها رشا، وما إن رأتنا حتّى اقتربت، لتسلّم علينا، هي ورشا، وقد بدا على هذه الأخيرة الفرح، لمجرّد رؤيتي، فقد كانت من أوّل المعجبات بي، حين عُيّنتُ في هذا المشفى، وبالرّغم من تجاهلي لها، إلّا أنّها قد ظلّت مُصرّة، على إعجابها بي، بصراحة لا أدري السّر، الذي جعلني لا أرتاح

لها، ربّما لأنّها متطفّلة، وثرثارة، تمامًا كالمدير، وسُمعتها هذه أضحت فيما بعد معروفة، لدى العامّ، والخاصّ، ولهذا لم تجذبني يومًا، بالرّغم من محاولاتها المتكرّرة.

سلّمت نور علينا، وتلتها رشا، وبعدما رددنا السّلام عليهما، اعتذر منّي سمير، ليغادر بعدها، وبقيتُ أنا بين فكّي كمّاشة، نور من جهة، ورشا من جهة أخرى، سألتني نور:

- صحيح، كيف حال الدّكتورة لبنى؟ بما أنّها عادت للشّغل، فلا أوصيك عليها يا حامد، فهي إنسانة طيّبة، وجميلة.

فأجبتها بشكل مقتضب (محاولًا التّهرّب منها):

- بخير.. إنّها بخير.. حسنٌ، يجب عليّ تفقّد المرضى.. أترككما.

ولحقتُ بسمير، الذي كان قد سبقني، ببضع خطوات، أمّا هما، فقد أخذتا تتهامسان عليّ، وخاصّة رشا، التي التفتت لنور، وقالت:

- ألم أخبرك؟ قلتُ لكِ بأنّه معجبٌ بها، أرأيتِ كيف تهرّب منّا، بمجرّد أن جاءت سيرتها؟

سكتت نور، ولم تنطق بكلمة، في حين ظلّت رشا تثرثر، وتثرثر، وهي تندب حظّها العاثر، في كلّ مرّة:

- آه.. ليتني كنت مكانها، لا أعلمُ لِما أُعجب بها، ولم يُعجب بي؟

ظلّت نور صامتة، لتطلق بذلك العنان لذاكرتها، أين توقّفت عند نصائح أخيها، حين تحدّث معها آخر مرّة، طالبًا منها التّفكير بجدّية، في موضوع حازم، لأنّ العمر يمضي، وعليها أن تهتمّ بمصلحتها، بدل

التّركيز في أمور، لم يعد منها بُدّ، حسب قوله، بل عليها أن تمضيَ قُدُمًا للأمام، دون النّظر للخلف، ودون السّماح لأحاسيسها، بالتّطفّل عليها، في كلّ مرّة، ويبدو بأنّ نور قد اقتنعت، برأي أخيها أخيرًا، وخصوصًا حين لاحظ الكلّ اهتمامي المفاجئ بلبنى، هذا الاهتمام الذي لم تجد له نور تفسيرًا، وخصوصًا أنّها لا تعرف عن مرض لبنى شيئًا، لا هي، ولا رشا، ولا أيّ أحد في المستشفى، ما عدا أنا، والدّكتور سمير، الذي أخبرني بمرضها، والذي أخفته عن الجميع، حتّى أنا.. لا لشيء، سوى أنّها تكره أن ترى الشّفقة، في أعين من حولها.

***

فتحت نريمان عينيها، وحاولت جاهدة، التّركيز فيما حولها، لعلّها تتذكّر ما حدث، وفجأة التفتت، لتجد أمّي تنظر لها (وهي تبتسم):

- بما تحسّين الآن يا نريمان؟

فنظرتْ لها، محاولة تذكُّر اللّحظات الأخيرة، ثمّ اتّجهتْ عيناها فجأة لأبي، الذي كان جالسًا، في الجانب المقابل لأمّي، وهو يبتسم لها.. وقال:

- حمدًا لله على سلامتكِ يا نريمان.. لقد أخفتني عليك.

فدقّ قلبها بسرعة، فور رؤيتها له، حتّى إنّه ليُخيّل لمن يراها، بأنّها قد رأت شبحًا، وليس أباها.. اتّسعت عيناها، وبدأت بالصّراخ، وخاصّة حين اقترب منها أبي، أين قالت:

- ابتعد عنّي أيّها القاتل.. أنت قاتل.. قاتل.

فتراجع أبي للخلف، وقد بدَا عليه الانزعاج، من تلك الكلمات، التي على ما يبدو بأنّها، قد نفذت لقلبه، أمّا أمّي فحاولت تهدئتها، ولكنّها لم تكترث لكلامها، بل عادت لتصرخ مجدّدًا:

- اخرج من هنا، أيّها القاتل، لا أريد أن أراك هنا، هيّا أخرجوا هذا القاتل، من غرفتي.

فهرعت أمّي نحوه، وهي تطلب منه المغادرة (قائلة):

- دعها الآن.. إنّها تحت تأثير الدّواء.

في البداية لم يشأ أبي الخروج، من الغرفة، لأنّه أحسّ بأنّ كرامته قد أهدرت في لحظة، ولكنّ أمّي نبّهته بضرورة المغادرة، قبل أن يسمع الخدم صراخ نريمان، ليتنقّل الكلام، ويشيع بين النّاس، فحمل أبي نفسه، وعدّل قميصه بيديه، قبل أن يخرج آخر الأمر مستسلمًا.

***

عادت نور للبيت، بعد يومٍ كامل من العمل، كانت متعبة بما فيه الكفاية، لتغطّ في نوم عميق.. دخلت أختها الصّغرى لغرفتها، واقتربت منها، ثمّ جلست على السّرير، وقالت:

- نور.. نور.. استيقظي.

ولكنّها لم تتحرّك، لإحساسها بالإرهاق، فعاودت أختها الكرّة، لتقترب منها هذه المرّة، أين وضعت يدها الصّغيرة تلك، على شعر نور، ملاطفة إيّاها، ثمّ عادت للكلام مرّة أخرى:

- استيقظي، هيّا.. ألم تعديني في المرّة السّابقة، بأنّكِ ستحكين لي، حكاية علاء الدّين، والمصباح السّحري؟

فأبعدت نور الغطاء، عن وجهها، ونظرت لأختها مبتسمة، وقامت بعد ذلك من فراشها (قائلة):

- ولكن كم هي السّاعة الآن؟ لنرى.

وأمسكت هاتفها، لتتفاجأ بأنّها الثّامنة مساءً.. فقالت:

- كلّ هذا وأنا نائمة؟

ثمّ عادت لتقبّل أختها، وتعانقها، أين قالت لها:

- حسنٌ، سأغسل وجهي، وآتي لأحكيَ لكِ الحكاية.

دخلت عليها في هذه الأثناء، زوجة أبيها، وبعدما رمقتها بنظراتها المعتادة، التي توحي بمدى غيرتها منها، وكرهها لها.. قالت (بنبرة مليئة بالتّهكّم):

- ألن تأتي، لتأكلي معنا؟ أم إنّكِ تنتظرين في كلّ مرّة، لنناديَك؟

فأجابتها نور (محاولة تجاهلها):

- كلّا.. لا أريد أن آكل.. كلوا أنتم.

- ولماذا؟ أم ترانا لم نعد من مستواك، حين أصبحتِ طبيبة؟

فنظرت نور لها، ثمّ تأفّفت، وقامت لتدخل للحمّام، بعد أن قالت لأختها:

- انتظريني لدقائق، وسآتي، لأقصّ عليكِ الحكاية.

ودخلت للحمّام، لتغلق الباب على نفسها، في حين قالت زوجة أبيها، مستغربة من برودها الشّديد، وقد رفعت صوتها عن قصد:

- وكأنّني لا أكلّمها أصلًا، إنّها متعجرفة حقًّا.

ثمّ التفتت لابنتها، وصرخت فيها (قائلة):

- وأنت.. هل ستظلّين جالسة هكذا؟ هيّا.. قومي، لتتناولي العشاء.

فقالت البنت (وهي تترجّى أمّها):

- أرجوكِ يا ماما.. لا أريد أن آكل، قبل أن أسمع الحكاية.

فاقتربت منها، وقد استشاطت غيضًا، وسحبتها من يدها، والشّرر يتطاير من عينيها، ثمّ قالت:

- هيّاا.. لن يفسد طباعك، إلّا هذه الحكايات التّافهة، التي ترويها لكِ أختك.

كانت البنت تبكي، محاوِلة إيقاف أمّها، ولكن دون جدوى، بينما ظلّت نور حبيسة الحمّام، إلى أن خرجت زوجة أبيها، ودفعت الباب بقوّة، فخرجت نور، وقد ازداد مزاجها سوءًا عن ذي قبل، جلست على الكرسي، وفتحت الحاسوب، علّها تحظر مؤتمرًا طبيًّا، أو ما شابه، لكنّ سوء مزاجها أفسد عليها، متعة الانضمام للمؤتمر، فأغلقت الحاسوب، وأفسحت المجال لأفكارها، أين قالت لنفسها:

- إلى متى ستتحمّلين هذه الحياة يا نور؟ إلى متى ستظلّين حبيسة هذه الغرفة؟ إلى متى ستسكُتين عمّا يحصل، حتّى لا تُقلقي أباك؟ أما آن لكِ بأن تفكّري في نفسك؟

وسرحت بخيالها، وعادت بذاكرتها، للماضي القريب، وبالضّبط لكلام أخيها، فمنذ أن كلّمها بشكل جدّي، آخر مرّة عن حازم، وهي تفكّر في كلامه، في كلّ مرّة تحسّ فيها، بأنّها محبطة، ربّما قد يكون كلامه مثل النّور، الذي كانت تبحث عنه، وسط هذا الظّلام الدّامس، كلام أخيها قد فتح عينيها، على أمور كثيرة، لم تكن تراها، أو لم تهتمّ بها، فتأسيس عائلة، بغضّ النّظر عن وجود الحبّ نحو الشّريك، أم لا، في حدّ ذاته أمرٌ جميل، لم تكن تفكّر فيه مطلقًا، وكأنّها كانت تحتاج لكلام كهذا، منذ زمن، لكنّها لم تجد من يخبرها به، فبالرّغم من كونها متعلّمة، إلّا أنّها تظلّ محتاجة، لنصائح من هم أكبر منها سنًّا، في هذه الحياة، وكأنّ كلام مراد قد جاء في وقته المناسب، فنور لم تنفكّ تفكّر فيه، في كلّ مرّة تخلد فيها للنّوم، حتّى وإن كابرت أمام الجميع، إلّا أنّ كلامه قد بدا مقنعًا، بما فيه الكفاية، لتفكّر فيه بجدّية، في كلّ مرّة.

***

دخل المحامي للمكتب، وبعدما تحقّق الضّابط من هويّته، طلب من الحارس أن يحضر سعيد، وبعد لحظات من الانتظار، أعقبها دخول المتّهم سعيد، استأذن الضّابطُ المحاميَ بالخروج، ليتسنّى لهذا الأخير الحديث للمتّهم، فنظر المحامي لسعيد مليًّا، وبعد أن التفت خلفه، وتأكّد بأنّ الضّابط قد خرج، عاد لينظر لسعيد، وقال له (بصوتٍ خافتٍ بعد أن اقترب منه):

- السّيّد سالم يسلّم عليك.

فابتسم سعيد للمحامي، وكأنّه فهم المقصود من كلامه، عاد هذا الأخير للحديث مرّة أخرى:

- غدًا سيزورك أخوك، وستعرف ما يتوجّب عليك فعله.

فأومأ سعيد برأسه، بإشارة نعم، ولكنّه لم ينطق بكلمة، بينما عاد المحامي لحقيبته، وفتحها، ليخرج أوراقًا، من داخل ملفٍّ أزرق، مرّت لحظات تلتها عودة الضّابط ، وبعدما جلس استأذن المحامي، ليخرج، ولكنّ الضّابط قال له:

- لا زال لديك الوقت سيّدي، يمكنك البقاء، إن شئت.

فابتسم المحامي، وقال:

- أشكرك، ولكن يكفيني لهذا القدر، على أن أعود المرّة القادمة، لأسأله بشكل مفصّل.

فهزّ الضّابط رأسه، وابتسم للمحامي، الذي غادر، بعد أن مدّ يده مصافحًا إيّاه مرّة أخرى، ثمّ نادى للحارس، ليعيد سعيد إلى الزّنزانة.

***

خرج أبي من العمل، بعدما أحسّ بالتّعب، وبعد أن ركب سيّارته، أمر السّائق بالانطلاق، لبيته الثّاني، بالرّغم من أنّ هذا اليوم من نصيبنا، ولكنّ كلام نريمان لأبي آخر مرّة، وصراخها في وجهه، بل واتّهامها إيّاه بالقتل، كلّ هذا جعله يتجنّب المجيء، والتّحدّث معنا، أو حتّى النّظر إلينا، لقد صار يخشى نظراتنا له، وكأنّه يخاف من أن تفضحه عيناه، فهو ليس من النّوع، الذي يتظاهر بعكس ما يفكّر، وإن حاول جاهدًا،

دخل للبيت، وسط دهشة الجميع، بدءًا بزوجته، وجنّات أختي، مرورًا بالخدم، الذين استغربوا مجيئه المفاجئ، فأسرعت زوجته إليه (قائلة):

- سالم؟ ما الذي جاء بك؟ أأ.. أقصد أهلًا بك، لماذا لم تعلمني، لأحضّر لك غداءً، يليق بك؟

فقال (وهو يحاول التّظاهر بالمرض):

- أوه.. لا داعي لهذا، بصراحة كنت ذاهبًا للبيت، ولكنّني شعرتُ بالوهن فجأة، فأمرتُ السّائق بأن يوصلني إلى هنا، لأنّنا كنّا على مقربة من البيت.

- أوه.. حسنٌ، تعال لترتاح.

وأمسكت بيده، واقتادته لأقرب أريكة في الرّواق، وأمرت الخادمة بأن تضع الأكل بسرعة، وهي مسرورة جدًّا، فهي لا يهمّها أبدًا إن شعر أبي بالتّعب، أو مات حتّى، كلّ ما يهمّها، أن تغيظ أمّي.. نزل في هذه الأثناء هاني، وقبل أن ينتبه لوجود أبي، بادر (قائلًا بصوتٍ عال):

- صباح الخير يا أمّ هاني.

ولكنّه وبمجرّد رؤيته لأبي، حتّى تراجع للوراء، وقد اتّسعت عيناه، وبقي متسمّرًا، في مكانه للحظات، كان ينتظر ردّة فعل أبي خلالها، وخصوصًا أنّه قد تغيّب كثيرًا عن الشّغل، في الآونة الأخيرة، ولكنّ هذا الأخير لم يعره أيّ أهميّة، كما كان يفعل عادة، بل بقيَ شارد الذّهن، فاقترب هاني بحذر، ونظر لأمّه، وهو يومئ بعينيه، ويشير بيده، متسائلًا عن سبب مجيء أبي، في هذا اليوم.. ففهمت أمّه إيماءاته، وقالت:

- تعال، وسلّم على والدك، فقد جاء، ليتغدّى معنا اليوم خصّيصًا.

فاقترب من أبي، وقبّل رأسه، ثمّ قال بعد أن جلس:

- كيف حالك يا أبي؟

ولكنّ أبي بقيَ صامتًا للحظات، وكأنّه لا يسمع، ولا يتكلّم.. ثمّ انتبه له، فسأله (ببرود مفاجئ):

- لِما لم تأتِ للشّغل اليوم؟

فشعر هاني بالارتباك، وأعاد الملعقة لمكانها، ونظر لأبي، محاولًا أن يجد مبرّرًا لغيابه، ولكن دون جدوى، فنظر لأمّه، لعلّها تخرجه من هذه الورطة، فقالت:

- في الحقيقة.. أأ.. أ..

- ما بك.. أأكل القطّ لسانكِ يا امرأة؟ ثمّ إنّني سألته هو، إلى متى ستظلّين هكذا؟

قال أبي غاضبًا لزوجته، فأجابته:

- لقد كان مريضًا، ولذلك لم يحضر اليوم، أليس كذلك يا هاني؟

- بلى.. وقد كنت أريد أن أخبرك، ولكنّني خشيتُ غضبك.

نظر له أبي مليًّا، وكأنّه لم يصدّق حرفًا، وعاد ليضع الملعقة بفمه، وهو يفكّر في كلام نريمان، فقد أحسّ بالذّنب حيال الأمر، وربّما هذه أوّل مرّة يشعر فيها بالذّنب، فأخذ يحدّث نفسه:

- أكان الموضوع يستحقّ القتل يا سالم؟ ماذا فعل لك الشّاب، لتقتله؟ أيُعقل أن تكون ظالمًا، لهذه الدّرجة؟ أوه، ماذا فعلت يا سالم؟

طوال حياتك كنت قويًّا على الأشرار.. ولكن هذه المرّة الأولى، التي تمارس فيها قوّتك على إنسانٍ ضعيف، أيُعقل أن يعميك الجاه، فتصبح ظالمًا، تمامًا كأولئك الذين كنتَ تكرههم، في يومٍ من الأيّام؟

ثمّ رفع بصره، فوجد زوجته، تنظر له بذهول، في الحقيقة لم تكن وحدها، التي نظرت له باستغراب، فحتّى هاني هو الآخر، كان ينظر له باستغراب، وهو ينظر لأمّه، من حين لآخر، ويشير لها بعينيه، متسائلًا عن السّبب، الذي جعل أبي حزينًا، ومنكسرًا، لهذا الحدّ، فقال لهما:

- ما بكما؟ لِما تنظران لي هكذا؟

- أوه، لا، لا شيء، ولكنّك تبدو اليوم على غير عادتك، هل أتّصل بالطّبيب يا سالم؟

قالت زوجة أبي، فأجابها:

- لا داعي لهذا، سأذهب، لأرتاح في غرفتي، لا أريد أن يزعجني أحد، هل فهمتِ يا سعاد؟

***

جاء الزّوار من كلّ حدب، وصوب، لزيارة أقاربهم السّجناء، وكان من بينهم أخو سعيد، الذي وقف ينتظر دوره، في صفٍّ طويل، وبعد أن اطّلع الحارس على بطاقته، أمره بالدّخول، فدخل لقاعة كبيرة، بها العديد من المقاعد، نظر في كلّ الاتّجاهات، إلى أن عثر على أخيه، فاقترب ليسلّم عليه، ثمّ جلس بالقرب منه، وأخذ يتحدّث معه، ويسأله عن أحواله.. كانت القاعة تعجّ بالزّوار.. دنا أخو سعيد من هذا الأخير،

وهمس في أذنه، ببضع جمل على التّوالي، فابتسم سعيد، لسماع تلك الجمل، التي رسمت السّعادة على محيّاه، السّعادة التي فقدها، منذ أن وطئت قدماه هذا المكان، وحين انتهى أخوه من كلامه، قال:

- أَفهمت؟ هذا ما يتوجّب عليك فعله بالحرف، والباقي سيتكفّل به السّيّد سالم.

فأومأ سعيد برأسه بنعم، وفي هذه الأثناء صاح الحارس (قائلًا):

- هيّا يا شباب، انتهت الزّيارة.

فخرج الجميع، من باب القاعة تباعًا، أمّا المساجين فتمّ اقتيادهم، إلى الزّنزانة.. إلى أن يحين موعد الزّيارة القادم.

***

كان هاني يتجوّل في الشّركة كعادته، يأمر هذا، ويصرخ في ذاك، وكأنّه المتحكّم في الشّركة، والمتصرّف فيها.. بصراحة، كان لا يتصرّف هكذا، إلّا حين يغيب أبي، فإنّه يستغلّ فرصة غيابه، ليفعل الأعاجيب.. نظر موظّفٌ لزميله، وهو يتأفّف، ثمّ قال:

- ما هذا كلّه؟ أيُعقل أن نقوم بكلّ هذا؟

فردّ عليه الآخر (وقد بدا عليه الانزعاج):

- هذه أوامر السّيّد هاني، ألم تسمعه، وهو يؤكّد علينا، بأن ننهيه اليوم؟ إذًا.. اشتغل، ولا تبدِ أيّ اعتراض.

- ولكنّه ليس المسؤول عنّا، المسؤول هو خاله، هذا ليس عدلًا.

- إلى متى ستظلّ مثاليًّا؟ هذا الشّغل الذي بين يديك، هو الشّغل، الذي من المفروض، بأنّ السّيّد هاني هو من يؤدّيه، لأنّه من اختصاصه، ولكن بما أنّ والده (صاحب الشّركة) غائبٌ اليوم، فهاني يستغلّ غيابه، ليتعرّف على الموظّفات الجديدات، وفي الوقت نفسه، ينهي شغله، عن طريق المساكين أمثالنا، بالمختصر، دعنا ننهي عملنا بسلام، وإلّا فسنُطرد نحن، لأنّه ابن صاحب الشّركة.. علينا إذًا أن نتحمّل غباءه.

سار هاني بين المكاتب، نافخًا صدره كديكٍ رومي، إلى أن دخل لمكتب به موظّفتان، إحداهما جديدة في الشّغل، وهذا الأخير لم يرها، إلّا اليوم.. اقترب منها، ثمّ سألها:

- أنتِ جديدة في الشّغل، أليس كذلك؟

فأجابت البنت (بمنتهى اللّطف):

- أجل سيّدي.

فابتسم حين سمع كلمة سيّدي، وعاد لجدّيته المصطنعة تلك، ثمّ قال لها:

- حسنٌ.. أكملي شغلك.

عاد هاني لمكتبه، بعد أن قام بجولة سريعة، على كافّة الموظّفين، وما إن جلس حتّى راح يفكّر، في تلك الموظّفة الجميلة، ويردّد اسمها، بين الحين، والآخر، فقال (وهو يبتسم):

- وردة.. اسمٌ جميل، وفريد في الآن نفسه.

وفي هذه الأثناء دخل عليه خاله، ليفسد عليه سعادته، ويقطع حبل أفكاره، وتأمّلاته، ثمّ قال:

- أين كنت يا هاني؟ ألم أنهك عن ضرورة الابتعاد، عن المشاكل؟

- ولكن ما بك يا خالي؟ عن أيّ مشاكل تتحدّث؟

- جولاتك المتكرّرة، وخاصّة حين يغيب والدك، اسمع يا هاني، لن يرحمك أبوك، لو اشتكى عليك أحدهم، لا تكن ساذجًا، واكسب ثقته، ولو لمرّة في حياتك، هل أنت مستعدٌّ أن ترى أخاك خالد، مديرًا للشّركة؟ خفّف من زياراتك المتكرّرة للعمّال، دعهم وشأنهم.

- ولكن ما بك يا خالي؟ من ذا الذي يشتكي عليَّ لأبي؟ ثمّ دعنا من هذا الحديث الآن، أريد أن أسألك عن موظّفة، تمّ توظيفها الأيّام الماضية، اسمها (وردة. ل).

- أتريد أن تسيء لسمعة الشّركة؟ ماذا سيقول النّاس، حين يعلمون أنّ ابن صاحب الشّركة، يطارد الفتيات؟ ابتعد عن الموظّفات أرجوك.

- هيّا يا خال، لن أؤذيها، أريد بعض المعلومات عنها فقط، أعدك.

- ماذا عساي أفعل مع هذا المجنون؟ هي ابنة مدير البنك، الذي يقع في شارع السّلام، وأبوها يكون من أعزّ أصدقاء والدك، لذا أنصحك بالابتعاد عنها.. لا تسبّب لنا المزيد من المشاكل.

فاتّسعت عينا هاني، وسرح بخياله بعيدًا، ضاربًا بكلام خاله عرض الحائط، ثمّ قال لنفسه، بعد أن خرج خاله، وتركه بمفرده:

- ابنة مدير البنك، شيءٌ جميل جدًّا يا هاني، بنت جميلة، ورقيقة، وفوق هذا من عائلة محترمة، لو نجح ما في بالي، فسأكون قد اخترتُ كنّة، كما تحبّ أمّ هاني، فالبنت فيها كلّ المواصفات، التي تريدها أمّي، وبهذا فلن تقف في طريقي، كما تفعل في كلّ مرّة، أتعرّف فيها على فتاة جديدة.

قال كلامه، وهو يضحك، ثمّ عاد للحديث ساخرًا، من أمّه، وهو يحاول تقليد صوتها (قائلًا):

- اسمع يا هاني.. لا أريد أن تجلب لي بنتًا مُعدمة، كما فعل أخوك حامد، أريدك أن تصطاد بنتًا، عليها القيمة، وإلّا فلا مكان لك بيننا، أتفهم يا ولد؟ لا تشمّت فيَّ أعدائي.

وضحك مرّة أخرى، قبل أن يتساءل في قرارة نفسه، عن تصرّفات الحموات غير المنطقيّة، فهنّ دائمًا ما يفكّرن في توافه الأمور:

- لا أعرف لِما كلّ الحموات هكذا؟ ما بها البنت التي تنتمي لعائلة بسيطة؟ أنا شخصيًّا لا يهمّني فقر، أو غنى المرأة، فالرّجل هو المسؤول عنها، كم هو غريبٌ حال الإنسان، أمّي كانت من عائلة بسيطة، قبل أن تتزوّج أبي، لكنّها أصبحت اليوم، تحكي كباقي نساء الطّبقة الغنيّة.. ولكن ما بها سارة؟ هي أيضًا جميلة، وطيّبة، ولولا ظروفها لخطبها كلّ رجال البلد.

***

كنتُ في غرفتي، أحضّر نفسي للخروج، وإذْ بأمّي تدخل فجأة:

- صباح الخير.

- صباح الخير يا أمّي.

- هل أنت ذاهبٌ لتزور زوجتك، كما أخبرتني البارحة؟

- أجل.. أريد أن أرى ليث، كيف حال نريمان؟

- بخير.. إنّها اليوم أحسن حالًا.

جلستُ على السّرير، لأرتديَ حذائي.. ثمّ استأنفتُ الحديث:

- لقد قرّرنا - أنا وأختي فلّة - أن نخصّص يومًا، في الأسبوع القادم، لنخرج كلّنا، ونستجمّ في أحد الأماكن الجميلة، لنساعد نريمان، على الخروج من حزنها، ما رأيك؟

- إذا وافقتْ نريمان، فلا بأس، ولكن مالي أراك منزعجًا؟

- لا أعرف، ولكن لا أريد الذّهاب، لبيت أهل زوجتي.. لا أطيق تصرّفاتهم الفظّة.

- إن شئت، فلا تذهب.

- أنتِ تعرفين أبي، وعناده، لقد أصبحت قراراته بمثابة العبء، الذي يجثم على صدري، لدرجة أنّي لم أعد أطيق، تنفيذ رغباته، ولكن ما باليد حيلة، ثمّ إنّي لا أريد أن أظلم زوجتي، سأتحدّث إليها اليوم، وإن لم تشأ الرّجوع، فذاك شأنها.. لا أريد أن أحسّ بالذّنب اتّجاهها.

خرجتُ من البيت، وسرت بين تلك الطّرقات، إلى أن وصلتُ عند صيدليّة، كنت قد تعوّدتُ أن أقتنيَ منها بعض الأدوية، فتوقّفتُ عندها، لأشتريَ أدوية لنريمان، وركبت السّيّارة مجدّدًا، وسرت إلى حيث منزل

صهري، وبعد أن دقّيتُ الباب، فتحت لي جنى، في البداية لم تصدّق، بأنّي عدتُ لأصالحها، فوقفتْ لثوان، وهي ترمقني بحيرة، إلى أن جاء صوت، من أعماق المنزل، يتساءل عن الذي يقف وراء الباب، فقالت جنى (بصوتٍ مرتفع):

- هذا حامد يا أمّي.

فجاءت أمّها، وهي تحثّ الخطى نحوي، وقالت:

- حامد؟ كيف حالك يا بنيّ؟ تفضّل.. تفضّل.

ثمّ نظرت لابنتها، وقالت (معاتبة):

- أتتركين زوجكِ واقفًا هكذا، خلف الباب؟ ماذا سيقول عنّا؟

جلستُ في الصّالون، وجلست حماتي بجانبي، بعد أن طلبتْ من جنى، بأن تعدّ لي فنجان قهوة، ثمّ سألتني عن أهلي، فأخبرتها بأنّهم بخير.. وبعدها سألتني عن نريمان (قائلة):

- وكيف حال أختك نريمان؟

- بخير.. إنّها تتحسّن شيئًا فشيئًا.

- مسكينة، كان الله في عونها، أختك نريمان هي أطيب واحدة، في العائلة، لطالما حكت لي جنى عنها.. اعذرني يا بنيّ، لم أستطع الحضور، لأعزّيكم في مصابكم.

- لا عليك.

دخلت في هذه الأثناء جنى، وفي يدها صينيّة، بها فنجانين من القهوة، وضعتها على المائدة، وجلست، أمّا والدتها فقد استأذنت:

- سأترككما، لتتحدّثا على انفراد.

فانتهزتُ الفرصة، لأطلب منها قبل خروجها، بأن تحضر لي ليث، لأراه، ثمّ عدتُ للحديث مع جنى، فقلتُ لها باختصار:

- لقد جئت إلى هنا، لأعيدك للبيت، إن شئتِ العودة طبعًا.

فسكتتْ قليلًا، ثمّ قالت:

- لا أريد العودة لذاك المنزل، فلا أحد يحبّني هناك، إلّا عمّي.

لم أدرِ ما أقول، فسكتُّ.. وفي هذه الأثناء دقّت حماتي الباب، مستأذنة بالدّخول، وهي تحمل ليث، ثمّ اقتربت منّي، وقالت:

- خذ ابنك.

حين رأيتُ ابني، توقّفتُ عن الكلام، وانشغلتُ بملاعبته، وتقبيله، أمّا جنى فقد ظلّت تنظر لي باستغراب، وحيرة.. ثمّ قالت:

- ما بك؟ لِما لم تعلّق على كلامي؟

فأجبتها (بغضب):

- وماذا تتوقّعين منّي أن أفعل؟ هل آخذك بالقوّة؟

- لا.. لا تفعل شيئًا، فأنت مشغول مع زميلتك لبنى، أليس كذلك؟

- لبنى؟ وما علاقتها بموضوعنا؟

- الحمد لله أنّك مازلت تتذكّر موضوعنا.

- لا.. لا يمكنني مواصلة الحديث، بهذا الشّكل.

وقمتُ لأخرج، فتفاجأتُ بحماتي تسرع نحوي (قائلة):

- ألن تتغدّى معنا يا حامد؟

- لا.. شكرًا، في المرّة القادمة، إن شاء الله.

ثمّ انصرفت، تاركًا إيّاها توبّخ ابنتها، على صنيعها هذا (قائلة):

- ألا يمكنكِ التّعامل بشكل صحيح، ولو لمرّة؟ الفظاظة تسري في دمك، تمامًا كوالدك، ابقيْ هكذا، لتخسريه للأبد.

***

في اليوم المُوالي نزل هاني باكرًا، على غير عادته، أين وجد أمّه، ترتشف القهوة، وبعد أن قبّلها، جلس إلى جانبها، وقال:

- صُبّي لي فنجانًا، من فضلك.

فاستغربت أمّه، من استيقاظه باكرًا، ورمقته بحيرة، رافعةً حاجبيها للأعلى، وقالت:

- ومنذ متى صرت تستيقظ، في الصّباح الباكر يا ولد؟

- منذ هذه اللّحظة يا أمّي، لقد قرّرتُ أن أتغيّر كليًّا، أليس هذا ما تريدينه؟ أن أكون نشيطًا، وأهتمّ بشغلي، تمامًا مثل أخي حامد؟

- المشكلة هي أنّني لا أستطيع أن أصدّقك، أتعلم؟ عندي أكثر من عشر سنوات، لم أرك في الصّباح الباكر، لقد تعوّدتُ على رؤيتك فقط، في آخر اللّيل كالشّبح.

فضحك هاني، حتّى بانت نواجذه، كانت هذه أوّل مرّة يضحك فيها، فهو دائم العبوس، بالإضافة لكونها أوّل مرّة ينزل فيها باكرًا، وبهذا النّشاط، فهو دائم الخمول، والسّهر مع شلّة السّوء، التي تعرّف عليها، في الجامعة.

- لا.. أنا صرت شبحًا؟ أهذا كلامٌ تستقبلين به ابنك، في الصّباح؟

- أيّ صباح باكر يا ولد، إنّها التّاسعة، على كلّ حال أخبرني، هل تنوي الذّهاب للعمل؟

- إلى أين إذًا؟ طبعًا أنا ذاهبٌ للشّغل.

- اسمع يا هاني، لا أريدك أن تفسد علينا، كلّ شيء، عليك أن تكسب ثقة أبيك، أتفهم؟

- أوه، ما بك يا أمّي؟ أنتِ هنا، وخالي في الشّركة، ما بكما؟ في كلّ مرّة أقابل فيها أحدكما، إلّا ويسمعني هذه النّصائح القيّمة، لقد مللتُ يا أمّي، ارحميني.

- اشرب القهوة، وأنت صامت، وإن كنتُ متأكّدة، من أنّك ستعود لطبعك، ولكن ماذا عساي أفعل، إلّا أن أصبر، لأرى ما يمكنني فعله..

- ماذا قلتِ يا أمّي؟

- لستُ أكلّمك.. اشرب، وأنت صامت.

***

كان الضّابط يتحدّث في الهاتف، أين استأذنه الحارس بالدّخول، فأشار له بيده، بأن يدخل، وبعد أن أنهى المكالمة، سأله:

- ماذا هناك؟

- سيّدي.. أحد المساجين يبدو في حالة حرجة.

قام الضّابط من مكانه، برفقة الحارس، ليرى ما الذي أصاب هذا السّجين، دخل للزّنزانة، ليجد المساجين ينظرون باستغراب، وحزن في

الوقت نفسه، لسجين يجلس بزاوية منفردًا، ويحدّث نفسه، فيضحك تارة بصوتٍ عال، ويسكت قليلًا، ليعود للضّحك، فاقترب الضّابط منه، بعد أن أبعد أولئك السّجناء، الذين التفّوا حوله، فوجد بأنّ هذا الشّاب، هو سعيد، الذي جيء به، في قضيّة مقتل سهيل، فاستغرب لرؤيته بهذا الشّكل، ثمّ اقترب منه أكثر، لينصت لما يقوله:

- لم أكن أريد أن أقتلك، ولكنّك اضطررتني لقتلك، حين وقفت بيني، وبين غريمي.. كنت أريد أن أقتله هو، لا أنت!

وسكت قليلًا، قبل أن يعود للحديث (وهو يضحك هذه المرّة):

- ولكنّك تستحقّ القتل، لأنّك دافعت عن انتهازي، هذا جزاء كلّ من يدافع عن الآخرين.

ظلّ سعيد يضحك، ويضرب كفًّا بكفّ، إلى أن اختلط الضّحك، بالبكاء فجأة:

- ولكن.. ولكن أرجوك لا تبك، أنا لم أقصد الإساءة، سامحني.

فنظر الضّابط للحرّاس، ثمّ أشار إليهم بأن يجلبوا سعيد معهم، أمّا باقي السّجناء فقد ظلّوا في أماكنهم، من الصّدمة، فقد هالهم منظره، أمّا هو فقد ظلّ يكلّم نفسه، فيضحك تارة، ويبكي تارة، غير منتبه لهم.

- لا حول ولا قوّة إلّا بالله.. مسكينٌ هذا الشّاب.

يقول أحد السّجناء لصديقه، فيردّ الآخر عليه (بنفس الحزن):

- لقد انتهت حياته هنا، لقد جُنّ كليًّا.

أخذ الضّابط سعيد، لعيادة السّجن، ليخضع للفحص، من طرف طبيب الأمراض النّفسيّة، فنظر هذا الأخير له نظرة فاحصة، ثمّ سأله عن بعض الأمور كاسمه، وسنّه، وغيرها، لكنّ سعيد لم يجبه عن أيّ سؤال، بل بقي شارد الذّهن تمامًا، وعيناه تنظران للأرضيّة، ولا تنظران لغيرها.. فالتفت الطّبيب للضّابط، ثمّ قال (متأسّفًا):

- أعتقد بأنّه يعاني من اكتئابٍ حاد..

فنظر الضّابط لسعيد، ثمّ التفت للطّبيب (قائلًا):

- وما العمل الآن؟

- سأكلّمه مجدّدًا، لعلّه يستجيب، وإلّا فسيُحوّل لمشفى الأمراض العقليّة، والنّفسية.

وقف الضّابط، وسار قاصدًا الطّبيب، ثمّ همس في أذنه:

- وهل أنت متأكّدٌ بأنّه مريضٌ فعلًا؟

- هذا مؤكّد، أنا متخصّصٌ في المجال، ولا يمكن أن تنطليَ عليّ هذه الخدعة.

فعاد الضّابط، ليجلس في مكانه، بينما واصل الطّبيب طرح أسئلته على سعيد، ولكنّه لم يصدر أيّ استجابة، تمامًا كالمرّة الماضية، كان لا يزال شارد الذّهن، وبقيَ على هذا الحال للحظات، قبل أن يرفع نظره بشكل مفاجئ، لزاوية الغرفة، وقد اتّسعت عيناه، وتجمّدت أطرافه، من شدّة الخوف، ثمّ قام فجأة، وصاح (قائلًا):

- لا تقتلني يا سهيل، أرجوك.

وركض، ليختبئ خلف الطّبيب، أمام دهشة الضّابط، الذي التفت للزّاوية، التي كان ينظر لها سعيد، لعلّه يرى شيئًا، ولكن لم يكن هناك أيّ شيء.. نظر الطّبيب للضّابط، وقد بدت عليه الدّهشة، هو الآخر، ثمّ عاد ليلتفت لسعيد، وقال (متسائلًا):

- مع من تتكلّم يا سعيد؟

فأشار سعيد بإصبعه، لزاوية الغرفة، وقد ارتعدت فرائسه، وقال:

- سهيل.. سهيل يقفُ هناك، وهو يحمل سكّينًا في يده، إنّه.. إنّه.. يريد قتلي.

فقال الطّبيب لسعيد:

- ولكنّنا لا نرى شيئًا يا سعيد.

- أجل، أجل، تلك خدعة، إنّه يختبئ، حتّى لا ترياه، لأنّه يخاف.

كان سعيد يتكلّم، ويلتفتُ يمينًا، ويسارًا، وقد بدا عليه الاستعداد التّام.. نظر بشكل مفاجئ، للخزانة المقابلة، لمكتب الطّبيب، وابتسم (بخبث):

- إنّه هناك.. هناك.. فوق الخزانة.

وضحك بشكل هستيري، أمام دهشة الضّابط، والطّبيب، واندسّ أخيرًا تحت المكتب، أين أخذ يقول:

- لا أريد أن أموت.. أرجوكم.

وعاد للبكاء مرّة أخرى، وقد وضع رأسه بين ركبتيه، ثمّ أغلق أذنيه بيديه، وكأنّه يسمع أصواتًا، تهدّده بالقتل، فيقول على إثرها:

- لا.. لا.. دعوني وشأني، أرجوكم، ابتعدوا عنّي.

***

- ولكن ما المشكل، إذا جئتُ بها إلى هنا؟

- في الحقيقة، ليس هناك أيّ مشكل، لكنّي أعرفك جيّدًا يا هاني، وأعرف ما تريد منها، لقد سبق وقلتُ لك، بأنّها ليست كالبقيّة، افهم.

- أعرف هذا جيّدًا، ثمّ من قال لك، بأنّني أفكّر في أذيّتها؟

- وماذا تريد منها إذًا؟

سكت هاني، وقد احمرّ وجهه من الخجل، فقال له خاله مستغربًا السّر، وراء خجله:

- ما بك؟ لم أعهدك خجولًا، إلى هذا الحدّ؟

- بصراحة يا خالي، لقد أعجبتني هذه البنت، وأريد أن أتزوّجها.

وهنا لم يتمالك خاله نفسه، من الضّحك، وقال (متعجّبًا):

- هاني يريد أن يتزوّج؟ ما هذه النّكتة الغريبة.

وخرج ليتركه بمفرده، بينما بقي هاني في مكانه لا يبرحه، وقد بدا عليه الانزعاج، من سخريّته، أخرج سيجارة من جيبه، وأشعلها، وقال:

- حتّى أنت يا خالي؟ حسنٌ، سترون كلّكم بأنّني أستطيع أن أكون مسؤولًا، وليس هذا فقط، بل سأتفوّق على الجميع.. سترون.

وسكت قليلًا، بعد أن أخذ نفسًا، من تلك السّيجارة، وبعدها قام، واتّجه للنّافذة، وفتحها، ليطلّ على الحديقة، فابتسم حين رأى الورود، تملأ الحديقة، ثمّ قال (وهو يضحك):

- وردة.. إنّه حقًّا اسم شاعري، وجميل، تمامًا مثلكِ أيّتها الوردة.

***

- ألو، إلياس.. ماذا عندك؟

- سيسافر الأسبوع القادم، لإحضار بضاعة جديدة.

- جميل.. ابقَ على اتّصال بي إذًا، وحاول أن تعرف وجهته.

- أمرك سيّدي.

أغلق مروان الهاتف، ثمّ استدار بكرسيّه، ناحية المكتب، وقال:

- حانت ساعتك يا سالم، سأنتقم منك شرّ انتقام، لأريك من هو مروان، أنا من سيضع حدًّا لحياتك، انتظر، وسترى.

وسحب نفسًا عميقًا، من السّيجارة، التي بين يديه، ثمّ أطلقه في الهواء مرّة أخرى، ليشكّل سحابة، عمّت أرجاء الغرفة، وعاد للضّحك بصوتٍ عال، وهو يُمنّي نفسه بالبشائر، التي ستأتيه بعد أيّام، حين يوقع سالم في الفخّ، الذي نصبه له بإحكام، هذه المرّة.

***

ركب هاني سيّارته، ليخرج من الشّركة، وبمجرّد تجاوُزه للشّركة بقليل حتّى وجد وردة، وصديقتها واقفتين، أين كانتا تنتظران أحدًا ما، فاستغلّ الفرصة ليقترب منهما، ثمّ ركن سيّارته، وفتح النّافذة، وقال:

- ما رأيكما لو أوصلكما في طريقي؟

فنظرت وردة لصديقتها بارتباك، فما كان من الثّانية إلّا أن تنظر لها هي الأخرى، ولكنّهما ظلّتا صامتتين، وهنا عاد هاني للحديث:

- هيّا.. اركبا، ولا تخجلا.. لن أؤذيكما، أعدكما بذلك.

ثمّ ضحك، فنظرت وردة لصديقتها، وأمسكت بيدها، وقالت:

- هيّا بنا..

- ولكن يا وردة؟

- قلت لكِ هيّا، إلى متى ستظلّين جبانة، إنّه ابن صاحب الشّركة، لن يؤذينا.. هيّا.

ركبت وردة بجانب هاني، بينما جلست الثّانية في الخلف، وهي تنظر من زجاج النّافذة، لتتأكّد من أنّ أحدًا لم يرها، تركب السّيّارة.

- تبدو صديقتكِ متوتّرة، بعض الشّيء، أليس كذلك؟

قال هاني لوردة، وهو يبتسم، فردّت عليه:

- أوه.. أجل.

- حسنٌ.. إذًا سنوصلها هي أوّلًا.

ونظر لصديقتها، من المرآة الأماميّة للسّيّارة، ثمّ عاد ليسألها:

- إلى أين آخذك؟

- للشّارع الأخير على اليسار.. أريد أن أشتريَ بعض المستلزمات.

***

أوصل هاني رفيقة وردة، إلى حيث تريد، ثمّ استأنف السّير، وهو يُمنّي نفسه، بقضاء بعض الوقت، رفقة وردة.. سكت قليلًا، ثمّ قال:

- ما رأيكِ لو نشرب القليل من العصير، في تلك الكافيتريا؟

وأشار بيده لكافيتريا، تقع بالجهة المقابلة، فشعرت وردة بالحرج، ولم تدرِ بما تجيب، حتّى أحسّ هاني بأنّ الفكرة لم ترقها، فقال:

- إن لم يكن لديكِ مانع.. طبعًا.

- أوه.. لا بأس بذلك، ولكن شريطة ألّا أتأخّر.

- لكِ ذلك.

دخل هاني ووردة للكافيتريا، وكان كلّ من يراه يلقي التّحيّة عليه، ممّا أثار استغراب وردة، ودهشتها، فقالت له:

- يبدو بأنّك من الزّبائن الدّائمين هنا.

فابتسم.. وقال لها:

- كلّا، ولكن تستطيعين القول، بأنّني من الشّخصيّات المعروفة.

فنظرت له باستغراب، ثمّ قالت:

- كنت أعرف بأنّ والدك رجل أعمال، ولكن أنت؟ بصراحة.. كنت أعتقد بأنّك موظّف، في شركة والدك.

فقاطعها (وهو يضحك):

- أنا أمزح معك، لِما تأخذين الأمور، على محمل الجدّ هكذا؟

وتوقّف عند طاولة، تطلّ على البحر، ثمّ طلب منها الجلوس، كان المنظر في الخارج جميلًا، فالشّمس قد مالت للشّق الغربيّ للسّماء، لتبعث بتلك الأشعّة الدّافئة، فتلامس الرّوح، وكان البحر هادئًا أيضًا، هدوؤه الذي يبعث على السّلام الدّاخلي، أخذت وردة تتطلّع للبحر، وقد سرحت في تلك الأجواء، لقد كانت أمسية ساحرة حقًّا، عاد هاني

ليركّز بنظراته لها، بعد أن فرِغ من الحديث للنّادل، كان ينظر لها هو الآخر، بعين الإكبار، وإن لم تكن له معرفة بها، طويلة الأمد، فهو لم يعرفها إلّا من أيّام، هدوءها أحيا في داخله تلك المشاعر النّبيلة، وأيقظ كلّ المعاني السّامية، في نفسه لأوّل مرّة، فرغم تعرّفه على الكثيرات، إلّا أنّه لم يرَ بمثل جمال هذه البنت، ولا رقّتها، وطيبتها التي تبدو جليّة على وجهها البشوش غالبًا، كان هاني يقلّب عينيه من حين لآخر، بينها وبين منظر البحر الجميل، وكأنّه يربط هدوء البحر بهدوئها.

- أتعلمين يا وردة؟ لم أرَ البحر هادئًا، في حياتي من قبل، ربّما هذه أوّل مرّة أراه بهذا الجمال، والسّبب جمالك، الذي أضفى عليه سحرًا، لم تره عيناي من قبل.

ابتسمت وردة، وقد احمرّت وجنتاها من الخجل، وطأطأت رأسها، ثمّ قالت:

- شكرًا.

- أتعلمين؟ منذ أن رأيتكِ أوّل مرّة، لم أتوقّف عن التّفكير فيك.

فاستغربت وردة من كلامه، وقطّبت حاجبيها، في إشارة منها لعدم تصديق كلامه، وحين رأى هاني منها ما رأى، قال:

- أعرف بأنّكِ لا تصدّقين أيّ كلمة، ممّا قلت، فأنا في نظر الكلّ، شابٌّ مستهتر، وتافه، ومدلّل.

- لا.. لا، أبدًا، ليس هذا ما أفكّر فيه، ولكن لا يمكنني أن أصدّق، بأنّ شابًّا مثلك، تتمنّاه جميع الفتيات، يقول كلامًا كهذا.

- لن أكذب عليك، إن قلتُ بأنّني قد عرفتُ الكثيرات، ولكن هذه أوّل مرّة أحسّ فيها، بهذا الإحساس، ربّما لأنّكِ مختلفة عنهنّ.

كانت وردة تصغي لكلامه، والابتسامة لم تفارق محيّاها أبدًا.. أمّا هو فلم يبعد عينيه، من عليها.. رفع كوب العصير بعدها، وقال:

- اشربي العصير، قبل أن يبرد.

فضحكت من كلامه، ثمّ قالت:

- وهل يبرد العصير؟

- أمازحكِ فقط، فأنا لا أستطيع أن أكون جديًّا، لأكثر من ساعة، يكفي بأنّني تصرّفتُ بجديّة، منذ أن ركبتِ معي في السّيّارة.

- ما يعجبني فيك يا هاني، هو أنّك إنسانٌ صريح، بالرّغم من كلّ ما يقوله عنك الآخرون.

- الصّراحة هي الميزة الوحيدة، فيّ يا وردة.

وضحك، ثمّ عاد للحديث مرّة أخرى:

- للمرّة الثّانية.. اشربي العصير، قبل أن يبرد.

فضحكت وردة، ثمّ حملت الكوب، وقالت:

- حسنٌ.. أمرك سيّد هاني.

***

سافر أبي كعادته خارج البلد، ولكنّه لم يسافر لوحده، هذه المرّة، فقد أخذ بعضًا من رجاله معه، وبعدما أقلعت الطّائرة.. ها هي ذي الآن

توشك على الهبوط، كان أبي في هذه الأثناء يجري اتّصالاته، التي لا تنتهي:

- عليك أن تهتمّ بالشّغل في غيابي، لا أريد أن يتغيّر أيّ شيء، عمّا كان، ريثما أعود.. هل تفهم؟

أغلق أبي هاتفه، واستعدّ للنّزول من الطّائرة، بعدما استقرّت، فوق أرضيّة المطار، رنّ هاتفه مجدّدًا، فأخرجه ليرى من المتّصل، ثمّ ردّ:

Hi, Mr Anatoly.. How are you !

Welcome Mr Salem.. We are waiting for you, as we agreed.

أعاد أبي هاتفه لجيبه، بعدما ركب سيّارة رباعيّة الدّفع، كانت في انتظاره، هو ومن معه، خارج المطار، ثمّ أمر السّائق بالانطلاق.. توقّفت السّيّارة بعدها، عند مصنع معزول عن المدينة، بحوالي عشرة كيلومتر، ونزل أبي، ورجاله، وساروا خلف السّائق، إلى الدّاخل، أين كان مستر أناتولي ينتظرهم، مع رجاله، وما إن دخل أبي حتّى أسرع هذا الأخير، ليسلّم عليه، ويسأله عن حاله، فأخبره أبي بأنّها قصّة طويلة، يصعب شرحها، فعاد أناتولي للكلام، وأشار بكلتا يديه للبضاعة، التي ملأت المصنع برمّته، وقال:

Look at all this.. Every thing you asked for is here.

فنظر أبي يمينًا، ويسارًا، وهو منبهر بكميّة الأسلحة، وأنواعها التي لا تُعدّ، ولا تُحصى، ومن شدّة انبهاره، سار دون شعور منه للأسلحة، متفحّصًا إيّاها بشغف، فأثار إعجابه مسدّسٌ ألمانيُّ الصّنع (هيكلر آند

كوتش) وأخذ يقلّبه بين أنامله، ثمّ وضعه، وانتقل لرشّاشٍ كان موضوعًا، إلى جانبه، حمله بين يديه، وأخذ يقلّبه، تمامًا كما فعل مع المسدّس، ثمّ وضعه جانبًا، لينتقل لأسلحة أخرى، وظلّ على هذا الحال، ما يقارب الرّبع ساعة، ثمّ التفت لمستر آناتولي، وأشار له بيده، على موافقته على شراء البضاعة كلّها، وهنا ابتسم الرّجل، وأومأ برأسه لأبي، ثمّ أشار بيده لرجاله، حتّى ينقلوا البضاعة، إلى حيث يأمرهم أبي.

***

- أخبرني دكتور.. هل حالة سعيد تستدعي بقاءه، في المشفى؟

- حسنٌ، لن أخفيك يا حضرة الضّابط، على سعيد أن يبقى هنا، فهو يعاني من نوبات اكتئاب، كانت تزوره من حين لآخر، حتّى قبل أن يرتكب هذه الجريمة، لقد أمرتُ بإخراجه آخر مرّة، بناءً على طلب ذويه، ولكنّني شدّدتُ عليهم، بل ونبّهتهم بضرورة إعادته، في حال ما إذا بدر منه، أيّ تصرّفٍ غريب، ولكنّهم لم يمتثلوا، لما طلبتُ منهم، وهذا حال أغلب العائلات سيّدي.. فهم لا يريدون أن يفهموا، بأنّ أبناءهم مرضى نفسيًّا، ويجب أن يتعالجوا، وإلّا فإنّ حالتهم ستتفاقم، وتزداد سوءًا، وخصوصًا إذا لم يتلقّوا العلاج، في الوقت المناسب.

سكت الضّابط، وقد أحسّ بغصّة في حلقه، وحزن، وحسرة على سعيد، الذي يبدو بأنّه فقد عقله كليًّا، ولكنّه لم ينطق بكلمة واحدة.. أومأ برأسه في الأخير مستسلمًا، ثمّ قام، وصافح الطّبيب، وقال:

- حسنٌ.. سأتكفّل بضبط كافّة الأوراق اللّازمة، لتحويل سعيد إلى هنا، أستأذنك الآن.. عليّ الرحيل.

- مع السّلامة.

خرج الضّابط، بينما بقي الطّبيبُ جالسًا، في مكانه، وبعد دقائق أمسك هاتفه، وبحث في قائمة الاتّصالات، عن رقم.. وضع الهاتف على أذنه، وانتظر قليلًا، حتّى ردّ صاحب الرّقم، ثمّ قال:

- ألو.. سيّد نضال، كيف حالك؟

- بخير.. هل من جديد دكتور؟

- أخبر السّيّد سالم بأنّ كلّ شيء، قد سار بالشّكل الصّحيح.

- ومتى سيخرج سعيد، من المستشفى؟

- ليس الآن.. فكما تعلم، هو تحت المراقبة، يجب أن ننتظر حتّى نبعد الشّكوك عنّا، وحين ينسون موضوعه، يكون بإمكانه الخروج.

وقبل أن ينهيَ الطّبيب كلامه، دخل عليه الضّابط، فأحسّ برعشة، سرت في كامل جسده، وجحظت عيناه، حين رأى الضّابط يقف أمامه فجأة، فقطّب حاجبيه، ثمّ قال:

- ماذا؟ ما الذي جرى حضرة الضّابط؟ هل من خطب؟

- لقد نسيتُ هاتفي هنا، وحين نزلتُ تذكّرته، فجئت لآخذه.

وأخذ ينظر فوق المكتب، إلى أن وجده موضوعًا، بنفس المكان، الذي كان يجلس فيه، فتنفّس الصّعداء، وقال:

- أوه.. إنّه هنا، أحمد الله على أنّ أحدًا، لم يأخذه، فيه معلومات سرّية، ولا يجب أن يطّلع عليها أحد.

ثمّ ابتسم، ونظر للطّبيب، وقال:

- أنا أمزح، لا أكثر.

وعاد ليصافحه، وخرج، فعاد الطّبيب بظهره للوراء، على الكرسي، واعتدل في جلوسه، ثمّ قال (وهو يمسح العرق من جبينه):

- يا إلهي.. لقد كاد يكشف أمري، ماذا كنت سأفعل، لو سمع كلامي؟ لو سمع كلامي، لكنت الآن بالسّجن، بدل سعيد، أعتقد بأنّه تعمّد نسيانه، ربّما لأنّه لم يصدّق جنون سعيد، وأراد أن يتجسّس عليّ، هذا الرّجل ليس سهلًا أبدًا.. عليّ أن أكون أكثر حذرًا.

***

عاد أبي، ورجاله على متن الباخرة، هذه المرّة، بعد أن وضعوا كلّ البضاعة بداخلها، ظلّت تلك الباخرة في عرض البحر لأيّام، تحاول قطع عبابه، كان أبي في هذه المدّة، على أتمّ الاستعداد، تحسّبًا لأيّ طارئ يعترض طريقه، فقد تعوّد على الخيانات، والصّراعات مع أعدائه.

- كم بقي على الوصول يا حاتم؟

يقول أبي للرّبان متسائلًا، فيجيبه هذا الأخير، بأنّه قد بقي لهم، حوالي ثلاثة أيّام، ويصلون للوجهة المطلوبة.. دنا منه أحد رجاله في هذه الأثناء، ثمّ همس في أذنه:

- سيّدي.. لقد اجتزنا البلد بعدّة كيلومترات، أليس هذا غريبًا؟

- ومن قال لك بأنّنا سنتّجه إلى البلد؟ هل أخبرتك أنا بذلك؟
- أوه.. كلّا.. ولكن إلى أين سنتّجه سيّدي؟ أريد أن أطمئنّ فقط.
أخرج أبي علبة السّجائر، ثمّ أشعل سيجارة، ونظر للرّجل، وقال:
- ومن سيحتاج لهذه البضاعة، في البلد؟ لا تكن بليدًا يا رجل.
- إذًا إلى أين سنأخذها؟
- بالرّغم من أنّ هذا لا يعنيك، ولكنّي أعرفك فضوليًّا، لن تغرب عن وجهي، إن لم أخبرك، وسيتوقّف قلبك، من التّفكير، أليس كذلك؟
وضحك، بينما ظلّ الرّجل ثابتًا، في مكانه، وعلاماتُ الحيرة بادية على وجهه.. وهنا عاد أبي ليستأنف حديثه:
- أتعلم يا إلياس؟ مشكلتكم أنّكم حمقى، فبالرّغم من وفائكم، إلّا أنّه لا يمكنني الاعتماد عليكم كثيرًا، وخاصّة في الأمور العظام.. عادة من هم الذين يحتاجون للسّلاح؟
- أأ.. المحاربون.
- جيّد، وهذا يقتضي بالضّرورة وجود حروب، أي أنّنا نبيع سلاحنا للبلدان، التي تكثر فيها الحروب، هل فهمت؟
- ماذا؟ البلدان التي تكثر فيها الحروب؟ ولكن عندي استفسار.
- ما هو؟
جذب أبي نفسًا، من تلك السّيجارة، وعاد ليصغيَ لسؤال إلياس:
- لِما لم تخبرنا بمخطّطك من البداية؟ اعذرني على تطفّلي، ولكن أريد أن أشبع فضولي فقط.

- أوه، إنّك شابٌّ لحوحٌ جدًّا، وأنا أكره هذا النّوع من النّاس، على كلٍّ لم أخبركم، لأنّني لستُ بحاجة، لأن أعلمكم بخطواتي، أم لديك اعتراضٌ يا إلياس؟

- لا.. حاشا يا سيّدي.. عندي سؤال أخير.

وهنا نظر أبي لإلياس بتذمّر، وانزعاج، ثمّ صرخ فيه (قائلًا):

- هل هذا تحقيق؟

- لا.. أرجو المعذرة سيّدي.. إن تدخّلتُ فيما لا يعنيني، ولكنّي أردت أن أتعلّم منك، خاصة وأنّنا في عرض البحر، فقد شعرتُ بالملل، فأحببت أن أجالسك، ولو لمرّة واحدة في حياتي.

- أوه.. كم أنت ثرثار، هاتِ ما عندك، على أن يكون آخر سؤال.

- أعدك بأنّه سيكون آخر سؤال، سيّدي لِما لم نعد في الطّائرة، كما فعلنا من قبل؟

- تمويه.. لا أكثر، يجب ألّا تكون كتابًا مفتوحًا، أمام الآخرين، خاصّة أمام أعدائك، عليك أن تباغتهم، وتفاجئهم بما لا يتوقّعونه، هيّا، اغرب عن وجهي.

ابتعد إلياس عن أبي، في لمح البصر، وذاب في تلك الباخرة، قبل أن يسمع ما لا يرضيه، وقبل أن يتوارى عن الأنظار كليًّا، ناداه أبي:

- يا إلياس.. إلياس.

فنادى الرّجل بأعلى صوته، من الطّابق السّفلي:

- أيّ خدمة سيّدي؟

- أحضر لي كوبًا من الشّاي.

- حسنٌ.. سيكون عندك في الحال.

وهنا عاد أبي ليأخذ نفسًا، من تلك السّيجارة، قبل أن يرميها، وقال (متذمّرًا):

- ما هذا الشّابُّ اللّحوح؟ لا أعرف.. لِما يذكّرني بأمّ هاني، فهو فضوليٌّ مثلها، ومزعج، لو لم أكن أعرف أهلها، لقلتُ بأنّه أخوها، في الرّضاعة.

***

دخلتُ لغرفة نريمان، فوجدتها قد أنهت صحن الشُّربة، كانت أمّي تجلس بجانبها، وما إن أنهت الأكل حتّى قامت أمّي، وحملت الصّينيّة، لتضعها فوق الطّاولة، ثمّ أخذتْ قرصًا من الدّواء، وناولته لها، مع كوب الماء، فشعرتُ بسعادة، حين رأيتُ هذا المنظر، فمنذ مقتل سهيل، لم نرها إلّا كجثّة هامدة، فاقتربتُ من أمّي، وقلتُ لها:

- لاا.. أرى بأنّ نريمان قد أصبحت، أحسن حالًا ممّا سبق.. يا سلام، ما هذا الأكلُ الشّهيُّ يا أمّي؟

فابتسمت، ثمّ قالت:

- بعد قليل سيجهز الغداء.

دخل علينا في هذه الأثناء فراس، وما إن رآني حتّى قال:

- خالي حامد هنا؟

- أجل.. لقد جئتُ - خصّيصًا - لأتغدّى معكم.

- ولكنّك وعدتني بأن نتغدّى كلّنا، في الحديقة.. هل نسيت؟

فقالت له أمّي (مستغربة):

- عن أيّ حديقة تتحدّث يا ولد؟

فقلتُ لها:

- المقصود بكلمة حديقة هو أن نتغدّى، في مكانٍ طبيعي، بعيدًا عن أجواءِ الصّخب، والفوضى.. لقد وعدتُه بذلك، من قبل.

***

أخرجت جنّات هاتفها، لترى كم السّاعة، ثمّ وضعته في حقيبتها، وقالت (متذمّرة):

- ولكن أين يختفي هذا المجنون؟ لقد تأخّر كثيرًا، سأنتظر خمس دقائق أخرى، وبعدها سأتّصل به للمرّة الأخيرة.

كانت جنّات جالسة، على أحد المقاعد المتراصّة على الأرصفة، تنظر للمارّة من الطّلبة، لعلّها ترى عادل، وحين طال انتظارها، عادت لتفتح حقيبتها، وأخرجت هاتفها، لتتّصل به مجدّدًا، وضعت الهاتف على أذنها، وبمجرّد أن ردّ عليها حتّى صاحت فيه:

- أين أنت؟ لا يمكنني أن أتأخّر أكثر.

فضحك، ثمّ قال:

- ولكن من الجميلة، التي تجلس في المقعد، المقابل لمقعدك؟

فالتفتت جنّات وراءها، وقالت:

- أين أنت؟

فلوّح عادل بيده لها (قائلًا):

- انظري إلى يمينك يا امرأة.. لقد أصبح نظركِ ضعيفًا.

وحين رأته، أغلقت هاتفها، وقامت من مكانها، متّجهة إليه، كان عادل يمشي برفقة صديقه، ثمّ افترقا، بعد أن صافحه، واتّجه نحوها.

- ما بكِ مستعجلة هكذا دائمًا، ألا يمكن أن تصبري، بضع دقائق؟

- لما تأخّرت كلّ هذا الوقت؟

- التقيتُ بصديقي كما ترين، وبما أنّي لم أره منذ مدّة، فقد حكى لي عن كلّ ما حصل له في هذه المدّة، إنّه ثرثارٌ جدًّا، بالكاد استطعت الهرب منه.

- أنا لا أمزح.

- حسنٌ، دعكِ من هذا، لقد أخبرني بأنّه سيقيم حفلة، يجمع فيها الشّلّة كلّها، بمناسبة عيد ميلاد جدّه، هل تأتين معنا؟

- لا.. أنت تمزح طبعًا، عيد ميلاد جدّه؟

- أجل، عيد ميلاد جدّه الثّمانين.. عائلته غنيّة، لا يغرّكِ منظره.

- قلتُ لك ليس لي مزاجٌ للنّكت.

- أخبريني قبل أن تذهبي، هل تأتين معنا، لنسهر كالمرّة السّابقة؟

- لا.. ليس في استطاعتي المجيء، لأنّ هاني غيّر طباعه، فلم يعد يسهر كعادته، لساعاتٍ متأخّرة من اللّيل، وأصبح ينام في وقتٍ مبكّر، ليصحوَ، ويذهب للعمل.

- غريب، مع أنّكِ أخبرتني مرارًا، بأنّه شابٌّ مدلّل، وكسول جدًّا.

- هذا صحيح، ولكنّ أبي هدّده بالطّرد، إن لم يغيّر من سلوكيّاته.

***

- لا.. هذا غير معقول أبدًا.

يقول خال هاني لهذا الأخير، مستغربًا سرّ نشاطه المفاجئ، فيردّ عليه هاني (وهو يضحك):

- سأغضب منك يا خال، ألهذه الدّرجة ترونني تافهًا، وكسولًا؟

- بصراحة أفعالك هي التي جعلتنا، نأخذ انطباعًا سيّئًا عنك.

فقال هاني (بتوتّر، وحماس في نفس الوقت):

- سترى كيف ستغيّر انطباعك عنّي، لست وحدك، بل الجميع..

ثمّ أطرق صامتًا فجأة، فنظر له خاله، وابتسم بخبث (قائلًا):

- ووردة.. أليس كذلك؟ قلها بصراحة.

- أوه.. حسنٌ، ووردة.

وسكت قليلًا، ثمّ عاد للحديث (بحماس مرّة أخرى):

- لكن، لم أتغيّر من أجلها فقط، بصراحة يا خالي، لقد سئمتُ من تصرّفاتي غير المسؤولة، منذ مدّة، وأنا أفكّر حيال ضرورة، تغيير نفسي للأحسن، فأنا لم أعد صغيرًا، كما كنت في السّابق.

فأحسّ خاله بالشّفقة حياله، وقال (بعدما وضع يده على رأسه):

- أتمنّى من كلّ قلبي، أن تغيّر من نفسك، قبل فوات الأوان.. من جهتي سأساعدك، على كبح جماح نفسك، وترويضها لفعل الأحسن.

فأحسّ هاني بالسّعادة الغامرة، وهو يستمع لكلام خاله، قبل أن يقترب منه، ويصافحه، ويعانقه (قائلًا):

- أنت الوحيد، الذي أحسّ بأنّه يحبّني، لطالما تمنّيتُ لو عاملني والداي، بالحبّ الذي تعاملني به، لقد أحبطاني بانتقادهما اللّاذع، بل وجعلاني أحتقر نفسي، من خلال تلك المقارنات، التي كانا يعقدانها بيني، وبين إخوتي، وليس هذا فحسب، بل واتّهماني مرارًا بأنّني فاشل، ولا أمل يُرجى منّي، أنت الوحيد، الذي يجعلني أحسّ بالتّفاؤل، حسنٌ لن أطيل عليك.. أستأذنك.

انصرف هاني، وترك خاله، الذي بدا عليه التّأثّر، أين سرح بخياله قليلًا، وقد كان ينظر للأرض، قبل أن يقول:

- لا لوم عليك يا هاني، بل اللّومُ كلّه على أختي، التي لم تعرف، كيف تربّيك، لطالما كانت قاسية عليك، وعلى أختك، آاه لو أنّ لي ولدًا مثلك، لكنتُ ربّيته أحسن تربية، ولكن هكذا هي الدّنيا.

وجلس، ثمّ تناول سيجارة، وأشعلها، أمّا هاني فقد خرج، وهو عازمٌ على تغيير شخصيّته، والابتعاد عن الغرور، ما أمكنه لذلك سبيلًا.. كان يسير (محدّثًا نفسه):

- عليّ أن أتصرّف تمامًا كحامد، فبالرّغم من كونه إنسانًا مؤدّبًا، إلّا أنّ شخصيّته قويّة، ولم نسمع بأنّه تعرّض للظّلم، في حياته، حتّى أبي ينظر له بعين الإكبار، الخطأ كلّه يقع على أمّي، التي زرعت فيّ الشّر،

بل وجعلت منّي إنسانًا متعجرفًا متسلّطًا، وهذا بحجّة أنّ الطّيب يُستغل، لقد أرهقتني بأفكارها، المليئة بالعُقد، حسنٌ، عليّ أن أبدأ من الآن.

لأوّل مرّة يشعر هاني بالتّصالح مع نفسه، كان يسير والاطمئنان بادٍ عليه.. وصل لمكتب وردة، واختلس النّظر للدّاخل، فوجدها منهمكة في عملها، وقد كان أمامها ملفَّاتٌ كثيرة، ثمّ نظر للمكتب الثّاني، فلم يجد زميلتها، فاستغلّ الفرصة، أين دقّ الباب، وبقي واقفًا في مكانه، فرفعت بصرها، لترى من الذي يقف عند الباب، وما كادت تفعل حتّى بادرها هاني (بصوتٍ خافت):

- صباح الورد، لأجمل وردة، في هذه الشّركة.

فابتسمت لكلامه، وقد احمرّ وجهها خجلًا، ثمّ قالت:

- صباح الخير.

- كيف الشّغل؟

- أوه.. أنا أحاول أن أتعوّد على جوّ الشّغل.. كما وأحاول أن أحفظ كلّ صغيرة، وكبيرة تتعلّق بوظيفتي.

- على رسلكِ يا وردة، فأنا ابن صاحب الشّركة، وموظّفٌ هنا، منذ زمن، ولم أفهم الشّغل، لحدّ السّاعة.

فنظرت له باستغراب، ثمّ قالت (متسائلة):

- ولكن كيف تقوم بعملك، إذا كنت لا تفهمه؟

فضحك هاني بصوتٍ عال، وسحب الكرسي، الذي أمام مكتبها، وجلس عليه، ثمّ قال:

- هناك الكثير من الموظّفين، الذين يقومون بالشّغل عوضًا عنّي، لا تقلقي، عمومًا إن احتجتِ للمساعدة، فسأكلّف أحدًا ليساعدك.

- ولكنّني أحبّ أن أقوم بشغلي بنفسي.

- كما تشائين.

وظلّ يتسامر معها، إلى أن عادت زميلتها، وهي محمّلة بملفّات كثيرة، وبمجرّد أن رآها حتّى تنحنح، وغيّر طريقة حديثه، وقال (بجدّية مفتعلة):

- بعد أن تنهي هذا الملف، لا تنسي بأن تحضريه، لأعاينه.

فحاولت وردة أن تمنع نفسها، من الضّحك، وقالت (بجدّية):

- حسنٌ، سيّد هاني.

انصرف هاني أخيرًا، وما إن خرج حتّى انفجرت وردة ضاحكة، أمّا زميلتها فقد قامت من مكانها، ثمّ اقتربت منها، وهمست في أذنها:

- ما به؟ لما يتكلّم بهذه العنجهيّة؟ من يظنّ نفسه؟

فقالت وردة (محاولة امتصاص غضب صديقتها):

- لا تكترثي.. فهذه حركاتٌ يقوم بها، ليفرض نفسه أمام الموظّفين.

- لا.. لقد أضحكتني.. وهل فرض الاحترام يكون بالغرور، والتّكبّر؟

- دعينا من فلسفتكِ الآن.

- أوه.. نسيت.

- نسيتِ ماذا؟

قالت وردة متسائلة، بعدما لمست التّذمّر، من صديقتها، فأجابتها هذه الأخيرة:

- نسيتُ بأنّ السّيّد هاني، يكون الصّديق المقرّب، للسّيّدة وردة.

- لا.. أنتِ لستِ طبيعيّة اليوم.

- اسمعي يا وردة، صحيحٌ أنّكِ لم تخبريني عن قصّتك، مع هذا الشّاب، ولكن ما أريد أن أخبركِ به، هو أنّه مستهتر، وأناني، وسُمعته سيّئة جدًّا، بالإضافة لكونه زير نساء، ومثير للمشاكل، وهذا بشهادة الكثيرين، بصراحة أكثر، لا أرى بأنّه من اللّائق، أن تتقرّبي منه، فأنتِ فتاة محترمة، وتستحقّين الأفضل.

حاولت وردة أن تبدوَ طبيعيّة، وغير مكترثة، فقالت (باستغباء):

- عمّ تتحدّثين يا جُهينة؟ ليس بيني، وبينه أيّ شيء، ممّا ذكرت.

- حسنٌ.. تذكّري نصيحتي لك.

ابتسمت وردة، غير مكترثة لهذا الكلام، فهي تعرف ما يقال عنه، ولكنّ مرآة الحبّ عمياء، هكذا قالت لنفسها:

- وماذا عساي أفعل، يبدو أنّ الذين قالوا بأنّ الحبّ أعمى، كانوا على صواب، سأسعى جاهدة لأجعل منه إنسانًا صالحًا، فهو ليس بهذا السّوء كلّه، مشكلته أنّ الذي لا يعرفه، حقّ المعرفة، يعتقد بأنّه شرّير، ولكنّه طيّب القلب، وصادق، وصريح.

***

كان هاني في هذه الأثناء يتجوّل، بين الأروقة، يخرج من مكتب، ليدخل للآخر، في جولة تفقّدية كعادته، حين يسافر أبي، ليقوم خلالها بإزعاج الموظّفين، فهو مقتنع بضرورة مراقبة العمّال، بل وإزعاجهم إن لزم الأمر، يصرخ في هذا، ويملي الأوامر على ذاك، ويهدّد المقصّرين بالطّرد، لقد أصبح بمثابة عبء، يثقل كاهل الشّركة، بل وأعطى صورة سلبيّة، على الشّركة بمن فيها، فكلّ من يتمّ تعيينه فيها، إلّا ويحذّره العمّال، من التّعامل معه، فهو مثل الكلب المسعور، الذي لا يتردّد في البحث عن ضحيّة، كلّما سنحت له الفرصة، قال موظّفٌ لزميله متذمّرًا، من معاملة هاني السّيّئة للعمّال، بعد أن خرج من مكتبهم مباشرة:

- أوه، لقد سئمت من هذه الشّركة، من يظنّ نفسه، هذا الأحمق، لكي يصدر لنا الأوامر؟ ألا يوجد غيره بهذه الشّركة، يقف على الإدارة، ريثما يعود أبوه؟

- بلى، أخوه خالد هو المسؤول المباشر، على الشّركة، هذه المرّة، ولكنّ هاني لا يصدّق متى يسافر أبوه، حتّى يضايق العمّال، ويزعجهم، وكلّ ذلك، ليثبت لنا في كلّ مرّة، بأنّه ابن صاحب الشّركة، ومالكها.

- ولكنّ خالد أيضًا ابن صاحب الشّركة، ولم يسئ التّصرّف، مع أيّ كان، منذ أن تمّ تعيينه هنا.

- هاني مدلّل، وتافه.. شتّان بينه، وبين أخيه، دعك منه، ولا تعره أيّ أهميّة، سوف يعود لحجمه الطّبيعي، بعد أن يعود أبوه للشّغل، فقد تعوّدنا على حركاته الصّبيانية هذه.

- ولكن إلى متى سنظلّ هكذا؟ علينا أن نقدّم شكوى ضدّه، فليس من المعقول أن يعامل الموظّفين، وكأنّهم عبيدٌ عنده.

فضحك الآخر، ثمّ قال:

- تشتكي من هاني؟ ولمن ستقدّم شكواك، لأبيه صاحب الشّركة؟

- أجل.. يجب أن يعرف ما يفعله ابنه، في غيابه، ويضع له حدًّا.

- ولكنّه ابنه، أتعتقد بأنّه سيتصرّف معه بحزم؟

- اسمع.. أنا لا أحبّ الظّلم، تصرّفاتكم هي التي جعلته يتمادى معكم، بل ويدوس عليكم، ولكن لو تقدّم أيّ واحدٍ فيكم، بشكوى ضدّه، فسيعلم أبوه بما يفعله، ومن المؤكّد بأنّه سيرفض تصرّفات ابنه، فرجال الأعمال عادة يهتمّون بسمعتهم في السّوق، ولا مجال للعواطف عندهم، ولذلك هم رجال أعمال ناجحون.

- ألا ترى بأنّك تعرّض نفسك للخطر بهذا؟ من الممكن أن يحرّضه هاني ضدّك، فتجد نفسك مطرودًا، آخر الأمر.

- الله هو الرّزاق.. يكفيني شرف المحاولة، وإن تمّ طردي من هنا، فعلى الأقلّ أكون قد أوصلتُ شكواكم، وتذمّركم أنتم العمّال، من ابنه، فهاني لم يعاملكم بهذه الطّريقة، إلّا لاقتناعه التّام، بأنّكم لن تجرؤوا، على الذّهاب لأبيه، لتشتكوا من سوء معاملته.

ظلّ هاني يصول، ويجول بين المكاتب، إلى أن وصل لمكتب، كان يشتغل فيه الشّاب، الذي تشاجر معه آخر مرّة، وفور دخوله فوجئ بفتاة، تجلس بدل ذاك الشّاب، فنظر لها باستغراب، ولكنّه لم يكلّمها،

ونظر لزميل الشّاب، الذي حضر للمعركة التي دارت بينه، وبين غريمه، فسأله:

- أين هو زميلك؟

فأجاب الشّاب ببرود، ونفور (قائلًا):

- لقد تمّ توظيفه، في شغل آخر.

سكت هاني قليلًا، وكأنّه أحسّ بشيء من الإحباط، لسماع هذا الخبر، فهو لا يستطيع العيش دون غريم، أو عدوٍّ أبدًا، فقد كان يشعر بالفخر، حين يتشاجر مع هذا الشّاب، فهو من القلائل، الذين كانوا يقفون في وجهه، ربّما لأنّ أباه كان صديقًا لأبي، وتجمعهما الكثير من المصالح، منذ زمن بعيد، لذا فهذا الشّاب لم يكن يخاف، من هاني كالبقيّة، والآن وقد غادر، فعلى هاني أن يجد غريمًا جديدًا، نظر يمينًا، ويسارًا بعد ذلك، ثمّ عاد ليسأل الشّاب:

- هل أنهيت كافّة المعاملات اللّازمة؟

- أنا أعمل على ذلك، بقي أمامي ملفٌّ واحد فقط.

- حسنٌ، حين تنهي ما في يدك، أحضر لي الملفّات، لأدقّق فيها.

- حسنٌ.

- هل بلع القطّ لسانك؟ أم ماذا؟ عليك أن تقول حسنٌ سيّدي.

نظر الشّاب لهاني بتذمّر، وقد بدا عليه الاستياء من معاملته.. لكنّه حاول السّيطرة على مشاعره أخيرًا، ثمّ قال بعدها:

- حسنٌ سيّد هاني.. هل هناك أوامر أخرى؟

- مالي أراك غير سعيد، وأنت تقولها، إن لم يعجبك هذا، فتستطيع اللّحاق بزميلك.. من اليوم فصاعدًا أنا السّيّد هاني، هل فهمت؟

ظلّ الشّابُّ صامتًا، ولم ينطق بكلمة، ومن حسن حظّه، أنّ هاتف هاني رنّ في هذه الأثناء، فنظر لهاتفه، ثمّ أجاب:

- ألو.. خالي، هل من خطب؟

- أجل.. أريدك حالًا في مكتبي.

أغلق هاني الهاتف، ونظر للشّاب نظرة ازدراء، من شعره لأخمص قدميه، وانصرف، وسط دهشة الموظّفة الجديدة، التي نظرت لزميلها، وقالت (متسائلة):

- ما به هذا الشّاب؟ لِما يكلّمك بهذه الطّريقة؟

- إنّه ابن صاحب هذه الشّركة.

قال الشّاب بسخرية، وهو يبتسم، ويشير بيده للشّركة، في تلميح منه لأهميّة هاني، فعادت الفتاة للتّساؤل مرّة أخرى:

- وإن يكن، هذا لا يعطيه الحقّ، في التّعامل مع الموظّفين هكذا.

- دعكِ منه، فهو شابٌّ متعجرف، ومزعج.

خرج هاني، متّجهًا لمكتب خاله، وقد بدا عليه النّدم، ممّا فعله، مع الشّاب، لقد أحسّ بتأنيب الضّمير فجأة، كان يسير، وهو يفكّر في تصرّفاته الطّائشة، وغير المسؤولة، قال في نفسه:

- أكان يجب عليّ أن أعامله هكذا؟ ما الذي أريد أن أثبته لنفسي؟ فرض احترام الموظّفين؟ لو كان الاحترام يُفرض بهذه الطّريقة، فلماذا

يعامل الموظّفون أخي خالد بحبّ، واحترام زائد، بل وينظرون له بعين الإكبار، والإجلال، بالرّغم من كونه إنسانًا طيّبًا، ولم يعامل أحدًا بسوء، من قبل، فهو يعامل الكلّ باحترام، وتواضع، حتّى الحرّاس الذين يقفون خلف باب الشّركة، يعاملهم باحترام، كلّ هذا منكِ يا أمّي، زرعتِ فيَّ حبّ الذّات، وعلّمتِني أن أعامل، من هم أقلّ منّي بتكبّر، وعجرفة غير مبرّرين.. والآن أقف عاجزًا، على تخطّي ما علّمتني أمّي، أقف عاجزًا على أن أغيّر نفسي للأحسن، أمّي التي لطالما عيّرتني بإخوتي، وطلبت منّي مرارًا، بأن أتصرّف مثلهم، نفسُها التي علّمتني التّسلّط، والغرور، وازدراء الآخرين.

وصل هاني لمكتب خاله، وما إن دخل حتّى رمقه هذا الأخير، بنظرات عتاب، من وراء نظّاراته، التي أنزلها بيده، أسفل عينيه، ليتسنّى له النّظر جيّدًا لهاني، ثمّ قال:

- ألم أنهك عن هذه التّصرّفات الصّبيانية يا هاني؟

جلس هاني على الكرسي، غير مكترث لكلام خاله، ثمّ قال:

- أنا لم أقم إلّا بجولة تفقّدية للموظّفين، حتّى لا يتهاونوا في أداء شغلهم، أو تُسوّل لهم أنفسهم، بالتّقاعس عن مهامّهم، في غياب أبي.

فنزع خاله نظّاراته، ثمّ قال:

- ولكنّ أباك لم يكلّفك بالإدارة، هذه المرّة، وكلّف أخاك يا هاني، أخاك الأصغر.

فنظر هاني لخاله، وقد اتّسعت عيناه، حين سمع منه هذا الكلام، ولكنّه لم يرد على خاله، الذي راح يقول:

- اسمع يا هاني، لقد نصحتك مرّاتٍ عديدة، ولكنّك تشبه أمّك، إلى حدٍّ بعيد، أنت لا تتعلّم من أخطائك أبدًا، عمومًا سمعتك السّيئة هذه، ستقف حاجزًا في طريقك، والدّليل على ذلك، أنّ أباك إنّما كلّف خالد بالإدارة، لأنّه يعرف بأنّك لست أهلًا لذلك، ممّا يعني بأنّه سيتفوّق عليك، وسيكون الذّراع الأيمن لأبيك، كما كان أخوك رؤوف، وأنت ستبقى هكذا، ستبقى مجرّد موظّف، عند أبيك، ومن يدرِ؟ فربّما ستبقى مجرّد موظّف، عند أخيك خالد، بعد عمر طويل.

فأحسّ هاني بالخوف، وهو يتصوّر نفسه مجرّد موظّف، عند إخوته مستقبلًا، ثمّ قطع هذه الهواجس، وذلك بأن قال:

- ولكن..

فقاطعه خاله (قائلًا):

- اذهب لشغلك، لا أريد أن أسمع كلمة أخرى، وإيّاك يا هاني، ثمّ إيّاك، أن تتصرّف بهذه الطّريقة مجدّدًا، مع زملائك، أتفهم؟ لا أريد أن يشتكيَ أحدهم لوالدك، وقتها سيرميك خارج الشّركة، هيّا.. اذهب لشغلك الآن.

***

أنهيتُ جولتي التّفقّدية للمرضى، للاطمئنان على حالتهم، بعد العمليّة، وخرجتُ من الرّواق الخاصّ بما بعد الجراحة، متّجهًا لمكتبي،

وفي طريقي صادفتُ لبنى، التي خرجت من مكتبها، لتستنشق الهواء، على ما يبدو، فبادرتها بالسّلام (قائلًا):

- كيف حالك يا دكتورة.

فأجابت (بصوتٍ يكاد يختنق بين أسنانها):

- لست بخير.

- ما بك؟ هل أنتِ بخير؟

- لا.. لست بخير.

وأخذت تلوّح بكلتا يديها، لتجمع أكبر قدر من الهواء، وفجأة أغميَ عليها، وكاد رأسها أن يرتطم بالأرض، لولا أنّي أسرعت، لأمسك بها، قبل فوات الأوان.. خرجت نور في هذه الأثناء، من مكتبها، رفقة طبيبة أخرى، وما إن رأتني حتّى اتّسعت عيناها، وأحسّت بالانزعاج، ثمّ سحبت نفسها للخلف (قائلة لزميلتها):

- أستأذنكِ دكتورة.. سأذهب للحمّام.

وسلكت الرّواق الآخر، تاركة الطّبيبة في حيرة، فمنذ قليل كانت معها، ولم تكن تنوي الذّهاب للحمّام، مشت الطّبيبة نحونا، وما إن رأتنا حتّى أسرعت، لتساعدني على انتشال لبنى، بعدما أُغمي عليها، وثقُل جسدها، فصار كالحجر، وأدخلناها لمكتبها مجدّدًا، ثمّ أسرعت الطّبيبة لتضع الكحول، على القطن، وقرّبته من أنف لبنى، التي على ما يبدو، بأنّها قد عادت لوعيها أخيرًا، أمّا أنا فقد أعطيتها الماء لتشربه، وطلبتُ منها أن تذهب للبيت، فوجهها لا يبشّر بالخير.

نظرت الطّبيبة للبنى، ثمّ قالت (مستغربة سرّ تدهور صحّتها):

- ما بكِ يا لبنى؟

فقالت لبنى بحزن، حاولت أن تخفيه، بابتسامتها المعهودة:

- أنا بخير.. لا تقلقي يا دكتورة.

- ولكن كيف لا أقلق يا لبنى، هل قمتِ بإجراء الفحوصات؟

- لا.. ليس هناك أيّ شيء.. فقط القليل من الإجهاد، والتّعب.

فنظرت الطّبيبة هذه المرّة لي مستغربة، ثمّ قالت لها:

- آمل ذلك، عمومًا اذهبي الآن، لترتاحي، وسأعلم المدير بغيابك.

***

خرجت جهينة من المكتب، تاركة لوردة المجال، لتسرح في خيالاتها، وأحلامها، واتّجهت لمكتب خالد، وهي تحمل مجموعة من الملفّات، في يدها.. دخلت بعد أن استأذنت، ثمّ قالت:

- صباح الخير سيّدي، هل السّيّد خالد هنا؟ أريد أن أقدّم له هذه الملفّات، ليعاينها.

فالتفت خالد، الذي كان منهمكًا في العمل، على الحاسوب، ورأى جهينة تقف أمامه، حاملة في يدها مجموعة ملفّات، فأطال النّظر فيها، ولكنّه لم ينطق بكلمة، فمنذ تعيينه في هذه الشّركة، لم تثِرْ أيّ موظّفة إعجابه، كما هو الحال معها، فاستغربت من صمته، ومن نظراته لها، وقالت:

- أتشبّهني بشخص ما؟

فارتبك خالد قليلًا، قبل أن يتكلّم:

- هل أنتِ موظّفة جديدة، في هذه الشّركة؟ فأنا لم أركِ من قبل.

- أجل، لقد تمّ توظيفي منذ شهر تقريبًا، ولكنّك لم تخبرني، هل السّيّد خالد هنا؟ عليه أن يعاين هذه الملفّات.

فارتبك، ولم يدرِ بما يجيب، فهو يجلس في مكان موظّف، يشتغل تحت إشرافه، ولكنّه استأذن منه، في الذّهاب للجامعة، لأنّه على موعد لمناقشة الماجيستير.. فما كان من خالد إلّا أن وافق، وجلس مكانه، لينهيَ الشّغل، في أسرعِ وقت، فقالت جهينة (محاولة تدارك الأمر):

- حسنٌ.. يبدو بأنّه ليس هنا، عمومًا سأترك هذه الملفّات، وحين يجيء عليك أن تقدّمها له، وسأعود فيما بعد، لآخذها.

كان خالد ينظر لها بإعجاب، لدرجة أنّه قد ظلّ صامتًا، أمّا هي فقد احمرّ وجهها، من شدّة الخجل، ولم تدرِ ماذا تفعل، وهنا قرّر خالد التّحدّث أخيرًا:

- حسنٌ، ما اسمك، وضمن أيّ قسم؟ حتّى إذا ما جاء فسأعلمه، بأنّكِ أنتِ من أحضر هذه الملفّات.

فقالت جهينة (بخجل):

- حسنٌ.. قل له جهينة، من قسم الاستعلامات.

- حسنٌ، آنسة جهينة، سأخبره بمجرّد أن يأتي، إلى هنا.

عادت جهينة لمكتبها، وهي تكلّم نفسها، عن هذا الشّاب، الذي لم يبعد عينيه، من عليها، وحين همّت بالجلوس، سألتها وردة عن سرّ تحدّثها، مع نفسها:

- ما بكِ يا جهينة؟ هل من خطب؟

- لا أعرف، ولكن هناك شاب، يشتغل بقسم السّيّد خالد، لم يبعد عينيه من عليّ، منذ أن دخلتُ للمكتب.

- أوه.. هذا جميل، وهل هو وسيم؟

- بصراحة، أجل، ولكنّ ما أثار استغرابي، هو أنّه لم ينطق بكلمة، وظلّ ينظر إليّ، حتّى أحسستُ بأنّني مجنونة، وأنا أتكلّم بمفردي، ثمّ أجيب على نفسي، أتراه يعرفني مثلًا؟ أو لعلّه شبّهني بفتاة يعرفها.

- عمومًا كلّ شيء جائز.. من الممكن أنّكِ قد رأيته، في الجامعة.

وضعت جهينة يدها على خدّها، وقالت:

- ممكن.. لا أعرف!

***

كان هاني يتكلّم مع وردة في الهاتف، ظلّ هكذا لساعاتٍ متأخّرة من اللّيل، فغدًا ليس هناك شغل، لأنّه يوم عطلة، أو نهاية الأسبوع، هكذا قال هاني لوردة، حين استأذنته لتخلد للنّوم، راجيًا منها أن تبقى لبعض الوقت، وفي هذه الأثناء تتّصل به، صديقته القديمة سارة، التي على ما يبدو بأنّه قد أهملها، في الفترة الأخيرة، فنظر هاني لهاتفه، ثمّ عاد للحديث، متجاهلًا سارة تمامًا، فقالت له وردة (سائلة إيّاه):

- من الذي يتّصل بك، في ساعة متأخّرة هكذا؟

فأخبرها بأنّه صديقٌ قديم، تعوّد على الاتّصال به، ليذهبا للسّهر، في إحدى حفلات أصدقائهم، ومعارفهم، فقالت وردة (مازحة):

- صديقك أم صديقتك يا هاني؟

- وماذا في استطاعة النّجوم أن تفعل، في وجود القمر؟

قال هاني، فضحكت وردة، ثمّ قالت:

- حسنٌ.. عليّ أن أغلق الهاتف.. عندي شغل غدًا.

- أيّ شغل هذا يا وردة؟

قال هاني مستغربًا، عن الشّغل، الذي يكون في العطلة الأسبوعية، فردّت عليه:

- ما بك يا هاني؟ أنسيتَ بأنّي أشتغل، في معهد الفنون الجميلة؟

- أوه.. نسيتُ تمامًا.. إذًا عليكِ أن ترسمي لي صورة.

- حسنٌ.. اختر أجمل صورة عندك، وأنا أرسمها لك.

- لا.. سآتي إليك، لتقومي برسمي، وأنا جالسٌ أمامك، تمامًا كما يفعل الرّسامون، في الأفلام.

أنهى هاني حديثه، ووضع هاتفه جانبًا، ليخلد للنّوم، وما إن وضع رأسه على الوسادة حتّى رنّ هاتفه، فنظر له متأفّفًا، وفكّر في إغلاقه، ولكنّه تراجع عن هذا القرار، في آخر لحظة، ليردّ:

- ألو..

وما إن قال كلمة ألو حتّى انفجرت سارة، في وجهه:

- مع من كنت تتكلّم، ولِما لم تجبني؟ لقد اتّصلتُ بك مرارًا.

فقال هاني (ببرود):

- أوه.. أنا متعب، وأريد أن أنام.. هل يمكنني ذلك.

- لن تنام قبل أن تخبرني، مع من كنت تتكلّم؟

- كنت أتكلّم مع صديقتي، هل ارتحتِ الآن؟ دعيني أنام.

- أتقول هذا الكلام، في وجهي هكذا، بكلّ برود؟

- وماذا أقول لك؟ لو قلتُ لكِ بأنّ صديقي اتّصل بي، ليأخذني معه لسهرة، لما صدّقتني، فاختصرتُ عليكِ الطّريق، هذا كلّ ما في الأمر.

- هذا يعني بأنّك لن تخبرني، مع من كنت تتحدّث؟

- ما هذه الورطة، التي أوقعتَ نفسك فيها يا هاني؟

قال هاني كلامه، ثمّ أنهى المكالمة، وأغلق هاتفه، وخلد للنّوم، وهو يلعن النّساء، والسّاعة التي تعرّف فيها عليهنّ (قائلًا):

- ما هذا؟ لقد فتحتْ لي تحقيقًا، لو كنتُ زوجها لما فعلت هذا.

وفي الجانب الآخر، ظلّت سارة تصرخ، وتهدّد، وتتوعّد، ظنًّا منها بأنّه لا زال على الخطّ، إلى أن أحسّت بأنّه لا يتجاوب معها، فنظرت لهاتفها، ووجدت بأنّه قد أنهى المكالمة أصلًا، وهنا احمرّ وجهها من الغضب، فرمت الهاتف على سريرها، ثمّ قالت:

- حسنٌ.. سأريك يا هاني.

***

بعدما وضعتُ كلّ ما حضّرته أمّي، من مأكولات شهيّة، وعصائر، بالإضافة للأفرشة، والماء، والقهوة في السّيّارة، طلبتُ من فارس بأن يذهب، ويستعجل البقيّة في المجيء، لكيلا نتأخّر، فانطلق بسرعة، كانت السّاعة تشير للتّاسعة صباحًا، بقيتُ في السّيّارة، أنتظر مجيء أمّي، وفلّة، ونريمان، والأولاد، وبعد دقائق جاء فارس، وفراس، وهما يركضان، بكلّ ما أوتيا من قوّة، ولحقت بهما أمّي، ومعها نريمان، ثمّ تلتهم فلّة آخر الأمر، وانطلقنا بعدما لزم الجميع أماكنهم، وصلنا للطّريق السّريع أخيرًا، بعدما اجتزنا عدّة طرقات فرعيّة، وسط المدينة، وهنا سألتني فلّة:

- هل لك أن تشغّل لنا، بعض الأغاني يا حامد؟

فابتسمتُ لكلامها، وقلت:

- كان بودّي، ولكن ليس لديّ أيّ أغاني، لأشغّلها لكم.

فقالت فلّة (متأسّفة):

- وما الذي نتوقّعه، من طبيبٍ مثلك؟

وسكتت قليلًا، ثمّ عادت للحديث مرّة أخرى:

- حسنٌ، سنكتفي بالإذاعة، شغّل لنا الرّاديو إذًا.

- لكِ ذلك يا فلّة.

نظرت أمّي عبر النّوافذ، للجانبين الأيمن، والأيسر من السّيّارة، ثمّ قالت (متسائلة):

- إلى أين ستأخذنا يا حامد؟

- لغابة جميلة، تبعد عن مكاننا هذا، بحوالي عشرين كيلومتر، ستعجبكم كثيرًا.

وبعد مرور لحظات، عادت فلّة للحديث مرّة أخرى:

- ما هذه الإذاعة المملّة؟ مرّت ربع ساعة، ولم يعرضوا أيّ أغنية.

فقال فراس (مقاطعًا إيّاها):

- لماذا لا تضعين لنا الأغاني، التي في هاتفكِ يا ماما؟

- أوه.. صحيح، كيف نسيتُ هذا؟

ثمّ أخرجت هاتفها، ومعه وصلة، قامت بوضعها فيه، ثمّ شغّلت أنشودة، وأعطته لأمّي، وطلبت منها أن تصل المذياع، بتلك الوصلة، وبعدما تقيّدت أمّي ببعض الخطوات، التي أملتها عليها، صار المذياع جاهزًا، لاستقبال تلك الأغاني، التي في الهاتف، ليرتفع بذلك صوت الأنشودة فجأة، فبدأ الجميع بالتّصفيق، وخاصّة فارس، وفراس، اللّذان لم تسعهما الدّنيا، من الفرحة.. وهنا قالت فلّة:

- صار بإمكاننا الآن، الاستمتاع بالرّحلة، أليس كذلك يا أمّي؟

ابتسمت أمّي، والتفتت للخلف، وقد بدا عليها الشّعور بالسّرور، وهي تنظر لفلّة، وأولادها الذين كانوا يصفّقون، ولو أنّ هذا السّرور، لم يدم طويلًا، والسّبب هو نريمان، التي كانت الحاضر الغائب، في هذه الرّحلة، فمنذ أن انطلقنا لم تحرّك ساكنًا، واكتفت فقط بالنّظر لما وراء النّافذة، منظرها هذا كان يبعث على الأسى، ما جعل أمّي تحزن، حين رأتها على هذا الحال، فتنهّدت، وقالت لفلّة:

- ومن أين تأتي المتعة يا ابنتي.

بعدما سرنا مسافة، لا بأس بها، وصرنا بمنأى عن المدينة، بدأت الحقول تتكشّف لنا، شيئًا فشيئًا، إلى أن غصنا في أعماقها أخيرًا.. سرنا قليلًا، إلى أن لاحت في الأفق غابة، تقع على جانب الطّريق، كانت الكثير من السّيّارات تسير نحوها، يبدو بأنّنا لسنا وحدنا، الذين قصدنا تلك الغابة، بل سبقنا إليها الكثير من النّاس، الذين جاؤوا للاستجمام.

وصلنا أخيرًا، فركنتُ السّيّارة على جانب الطّريق، وقمت بإخراج بعض الأفرشة، التي جلبناها معنا، وساعدتني في ذلك فلّة، أمّا فارس، وفراس فقد انطلقا، بسرعة البرق، يركضان هنا، وهناك، ونزلت أمّي بعد ذلك، بمدّة يسيرة، ولم يبقَ بالسّيّارة سوى نريمان، التي رفضت النّزول في البداية، فطلبتُ من أمّي أن تتركها، على راحتها، وقلت لها:

- ليس من الجيّد أن نضغط عليها.. مجيئها إلى هنا، لوحده كفيلٌ بأن يخرجها، من حزنها.

***

بعد أن ارتحنا قليلًا، ذهبتُ لنريمان، لأحاول إقناعها بالنّزول، من السّيّارة، للجلوس معنا.. في البداية ظلّت شاردة الذّهن، ولكنّها نزلت أخيرًا، بعد أن أصررتُ عليها، أمضينا بعدها وقتًا ممتعًا، ما بين تناول أكل أمّي اللّذيذ، وبين الاستمتاع بتلك المناظر الخلّابة، التي زاد من جمالها، تساقط تلك القطرات الخفيفة من المطر، بالإضافة للعائلات، التي شاركتنا هذه اللّحظات، والأطفال الذين كانوا يلعبون تارة، وأخرى

يغنّون، ثمّ يصرخون بعد ذلك، إلى أن أوشكت الشّمس، على المغيب، فقمنا بأمرٍ من أمّي، التي استعجلتنا في الرّجوع.

***

بقيت سارة لأيّام تفكّر في تغيّر هاني، المفاجئ نحوها، وذلك منذ آخر مرّة اتّصلتْ فيها به، وقام بتجاهلها، في الحقيقة لم تكن هذه المرّة الأولى، التي يتجاهلها فيها، فمنذ مدّة، وهو يعاملها على هذا النّحو، وعبثًا حاولت طرد تلك الهواجس، التي هاجمتها:

- أيُعقل أن يكون قد تعرّف على أخرى؟ أوه.. كلّا، لا أظنّ ذلك، ولكن لِما لا تظنّين؟ فهاني زير نساء، وسجلّه مليء بالمغامرات، حتّى قبل أن يتعرّف عليك، فما المانع من أن يتعرّف على فتاة، وربّما عشرة بعدك؟ لا تتوهّمي كثيرًا، فأنتِ مجرّد فتاة عادية، بالنّسبة له، وإن قال لكِ بأنّه يحبّك، فمن المؤكّد بأنّه قد قالها، مئات المرّات لغيرك.

أشعلت هذه الهواجس الغضب، في قلبها، بالرّغم من محاولاتها البائسة، لإبعادها عن خلدها، لكن عبثًا، ظلّت تحاول الاتّصال به، دون جدوى، ولكنّها لم تيأس، بل ظلّت تحاول، وتحاول، إلى أن ردّ عليها، بعد أن يئس من تجاهلها، بدون جدوى.. فبادرته (قائلة):

- ألو، هاني.. أين أنت؟

- أنا في الشّغل الآن، ماذا تريدين؟

- أريد أن ألتقيَ بك حالًا.

- ماذا جرى لك؟ قلت لكِ بأنّي في الشّغل، ولا أستطيع المغادرة.

- ومنذ متى صرت تحبّ الشّغل؟

- من الآن.. هل ارتحت؟

- حسنٌ.. سآتي إليك.

فاضطرب حين سمع، بأنّها تريد المجيء إليه، وقام من مكانه، وقد تغيّرت ملامحه فجأة، ثمّ قال:

- تأتين إلى الشّغل؟ هل جننت؟

- ولما لا؟ أم تراك نسيت، بأنّني قد جئت مرارًا، إلى هناك؟

- لا، لم أنس، ولكنّ الأمور قد اختلفت الآن.. أوه..

- ما بك؟ لِما تغيّر صوتك؟ ثمّ لِما تصرّ على منعي، من المجيء؟

- ولكنّ الأمور قد تغيّرت، بصراحة.. لقد شدّد أبي الحراسة عليّ، بعدما سئم من تصرّفاتي، كما تعلمين، وهو الآن مسافر، ولو سمع عنّي شيئًا لا يعجبه، فسوف يكلّف خالد بالإدارة، نيابة عنّي، وأنا لا أريد أن تسوء سمعتي، بين العمّال أكثر، اسمعي، سوف آتي إليكِ في المساء، ونذهب سويًّا، للمكان الذي تريدين، أعدكِ بذلك.

وما إن أنهى هاني كلامه حتّى أغلق هاتفه، ثمّ قال لنفسه:

- إنّها مجنونة، يجب أن أسكتها، وإلّا فستفسد عليّ كلّ شيء، وخاصّة مع وردة.

وسكت قليلًا، ثمّ أخرج سيجارة، وأشعلها، ثمّ أمسك بالهاتف، ليتّصل بالحارس:

- أين القهوة؟ أفي كلّ مرّة أطلب منك، بأن تحضر القهوة، تظلّ ساعة، لتأتيَ بها؟

***

كانت السّاعة تشير للسّابعة مساءً، حين ألقيتُ نظرة على هاتفي، خرجتُ من مكتبي، لأذهب للحمّام، فوجدت لبنى تخرج من الحمّام، الخاصّ بالنّساء، وهي تضع يدها على فمها، فسألتها إن كانت بخير، فأخبرتني بأنّها تحسّ بدوار، كالمرّة الماضية، بالإضافة لمغص، وألم في بطنها، لم يفارقاها منذ الصّباح، ممّا جعلها تطلب إذنًا من المدير، لمغادرة المستشفى.. فقلتُ (متسائلًا):

- ومن سيوصلكِ يا لبنى؟

- بصراحة.. لا أستطيع قيادة سيّارتي اليوم.. سأستقلّ تاكسي.

- لا.. لا، سأوصلكِ أنا.

- ولكن.. سأسبّب لك المشاكل، مع المدير.

- لا عليك.. سأدبّر أموري، هيّا بنا لأوصلك.

كانت لبنى تسير ببطءٍ شديد، وبالرّغم من محاولتها التّظاهر، بأنّها على ما يُرام، إلّا أنّ إحساسها بالألم، ظلّ يضايقها، أوصلتها لبيتها على عجل، فطلبتْ منّي الصّعود، لشرب فنجان شاي، في البداية رفضت، متحجّجًا بأنّني لا أريد مضايقتهم، وخاصّة في ظرف كهذا، ولكنّها أصرّت على أن أصعد معها، لمحتُ في عينيها سعادة لا توصف، وهي

تحاول أن تقنعني، بالذّهاب معها، لأتعرّف على أمّها، ممّا جعلني أغيّر رأيي، كيلا أجرحها.

وما إن دخلنا حتّى جاءت أمّها، لكي تسلّم عليّ، فاستأذنتنا لبنى، بالدّخول للحمّام، أمّا أختها فقد ذهبت لتعدّ الشّاي، رغم رفضي، لتناول أيّ شيء، ولكن عبثًا..

- وهل يُعقل أن تزورنا، ولا تشرب شيئًا، هذا غير معقول، ستطردني لبنى من البيت، إن علمت بأنّنا لم نقم بالواجب، فأنت عزيزٌ عليها.

هكذا قالت أختها، حين رفضتُ شُرب، أيّ شيء، وكم أحسستُ بالخجل، حين قالت هذا الكلام، ساد الصّمت بعدها للحظات، قبل أن تقطعه أمّ لبنى بقولها:

- أشكرك على كلّ ما تفعله، مع لبنى.

- لا تقولي هذا الكلام يا خالة، فأنا لم أقم إلّا بواجبي.

سكتت قليلًا، ثمّ أضافت:

- لبنى مريضة جدًّا، كلّما تذكّرتُ هذا الأمر، أشعر بالحزن عليها.

كانت الأمّ تتكلّم بصوتٍ خافت، لكيلا تسمعها لبنى، فأحسستُ من ثنايا الكلام، بأنّها تريد أن تقول شيئًا، ولكنّها لم تستطع، فلزمتْ الصّمت آخر الأمر.. أين قلتُ لها:

- أعرف..

فرفعت بصرها نحوي، وقالت (مستغربة):

- تعرف ماذا؟

- أعرف بأنّ لبنى مصابة بالسّرطان.

فقالت (مستنكرة):

- ولكنّنا لم نخبر أحدًا، بهذا الأمر!

لم أدرِ ماذا أقول، فلزمتُ الصّمت، واكتفيتُ بالإصغاء، لِما يمكن أن تقوله، وخصوصًا حين أحسست، بأنّها تريد قول شيء، ولكنّ التّردّد منعها، وهنا دخلت أخت لبنى، وهي تحمل صينيّة في يدها، وضعتها فوق المائدة، وانصرفت، فعادت أمّ لبنى للكلام، لكنّها أخفضت صوتها أكثر، هذه المرّة، بعد أن اقتربت منّي، وقالت:

- أعرف بأنّ لك معزّة عندها، أريد منك خدمة، لو سمحت.

فقلت فورًا:

- لا تتردّدي يا خالة، سأفعل كلّ ما في وسعي.

- أريد أن تقنعها بالعدول، عن رفضها للعلاج، فأنت خير العارفين، بأنّ العلاج يمكن أن يساعدها.

وبالرّغم من معرفتي، بأنّ العلاج لن يؤتيَ أُكله، حين يصل المرض لآخر مرحلة، إلّا أنّي وعدتها بأن أحاول معها، ومن يدرِ؟ فربّما يحدث شيء ما، يغيّر من قدرها للأحسن.

***

عدتُ للمستشفى مرّة أخرى، وبمجرّد أن دخلتُ حتّى فوجئتُ بحازم، يركض نحوي مهرولًا، وتقاسيم الفرح بادية عليه، بصراحة لم أره سعيدًا هكذا، منذ أن تمّ تعييني، في هذا المستشفى.

- دكتور حامد، حمدًا لله أنّي وجدتك.. أريد أن أبشّرك.

فقلتُ (مستغربًا):

- خيرًا.. إن شاء الله.

فاقترب منّي، وهو يحاول أن يعدّل تلك النّظّارات، التي كادت أن تقع على الأرض، من فرط إسراعه في المشي، ثمّ همس في أذني:

- لقد وافقت نور، وافقت على الزّواج منّي.

بصراحة.. لم أدرِ ما أقول، أأشاركه فرحته، أم أحزن على خسارتي لنور، للمرّة الثّانية، مرّة حين تزوّجتُ جنى، بدلًا من أن أتزوّجها، والآن لأنّها وافقت، وستبدأ حياتها مع آخر، حاولتُ إخفاء شعوري بالانزعاج، ولكن عبثًا، فقلتُ له (وقد خارت قواي كليًّا):

- مباركٌ عليك.

وسرتُ دون أن أضيف شيئًا، أمّا هو فقد ظلّ ينظر لي باستغراب، فهو لم يتوقّع بأن أكون بهذا البرود، بل كان يعتقد بأنّي سأطير معه، من الفرح، فاكتفى بقول هذه الجملة، وعاد لمكتبه بعدها:

- ما به هذا الرّجل؟ ربّما لديه مشكل ما، ولذلك لم يكترث.

***

- لماذا لم تمرّ عليّ البارحة، كما وعدتني؟

سارة تقول لهاني غاضبة، ليردّ عليها (قائلًا):

- ما بكِ يا سارة؟ أفي كلّ مرّة نلتقي، تعودين لهذا السّؤال؟ ثمّ إنّ الجميع ينتظرنا، دعينا نلحق بهم، ونقضي وقتًا ممتعًا.

فأدارت سارة وجهها للنّافذة، دون أن تتفوّه بكلمة، أمّا هاني فقد انطلق بسرعة البرق، حيث تُقام السّهرة ببيت صديقٍ له، أبواه مسافران خارج البلد، وتركاه يسرح، ويمرح داخل البلد، ليحوّل بيت والديه، لوكر للدّعارة، يلتقي فيه الشّباب، والبنات أحيانًا، بحجّة الحضور، لعيد ميلاد هذا، أو سهرة تُقام على شرف ذاك.. رنّ هاتف هاني في هذه الأثناء، فألقى نظرة عليه، ثمّ ردّ (قائلًا):

- أنا في طريقي إليكم.. لا تقلق.

- من المتّصل؟

- إنّه صديقي كريم، كريم هو صاحب الحفل، اتّصل يستعجلُني، في الذّهاب إليهم.

***

وصل هاني أخيرًا، لبيت صديقه، وقد ملأ صوت الموسيقى الشّارع بأكمله، تقدّم هو وسارة للباب، فوجداه مفتوحًا على مصراعيه، فدخل هاني أوّلًا، ولحقت به سارة، أين كان صديقه كريم يقف، عند مدخل الباب، وبمجرّد أن رآه حتّى أسرع نحوه، فاتحًا ذراعيه، ثمّ قال:

- هاني؟ كيف حالك؟ لماذا لم نعد نراك أبدًا؟

فاقترب هاني منه، ليعانقه، ويسلّم عليه، ثمّ قال:

- مشاغل.. أنت تعرف أبي، هو حريصٌ على أن نتواجد معه.

فضحك كريم من نبرة هاني، التي اتّسمت بالجدّية، ثمّ قال:

- الشّغل؟ آه.. هاني أصبح لديه شغل يا سادة!

وعاد للضّحك، ليضحك معه هاني.. ثمّ نظر لسارة، وقال:

- أهذه زوجتك يا هاني؟ بصراحة ذوقك تحسّن، عن ذي قبل.

فسحبه هاني من يده، ليقفا بعيدًا عن سارة، ثمّ همس في أذنه:

- أيُعقل أن يجلب الرّجل زوجته معه، لمكان كهذا؟

فصاح كريم (قائلًا):

- إذًا تعالي يا سارة، لأسلّم عليك.

واقترب منها، ليسلّم عليها، ويعانقها، فصاح هاني فيه (قائلًا):

- ويحك، هذه صديقتي، ألا تفهم؟

فضحك كريم، ثمّ قال:

- أنا أمازحك، ليس إلّا..

- ما بك يا رجل؟ لا تقل لي بأنّ هذا من أثر المخدّرات؟

وضحكا معًا، بأعلى صوتيهما.. قال كريم بعدها (مرحّبًا بهما):

- حسنٌ.. تفضّلا.. أهلًا، وسهلًا بكما.

جلست سارة بجانب هاني، وشلّته، بالإضافة للكثير من الشّباب، وغير بعيد عنهم، كان هناك بعض الشّباب، والبنات الذين أخذوا على عاتقهم، مهمّة الرّقص، على أنغام تلك الموسيقى الصّاخبة، وإطلاق تلك الصّرخات المجنونة، من حين لآخر..

***

- أين أنتِ يا جنّات؟ لقد نفذ صبري.

- حسنٌ، أنا قادمة.

فتحت جنّات باب المنزل بحذر، بعد أن وضعت المنوّم لأمّها، والحارس كالمرّة السّابقة، ثمّ خرجت نحو سيّارة عادل، الذي مدّ يده، ليفتح لها الباب، وينطلق مسرعًا، بمجرّد أن ركبت.. ثمّ أخرجت المرآة من حقيبتها، وعدّلت هندامها، ومكياجها.. فقال عادل (بتذمّر):

- ألم تضبّطي نفسك، طيلة المدّة التي انتظرتكِ فيها؟

فلم تكترث لكلامه، وواصلت وضع المكياج، دون التّفوّه بكلمة، وفي هذه الأثناء زاد عادل من سرعة السّيّارة، فصاحت جنّات:

- على رسلك.. لن تنتهيَ الحفلة، قبل الفجر.

وبعد لحظاتٍ من السّير، توقّف عادل عند فيلّا، تقع وسط مجمّع سكني، وركن سيّارته بالقرب منها، لينزل برفقة جنّات، ودخلا للدّاخل، أين استقبله صديقه، الذي كان يقف، عند مدخل الفيلّا (مرحّبًا):

- عادل؟ كيف حالك؟

فاقترب عادل منه، ثمّ قال:

- بخير، وأنت؟

- أنا بخير.

ثمّ نظر لجنّات، وقال:

- أهلًا، وسهلًا بزوجة عادل.

فضحكت جنّات، ومعها عادل، ثمّ قال هذا الأخير:

- لم تتغيّر أبدًا يا كريم.. لا زلتَ كما عرفتك.

فضحك كريم هو الآخر، ثمّ قال:

- إذًا تفضّلا، أهلًا، وسهلًا.

سار عادل برفقة جنّات للدّاخل، أين كان بعض الشّباب يرقصون، على أنغام تلك الموسيقى، وهم يتمايلون يمينًا، ويسارًا، تمامًا كتلك الأضواء الملوّنة، الموضوعة بزوايا السّقف، والتي تتحرّك في كلّ اتّجاه، لتعطيَ انعكاسًا على الشّباب، فتزيدهم حماسًا، وفجأة التقى عادل برفيقه، فوقف ليسلّم عليه، ووقفت بجانبه جنّات تنتظره، ريثما ينهي حديثه، ليجلسا في أيّ مكان بعدها، التفتت جنّات في هذه الأثناء، كانت تنظر للشّباب، الذين يرقصون، مشكّلين حلقة، وظلّت على هذا الحال للحظات، قبل أن يلفت انتباهها شيء ما، فاتّسعت عيناها، لقد رأت شخصًا، يجلس في مجموعة من الشّباب، يمسك في يده اليمنى الشّيشة، وفي اليسرى كأس الخمر، وقد كان يضحك مع رفاقه، بأعلى صوته، رفاقُه الذين شاركوه شرب الشّيشة، فقالت:

- يا إلهي، أخي هاني هنا؟ عليّ مغادرة هذا المكان، قبل أن يراني.

وكاد يراها بالفعل، لولا أنّها اختبأت في آخر لحظة، خلف عادل، الذي كان لا يزال يحكي، مع صديقه، ثمّ أمسكته من ذراعه، وهمست في أذنه، طالبة منه المغادرة بسرعة، ثمّ ركضت بسرعة البرق للباب، أمّا عادل فلم يفهم شيئًا، فاستأذن من صديقه، ليرى ما بها..

- جنّات.. جنّات.. إلى أين؟ أيّتها المجنونة؟

كانت جنّات قد خرجت، ووقفت بعيدًا عن باب البيت، وفي هذه الأثناء خرج عادل، فنادى عليها مرّة أخرى:

- جنّات..

فالتفتت خلفها، وإذْ بها تجد عادل يتّجه نحوها، فقالت له:

- يجب أن أعود إلى البيت حالًا.

- ولكن ما بك؟ السّهرة لم تبدأ بعد.

- أخي هاني في الدّاخل.. لا يمكنني البقاء.

- أخوك؟

تقدّمت جنّات نحو السّيّارة، ولحقها عادل مستغربًا.. ثمّ قال:

- ولكن ما الذي أتى به، إلى هنا؟

- ألم أخبرك بأنّه قد ذهب، ليسهر مع رفاقه؟ وهذا ما جعلني آتي، إلى هنا معك، من حسن حظّي أنّه لم يرني.

- وماذا نفعل الآن؟

- أعود للبيت طبعًا.

- ولكن أيُعقل هذا يا جنّات؟ بعد كلّ ما فعلتِه لتخرجي، تعودين؟

- وما العمل؟

- أرى بأن نذهب لأيّ مكان آخر، لنسهر سويًّا، ما رأيكِ لو نذهب لأحد الملاهي اللّيليّة؟

- بصراحة، لا أعرف.. فرؤية أخي أربكتني كليًّا.

- هيّا.. لا تكوني حسّاسة هكذا، أخوكِ في السّهرة، ولن يغادرها قبل الفجر.

***

ظلّ الشّباب يرقصون، لمدّة طويلة، إلى أن خارت قواهم، الواحد تلو الآخر، فبدأوا بالانسحاب، شيئًا فشيئًا، ليجلسوا مكوّنين جماعات، تتشارك تعاطي تلك السّموم، وكان هاني من بين هؤلاء، ومعه صديقته سارة، رنّ هاتفه في هذه الأثناء، فسحبه من جيبه، ليرى من المتّصل، وإذْ به يتغيّر لون وجهه فجأة، وتتّسع عيناه، على غير عادته، وحين رأت سارة منه ما رأت، شكّت في أمره، فقالت له:

- لما لا تجيب يا هاني؟

فحاول أن يخفيَ توتّره، ورسم ابتسامة على وجهه، ثمّ قال:

- هذه أمّي فقط.. اتّصلت، لتطمئنّ عليّ.

- طمئنها إذًا، وأجب عليها، حتّى لا تقلق عليك.

- أوه، بصراحة لا أستطيع أن أردّ عليها، لأنّها ستسمع الموسيقى، وستعرف إلى أين ذهبت، وتخبر أبي بذلك.

فابتسمت سارة، رغم أنّها لم تصدّقه.. فقد باتت مقتنعة، بأنّ هناك فتاة أخرى في حياته، ولكنّها ظلّت محافظة على هدوئها، ريثما تعرف من هي، هذه الفتاة، وإلّا فلا معنى لما ستفعله الآن، طالما ليس في مقدورها، أن تتأكّد.

***

وفي الجانب الآخر، ذهب عادل، وجنّات، لأحد الملاهي، التي تعوّد عادل أن يرتاد عليها، وبعدما جلسا قليلًا، قام هذا الأخير ليرقص، مع الشّباب، الذين كانوا يرقصون، ومدّ يده لجنّات، ثمّ قال:

- هيّا.. لنرقص قليلًا.

- أوه.. أرجوك يا عادل، أنا لا أحبّ الرّقص.

- حسنٌ.. سأذهب، لأمرح قليلًا.

فابتسمت جنّات، مجاملة إيّاه، بينما أسرع، ليدخل وسط أولئك الشّباب، وهو يصرخ، ويلوّح بكلتا يديه، وكأنّه ذاهبٌ للحرب، وأخذ يحثّ الجميع، على بذل جهدٍ أكبر (قائلًا):

- ما بكم؟ أين همّتكم يا شباب؟ أم تُراكم جئتم إلى هنا، لتناموا؟

ثمّ عاد ليلوّح بيديه، وهو يقفز، طالبًا من الشّباب بأن يفعلوا مثله، وهو ما حصل، فقد أثارت حركاته، الحماس في نفوسهم، فبدأوا بالقفز، وهم يضحكون، بسبب تلك الحركات السّاخرة، التي كان عادل يقوم بها، محاولًا تقليد أشهر الرّاقصين في العالم، ليحاكيَ بذلك رقصاتهم، ولكن بطريقة هزليّة، وظلّ هو، وأصدقاؤه على هذا الحال للحظات، قبل أن يتركهم، ليعود لمكانه، فنظرت له جنّات، وهي تضحك، ثمّ قالت:

- أراك نشيطًا، وسعيدًا على غير عادتك.

فأخرج أقراصًا من جيبه، ثمّ ضحك، وقال (مشيرًا للأقراص):

- حبوب السّعادة.. أتريدين أن تجرّبي؟

- لا، يكفيني أنّي صرتُ مدمنة على الخمر، والفضل يعود لك.

- الخمر لا يساوي شيئًا، أمام هذه الحبوب، أعدكِ بأنّكِ ستطيرين من السّعادة، إن أنتِ جرّبتها.

سكتت جنّات قليلًا، ثمّ قالت:

- بصراحة لست مقتنعة من فائدتها، فقد قرأتُ مقالًا في الانترنت، يفيد بأنّها تعطي السّعادة، بشكل مؤقّت فقط، ولكن بمجرّد أن يدمن عليها الإنسان، فإنّه لا يعود قادرًا على..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعها عادل (متذمّرًا):

- أعدك بأنّكِ ستنسين هذا الكلام، بعد أخذ هذا القرص.

وناولها القرص، ولكنّها ظلّت مصرّة على رأيها، فشعر بالانزعاج، وأحسّ بأنّ مخطّطه قد باء بالفشل، خاصّة في ظلّ إصرار جنّات، على رأيها، فكّر قليلًا، وفجأة ارتسمت ابتسامة مفاجئة، على محيّاه، يبدو أنّه قد عثر على خطّة، تخرجه من مأزقه، فقام من مكانه، ومشى بجانب كأس الماء، الموضوع على الطّاولة، في الجهة التي تجلس فيها جنّات، وبحركة مفتعلة اصطدم بالكأس، فوقع على ثوبها، وصاحت (قائلة):

- أوه.. يا إلهي.. لقد تبلّل ثوبي.

فتظاهر عادل بأنّه لم يكن يقصد هذا، وقال:

- أنا آسف.. بصراحة لم أنتبه لوجوده أبدًا.

فاستأذنت لتذهب للحمّام، أمّا عادل فقد عاد لمكانه، بحجّة أنه سيبقى، ريثما تنتهي من تعديل مظهرها.. ثمّ انتهز فرصة ذهابها، ليضع قرصًا بكأس العصير الخاصّ بها، مضت لحظات، وبعدما عادت قال:

- أتعلمين يا جنّات؟ أرى أنّ كلامكِ صائبٌ لحدٍّ ما، عليّ أن أقلع عن هذه السّموم، ما رأيك لو نشرب القليل، من العصير، ونغادر بعده.. فغدًا لديّ عملٌ مهم، عليّ أن أقوم به.

ورفع كأس العصير، وأشار لجنّات بأن تشرب بسرعة، ليغادرا، فما كان منها إلّا أن شربت، هي الأخرى، وهي مستغربة سرّ استعجاله لها.

***

خرج هاني مع سارة، بعد أن انتهت السّهرة، وقطعا الطّريق سويًّا، ليتّجها للسّيّارة، التي كانت مركونة، في جانب الطّريق، وقبل أن يركبا، ناداه صديقه كريم، فالتفت خلفه، ليجده واقفًا ينتظره، فطلب من سارة أن تركب، ريثما يكلّمه، وعاد أدراجه، ليجتاز الطّريق.. فتفاجأ بسيّارة، تسير بسرعة جنونيّة، وحاول تجنُّبها، ولكن عبثًا، فقد صدمته، لتلقيَ به على الطّريق.. فأسرع كريم، وآخرون ممّن كانوا حاضرين هناك، أسرعوا لهاني، الذي كان يتألّم، وقد ملأت الدّماء جبينه، والجانب الأيمن من جسده، لتلحقهم سارة (وهي تصرخ):

- هاني.. هل أنت بخير؟

التفّ الجميع حوله، ثمّ حملوه، ووضعوه في سيّارته، أمّا كريم فقد تكفّل بقيادة السّيّارة، بينما آثرت سارة الجلوس، في الخلف.. بعد أن نُقل هاني للمشفى، ومكث هناك لمدّة، تلقّى فيها بعض الإسعافات، جاء الطّبيب ليتفقّده، ففوجئ بأنّه يعرفه.. أين قال له:

- كيف حالك الآن يا هاني؟

فأجابه (بصوتٍ أجشّ):

- أنا بخير دكتور.. أشكرك.

ثمّ قام بفحصه، فحصًا سريعًا، فنظر للكدمات، التي في وجهه، وجسمه، ثمّ قال:

- جيد.. حالتك لا تستدعي البقاء، ستغادر بعد ساعة من الآن، إن شئت، ولكن أخبرني، أتشكّ في شخص معيّن؟

فارتبك هاني قليلًا، ثمّ قال:

- لا أعلم، فأنا لم أره جيّدًا، ولهذا لا أستطيع أن أتّهم أحدًا.

- عليك أن تُحرّر محضرًا بالواقعة، فهذه المرّة قد حالفك الحظّ، ولكنّه لن يكون في صالحك دائمًا.

- ماذا تقصد؟

- من الممكن أنّ من قام بهذا، له ثأرٌ مع والدك، لا تنس بأنّ والدك رجل أعمال معروف، من المؤكّد بأنّ له أعداء، فلا تستبعد أيّ شيء، حين تخرج، اتّجه فورًا لأقرب مركز، وحرّر محضرًا، كما قلت لك.

نظر هاني للدّكتور باستغراب، ولكنّه ظلّ صامتًا، أمّا هذا الأخير فقد استأذن بالانصراف (قائلًا):

- إن احتجت لأيّ شيء، فلا تتردّد في إرسال أحد الممرّضين إليّ.

فأومأ هاني برأسه للدكتور، وقال له (بامتنان):

- شكرًا.

ثمّ عاد للتّفكير في الحادثة.. فاقتربت سارة منه، وقالت:

- من الممكن أن يكون حسن، هو من فعل هذا.

- أوه.. لا أعتقد هذا يا سارة.

- ولكن لما لا؟ ألم يهدّدك المرّة الماضية، وأمام الملأ؟

فلزم الصّمت قليلًا، قبل أن يقول:

- حسنٌ، سأعرف بطريقتي، وإن كان له دخل، فسأجعله يتمنّى الموت هذه المرّة، ولن يجده.. أعدكِ بذلك.

***

السّاعة تشير للثّامنة صباحًا، كنتُ في المشفى، أين قمتُ لأذهب للحمّام، وإذْ بي أحسّ بدوار شديد، تمامًا كالمرّة السّابقة، فحاولتُ أن أتمسّك بأيّ شيء، ولكن لم أستطع، فقد ارتخت أطرافي، وتشوّشت الرّؤية، فأضحت ضبابيّة، وتداخلت كلّ الأشياء المحيطة بي، وفجأة اختفى كلّ شيء، فعمّ الظّلام، وحلّ محلّ الرّؤية المشوّشة، فلم أعد أحسّ بالعالم الخارجي، اللّهم إلّا من بعض الأصوات المتداخلة، والتي كانت تتفاوت بين الغلظة، والحدّة، سمعتُ خلالها أصواتًا تنادي:

- حامد.. حامد، هل أنت بخير؟

ثمّ اختفت تلك الأصوات، لأصحوَ بعدها بمدّة، لم أعرف مداها، لكن ومع ذلك، فقد بقيتْ الرّؤية مشوّشة، حاولتُ أن أستجمع قواي، ولكنّني شعرت بوهن شديد، فاستسلمتُ له، وأنا على هذا الحال، وإذْ بي أسمع صوت فتاة، كانت تقف بجانبي، وتمسك بيدي، لتهمس في أذني (قائلة):

- حامد، حامد، أتسمعني؟

ثمّ عادت للتّحدّث إلى شخص، كان يقف بجانبها (قائلة):

- لقد انخفض ضغطه، بشكل مفاجئ، وهو ما سبّب له الإغماء.

فحاولتُ أن أركّز في ملامح الفتاة، وإذْ بي أجدها نور، وقد كانت معها إحدى الطّبيبات، وبالرّغم من تعرّفي عليها، إلّا أنّ الصورة بقيت مشوّشة، وغير ثابتة.. عادت نور لتتحدّث معي:

- هل تسمعني؟

فنظرتُ لها مرّة أخرى، وإذْ بها تتغيّر من نور، لأخرى لم أعرفها، على الأغلب هي ممرّضة، فقد كانت ترتدي زيّ الممرّضات.. عادت لتهمس في أذني (قائلة):

- إن كنت تتجاوب، فيكفي أن تحرّك رأسك، ونحن سنفهم.

فحاولتُ أن أستجمع قواي، ولكن لم أستطع التّحكّم في جسمي، فكلّ شيء قد بدا ثقيلًا لوهلة، حتّى رأسي، وكأنّ أحدًا ضربني عليه، وفجأة عاودني الإحساس بالدّوار، واضطرب كلّ شيءٍ حولي، ليختفي كلّ شيء، ويحلّ الظّلام مرّة أخرى..

***

ظلّت أمّ هاني تنتظر عودة ابنها، وبعد أن يئست، اتّجهت لغرفة جنّات، ودقّت الباب، ولكنّها لم تجب، ففتحت أمّها الباب، ودخلت، أين وجدتها نائمة، فاقتربت منها، ووضعت يدها على كتفها، وقالت:

- جنّات، جنّات.. هل أنتِ بخير؟

فقامت جنّات من الفراش بالكاد، ثمّ قالت لأمّها (مستغربة):

- ماذا هناك يا أمّي؟

- لقد ناديتُ عليكِ عدّة مرّات.. ألم تسمعيني؟

- بلى، ولكن لم أستطع النّهوض، أحسّ بأنّ جسمي ثقيل، ورأسي يؤلمني جدًّا.

وضعت جنّات يديها، على رأسها، وضغطت عليه بشدّة، محاوِلة تخفيف الألم، ولو قليلًا، فجلست أمّها بجانبها، وبعدها علّقت:

- أنا أيضًا أحسّ اليوم، بأنّي لستُ على ما يرام، فقد نمتُ البارحة نومًا عميقًا، لدرجة أنّني لم أستيقظ، إلّا بعد أن رنّ هاتفي، أين وجدتُ بأنّ أباكِ قد اتّصل، ليطمئنّ علينا، وحين سألني عن هاني، تذكّرتُ أن أقوم، وأتفقّده ككلّ مرّة، حين يتأخّر في السّهر، مع أصدقائه.. فأجده نائمًا في غرفته، ولكنّه لم يعد إلى الآن.

وسكتت قليلًا، ثمّ أضافت:

- لا أعلم أين هو الآن، وهاتفه لا يجيب، ما الذي عليّ فعله؟ هل أتّصل بأبيك، ليتصرّف؟ لو اتّصلتُ به سيوبّخني، وسيتّهمني بالتّقصير.

كانت جنّات تصغي لها، بالرّغم من حجم الصّداع، الذي تحسّ به، ولكنّها لم تكترث به، بقدر ما كانت تفكّر، في موضوع أخيها:

- تُرى أين يمكن أن يكون الآن؟ من المؤكّد بأنّ السّهرة قد انتهت البارحة، فأين ذهب بعدها؟ الوحيد الذي يمكنه مساعدتي، هو عادل، فهو يعرف أصدقاء هاني، وإلّا فلِما ذهب البارحة للمكان، الذي ذهب إليه هاني؟

- هل قلتِ شيئًا يا جنّات؟

قالت أمّ جنّات لابنتها، مستغربة شرودها، فردّت عليها (بارتباك):

- أوه، لا، لم أقل شيئًا، ما رأيكِ لو ننزل، لنشرب القليل من القهوة، ونفكّر فيما علينا فعله.

نزلت جنّات، وأمّها للطّابق الأرضي، وفي هذه الأثناء كان هاني قد وصل للمنزل، وفتح الباب، وإذْ به يراهما، فأسرعت أمّه إليه (قائلة):

- أين كنت يا هاني؟ لِما لم تجب على اتّصالاتي، ولكن ما بك؟ لماذا تضع الجبس على يدك؟ ما به جبينك يا بُنيّ؟

واقتربت منه، محاوِلةً تفحُّص ما حصل له، فقال:

- كنتُ في سهرة مع رفاقي، وحين قرّرتُ الرّجوع، صدمتني سيّارة، فأخذني رفاقي للمشفى، وحين تأكّدوا بأنّني بخير أخرجوني.

- ولكن لِما لم تخبرني؟

- بصراحة لم أكن أريد إخافتكم، هذا كلّ ما في الأمر.

سار هاني مع أمّه، التي أمسكت بيده، لتساعده على المشي، أمّا جنّات فقد اقتربت، لتمسك بيده الأخرى، وقالت:

- حمدًا لله على سلامتك.

- شكرًا لكِ يا جنّات.

***

فتحتُ عينيَّ، لأجد نفسي نائمًا في المشفى، وحولي نور، وبعض الزّملاء، بالإضافة لسمير.. لم أفهم لِما أنا نائم هنا، ولا كيف وصلت إلى هنا، كلّ ما تذكّرته، هو أنّني شعرت بدوارٍ مفاجئ.

- الحمد لله على سلامتك يا حامد، لقد أخفتنا عليك.

قال سمير، وهو يضع السّماعة، ليستمع لدقّات قلبي، فسألته:

- لما أنا هنا يا سمير؟

فقالت نور:

- لقد أُغميَ عليك، وجدناك مُلقى على الأرض، فجلبناك إلى هنا.

ثمّ قال سمير:

- لقد انخفض ضغطك فجأة، وهو ما سبّب لك الإغماء.. أخبرني، هل تناولت أيّ دواءٍ البارحة؟

- بصراحة لا أتذكّر.

- حسنٌ، إليك هذه الأدوية ستساعدك، ولكن إذا انخفض ضغطك مجدّدًا، فعليك أن تجريَ بعض الفحوصات، لنعرف السّبب.

ثمّ سكت قليلًا، قبل أن يسألني:

- ولكن هل تستطيع الذّهاب بمفردك، إلى البيت؟

وقبل أن أجيبه، قاطعتني نور:

- أستطيع أن أوصلك أنا.. إن شئت طبعًا؟

فأومأتُ برأسي بنعم، لأنّني لم أكن واثقًا في قدرتي، على القيادة، فالشّعور بالدّوار لم يزُل بشكل كُلّي.. وخرجتُ من المستشفى معها، بعدما أخذتْ الإذن، واتّجهنا للمكان الخاص بالسّيّارات، أين سبقتني نور، وركبتُ بجوارها، لننطلق للبيت.. ظلّت صامتة قليلًا، ثمّ سألتني

عن نريمان، فأخبرتها بأنّها أحسن حالًا، ممّا كانت عليه في السّابق.. فسكتت قليلًا، ثمّ قالت:

- وكيف حال ابنك ليث؟ لقد كبر، أليس كذلك؟

- بلى.. بالرّغم من أنّه ليس معي الآن.

- أعرف، فقد أخبرني أخي عن مشكلتك، مع زوجتك.

فتعجّبتُ من صراحتها، وما أثار اندهاشي أكثر، هو تناقل النّاس للأخبار، والمشاكل، وسرعة انتشارها، كالنّار في الهشيم، فأنا لم أخبر أحدًا بهذا الأمر، فمِن أين عساه يكون عرف، من المؤكّد بأنّ خالد هو من أخبره بذلك، فهما أصدقاء منذ الطّفولة، عادت نور للكلام:

- هل للموضوع علاقة بالدّكتورة لبنى؟

- منذ أن تزوّجنا، لم يكن بيننا الكثير من التّفاهم، والدّكتورة لبنى مجرّد زميلة، أحترمها تمامًا كما أفعل، مع أيّ زميلة، في المستشفى.

لم تعقّب نور على كلامي، وظلّت صامتة.. فاستأنفتُ الكلام:

- صحيح.. نسيتُ بأن أبارك لك.

- على ماذا؟

- أخبرني الدّكتور حازم بأنّكِ قد وافقت، على الزّواج منه.

فلم تكترث بالموضوع، وقالت:

- لقد وافقتُ مبدئيًّا.. لا أعرف إلى أين ستأخذنا الأيّام؟

ولزمنا الصّمت بعدها.. إلى أن وصلنا للمنزل، وهنا قالت:

- سلّم على زوجة عمّي.. والبنات، وخالد.

- ألن تدخلي، لتسلّمي عليهم بنفسك؟
- ولكن لا أريد أن أثقل عليكم، فربّما لا يحبّ عمّي..
وقبل أن تكمل كلامها، قاطعتها (قائلًا):
- لا تقولي هذا الكلام، فأنتِ تعلمين محبّة أمّي، وإخوتي لك، بل حتّى أبي يحبّك، بالإضافة لأنّه ليس هنا، فقد سافر منذ أيّام.
نزلت نور من سيّارتها، بعد أن أقنعتُها.. ودخلنا للبيت، وما إن رأتنا أمّي حتّى أسرعت، لتسلّم عليها، وفي رأسها ألف علامة استفهام، فهي لم تصدّق أبدًا، بأنّ من تقف بجانبي، هي نور ذاتها.. فقالت:
- نور هنا؟ أنا لا أصدّق أبدًا.. مرحبًا بك!
فقالت نور (بخجل):
- أهلًا.. كيف حالكِ يا أمّ حامد؟ وكيف حال البنات؟
- بخير، بخير، تفضّلي.
- أوه.. لا أستطيع، عليّ أن أعود للشّغل، جئت فقط لأوصل حامد.
فنظرت لي أمّي مستغربة، ثمّ عادت لتنظر لنور، وقالت:
- توصلين حامد؟
فقلتُ لها:
- لا تقلقي.. لقد شعرتُ بدوار بسيط، ونور كلّفت نفسها، عناء المجيء، بالرّغم من أنّ حالتي لا تستدعي القلق.
فاقتربت منّي أمّي، وقد رثت لحالتي، ثمّ قالت:
- هذه المرّة الثّانية، التي تُصاب فيها بدوار، إنّك ترهق نفسك.

- أرجوكِ يا أمّي، لا داعي لكلّ هذا، فأنا بخير.. حتّى اسألي نور.

فسكتت بعد أن أحسّت بالخجل، من نور، وتداركت الأمر:

- أنا آسفة، لم نقدّم لكِ واجب الضّيافة.. فقد انشغلتُ بحامد.

- لا عليكِ يا خالة.. أستأذنكم، سلّمي على البنات، وخالد.

صعدتُ لغرفتي، بعد ذلك لأرتاح، نزولًا عند رغبة أمّي، وإصرارها الشّديد، والتي ساعدتني بنفسها، في الصّعود، ولم تكتف بهذا فقط، بل وأمرتني بأن أرتاح في فراشي، وغطّتني كما كانت تفعل معنا، ونحن صغار، ثمّ نزلت لتعدّ لي بعض الأكل، لأتناول بعده الدّواء، الذي وصفه لي سمير، سحبت أمّي الكرسي، وجلست تنتظر، حتّى تفرغ من إعداد الطّعام، وفي هذه الأثناء جاءت فلّة، لتجدها شاردة الذّهن، فقالت:

- صباح الخير يا أمّي.

فردّت عليها (ببرود):

- صباح الخير.

سحبت فلّة الكرسيّ المقابل لأمّي، ثمّ جلست، وقالت:

- أراكِ مهمومة، هل من خطب؟

فتنهّدت، ثمّ قالت:

- أخوك.. لا أعرف ما به.

- أخي من؟

- حامد.

- ولكن ما به حامد؟

- لقد أُغميَ عليه اليوم، في المشفى، وهذه المرّة الثّانية.

- لا تقلقي يا أمّي، ربّما يكون هذا بسبب الإجهاد، فحامد إنسانٌ نشيط، وعملي، بالإضافة لأنّ شغله صعب، ومتعب بعض الشّيء.

- قلبي يحدّثني بأنّ كلّ ما يحصل لنا، من مشاكل، هو بفعل فاعل.

فركّزت فلّة، وقالت مستفسرة (بعد أن وضعت يدها على فمها):

- ولكن ماذا تقصدين يا أمّي؟

- أقصد بأنّ تلك العقرب، زوجة أبيك، هي السّبب فيما نحن فيه، فلطالما هدّدتني بأنّها ستدمّر أبنائي، لتنتقم منّي، وها قد رأيتِ ما حصل لنريمان، ثمّ حامد، بصراحة لستُ مطمئنّة أبدًا، لقد أخبرني الحارس مرّة، بأنّه رأى امرأة تقف عند باب المنزل، في الصّباح الباكر، لتُخرج شيئًا من حقيبتها، ورمته عند الباب، وبعد أن اقترب منها، ونادى عليها هربت، قبل أن يتعرّف عليها.. أنا أجزم بأنّها هي، من قامت بذلك.

فضحكت فلّة، حتّى بانت نواجذها، ثمّ قالت:

- لاا.. أمّي أصبحت تؤمن بهذا الكلام؟ منذ متى هذا يا أمّي؟

- منذ اللّحظة، نحن لم نكن نؤمن بهذا الكلام، لأنّنا طيّبون، ولكن ليس كلّ النّاس مثلنا يا ابنتي، ثمّ إنّ الحقد يفعل بصاحبه الأعاجيب، ولا تنسيْ بأنّ زوجة أبيكِ مجنونة، وعقلها صغير تمامًا كالأطفال.

- ولكن ما العمل يا أمّي؟ هل علينا أن نختبئ في البيت؟ أم ندفن أنفسنا، فقط لأنّ هناك من يترقّب حياتنا؟

- عليّ أن أتصرّف، فليس لديّ استعداد، لأن أخسر بقيّة أولادي، يكفيني رؤوف، الذي هرب، ولم يعد.

استغربت فلّة من كلام أمّي، فهذه أوّل مرّة تسمعها فيها، تتكلّم عن هذا الأمر.

***

عاد أبي من السّفر أخيرًا، وكان أوّل ما قام به، فور دخوله للمدينة، أن ذهب للشّركة، وطلب من السّكرتيرة، بأن تتّصل بأخي خالد، ليراجع ما فعله في غيابه، وبعد أن تأكّد من شغله، وأعجبه ما أبلاه، في غيابه، وضع الملفّات على المكتب، ونظر له بفخر، وإكبار، ثمّ قال:

- بصراحة.. لم أكن أتوقّع، بأنّه يمكنني الاعتماد عليك.

فقال خالد:

- تلميذك يا أبي.. تستطيع الاعتماد عليّ دائمًا.

- أتعلم يا خالد؟ فيك شيءٌ من رؤوف، أنت تذكّرني به، لديكما نفس الجدّية، والطّموح.

وتنهّد مطوّلًا.. ثمّ أشعل سيجارة، وقال:

- لقد أخطأتُ حين شككتُ فيه، واعتمدت على هاني.

وسكت قليلًا، ثمّ عاد للتّساؤل:

- صحيح.. أين هاني؟ لماذا لم يأتِ ليراني؟

- لقد طلب إذنًا، بعدم المجيء اليوم.

- حسنٌ.. عد إلى شغلك.

قال أبي هذه الجملة، وعاد ليدخّن (وهو يفكّر في رؤوف):

- تُرى أين عساه يكون الآن؟ كيف يعيش حياته؟ وبأيّ أرضٍ هو؟

ثمّ حمل نفسه، وخرج من الشّركة، أين ركب سيّارته، وطلب من السّائق، بأن يوصله للمنزل.

***

لمّا علمت وردة بأنّ هاني لم يأت، أخذت هاتفها، واتّصلت به.. وبعد ثوانٍ ردّ عليها (قائلًا):

- صباح الخير، لأجمل وردة.

- صباح الخير.. كيف حالك؟

- بخير، وأنت؟

- بخير.. لقد علمتُ بأنّك لم تأتِ للشّغل.. خيرًا إن شاء الله.

- مجرّد حادثٍ بسيط.

- حادث؟ كيف حصل هذا؟

- كنت في سهرة مع رفاقي، وحين انتهينا، خرجتُ مع صديقي، وإذْ بسيّارة تصدمني، يبدو بأنّ صاحبها كان سكرانًا، على كلّ حال أنا بخير الآن، لا تقلقي عليّ.

- يؤسفني سماع هذا.. أيمكن أن أزورك، لأطمئنّ عليك؟

- تزورينني؟ حسنٌ.. أهلًا، وسهلًا بك.

- إذًا سأمرُّ لأطمئنّ عليك، حين ينتهي الدّوام.

أنهى هاني كلامه، وهو يفكّر فيما قالته وردة، حول زيارتها له، وفي هذه الأثناء دخلت أمّه، لتجده شارد الذّهن، فوضعت الأكل، ثمّ قالت (متسائلة):

- كيف حالك الآن؟

ولكنّه لم يجبها، يبدو بأنّ أفكاره قد سيطرت عليه، فقالت:

- هاني.. هل تسمعني؟

- أوه.. أجل.. ما بكِ يا أمّي؟

- أنت لست هنا أبدًا، لقد كنت أسألك عن حالتك الآن؟

- أنا بخير.. بخير يا أمّي.

- ولكن أين ذهب عقلك؟ فيما تفكّر يا بُنيّ؟

- بصراحة لي صديقة، طلبت أن تأتي، لتطمئنّ عليّ.

فصرخت أمّه - فجأة - في وجهه (قائلة):

- ومن تكون؟ لا تقل لي بأنّها إحدى بنات الملاهي؟ فأنا أعرفك.

- ولكن ما بك؟ أيُعقل بأن أحضر لكِ بنتًا، من هذه العيّنة؟

وسكت قليلًا، ثمّ قال:

- اسمعي يا أمّي، هذه البنت زميلتي في الشّركة، وأبوها صديقٌ قديم لأبي، وهي من عائلة غنيّة، ومحترمة، أرجوكِ لا تحرجيني أمامها.

فابتسمت حين سمعت هذا الكلام، وتنفّست الصّعداء.. وقالت:

- أريدك هكذا.. عليك أن تقع واقفًا دائمًا، قل لي أهي جميلة؟

فشعر هاني بالسّعادة، والفخر، عندما سمع إطراءها، وقال:

- آية في الجمال.. أنا متأكّد بأنّها ستُعجبك، بمجرّد أن تريْها.

- حسنٌ.. سنرى يا هاني.

***

دخل أبي للمنزل، وصعد لغرفته، فوجد أمّي جالسة، وقد بدا عليها الحزن، لدرجة أنّها لم تنتبه له، فاقترب منها، وقال:

- خديجة.. هل أنتِ بخير؟

وهنا انتبهت أمّي، والتفتت، لترى أبي واقفًا أمامها، فقالت:

- سالم؟ عدت أخيرًا؟ لما لم تعلمني، كي أعدّ لك غداءً شهيًّا؟

فجلس أبي على السّرير، ثمّ نزع حذاءه، وجواربه، وقال:

- لا عليك، فأنا لست جائعًا، أخبريني، كيف حال نريمان؟

فتنهّدت، وقالت:

- إنّها تتماثل للشّفاء، وإن كان هذا بشكل بطيء، ولكن لا نملك إلّا أن نحمد الله، على كلّ حال.

- ما بك؟ أحسّ بأنّكِ مهمومة، أحصل أمرٌ ما في غيابي؟

- لا، لم يحصل أيّ شيء، لا تشغل بالك، فأنت متعبٌ من السّفر، سأعدّ لك شيئًا، لتأكله.

***

جلست جنّات تنتظر عادل، إلى أن جاء، فجلس بجانبها، وقال:

- عجيب.. أليس من المفروض، أن تكوني في المدرّج الآن؟

- بلى، ولكن طلبتُ من الأستاذ إذنًا بالخروج، رأسي يكاد ينفجر.

- ألا زلتِ تحسّين بالصّداع، من فترة لأخرى؟

- لم يتوقّف أبدًا، منذ مدّة.

- ولكنّني حاولتُ مساعدتك، ولم تقبلي، عليكِ بواحدة من هذه الحبوب، وسترين كيف سيزول الألم.

قال عادل كلامه هذا، ووضع يده في جيبه، ليخرج علبة، كعلب الدّواء، وأشار إليها (قائلًا):

- هذا هو الحلّ للصّداع يا جنّات.

فنظرت جنّات للعلبة مليًّا، وقالت:

- ولكن.. هل عليّ أن أتناول هذا الدّواء دائمًا؟

فقال عادل (وهو يفرك شعره بيده):

- أممم، ليس بالضّرورة.. استعمليه - فقط - حين تحسّين بالصّداع.

فأخذت العلبة، وأخرجت قرصًا منها، وقامت ببلعه، مع القليل من الماء، من قارورة صغيرة، كانت تحملها بحقيبتها، ثمّ وضعت العلبة في الحقيبة، وفي هذه الأثناء قام عادل، من مكانه، وقال:

- حسنٌ.. عليّ أن أذهب.. لديّ محاضرة الآن، أراكِ لاحقًا.

***

جلست وردة مع هاني، وأمّه، أين فتحت لها هذه الأخيرة تحقيقًا، حول عائلتها، ومهنة أبيها.. إلى أن قاطعها هاني (حين شعر بالخجل):

- أرجوكِ يا أمّي، دعي البنت ترتاح قليلًا، ثمّ اسأليها.. لن تهرب.

ثمّ نظر لوردة، وهو يبتسم، وقال بعدها:

- أمّي طيّبة، لا يغرّكِ منظرها، وكثرة أسئلتها.. حين تتعرّفين عليها، ستحبّينها كثيرًا.

فقالت وردة (بخجل، وهدوءٍ شديدين):

- إن شاء الله.

وهنا عادت أمّ هاني للحديث:

- ما شاء الله.. إنّها مؤدّبة، وجميلة، خذي العصير، ولا تخجلي، عادة اللّقاء الأوّل مع أيّ إنسان، يجعلنا نحسّ بالخجل، ولهذا حاولتُ أن أختلق المواضيع معك، لكيلا تحسّي بالخجل.

فأخذت وردة الكأس، وطفقت تشرب منه، وابتسامتها لم تفارق وجهها أبدًا، منذ أن دخلت، ممّا جعل أمّ هاني تنتبه لخجلها، وطيبتها الشّديدة، وهو ما جعلها لا تبعد عينيها، من عليها، ثمّ نظرت لابنها، وهي تشير بيدها، على حسن اختياره.. دخلت جنّات للمنزل، فناداها هاني، لتسلّم على وردة (قائلًا):

- جنّات.. تعالي، لتسلّمي على زميلتي وردة.

فدخلت للصّالون، ومدّت يدها، لتصافح وردة (قائلة):

- تشرّفتُ بمعرفتك.

فابتسمت وردة، وقالت:

- وأنا أيضًا.. لي الشّرف أن أتعرّف عليك.

فقال هاني لوردة:

- هذه أختي الصّغرى جنّات.

فنظرت جنّات لهاني، وقالت:

- صديقتك وردة جميلة، أليس كذلك؟

فاستغرب هاني من كلامها، ولكنّه لم يعلّق عليه، ولزم الصّمت، أمّا هي فقد جلست بجانب أمّها، التي سألتها (باستغراب):

- أراكِ سعيدة اليوم، خيرًا إن شاء الله؟

- لا.. لا شيء.

وابتسمت، ثمّ مدّت يدها، لقارورة العصير، وصبّت القليل منه، في كأس قريب منها، وأخذت ترتشف منه، فعادت أمّها لتسألها:

- ألا زلتِ تحسّين بالصّداع؟

فارتبكت جنّات من هذا السّؤال، ولكن سرعان ما عادت لتتصرّف بشكل طبيعي، لتسيطر على ارتباكها، فقد كانت تخشى، أن يكتشف هاني أمر الصّداع، الذي لازمها طوال الفترة الأخيرة، وخاصّة أنّه خبير في مجال الإدمان، فقالت:

- لا.. الحمد لله.

فقالت أمّها:

- لقد قلقتُ عليك.

وهنا قاطعتها جنّات (قائلة):

- لا تكوني حسّاسة هكذا، ماذا ستقول علينا وردة، ونحن نتحدّث عن أمورنا الرّوتينية أمامها، ولم نرحّب بها كما يجب، أليس كذلك يا هاني؟

فتداركت الأمّ نفسها، وعادت للحديث إلى وردة:

- أوه.. اعذرينا يا وردة، أتريدين أن أصبّ لك، المزيد من العصير؟

فقالت وردة (وهي تبتسم):

- لا عليك، إنّه لمن دواعي سروري، أن تعتبروني واحدة منكم، فأنا لا أحبّ كثرة المجاملات.

***

لقد حلّ اللّيل أخيرًا.. كم أحبّ هدوء اللّيل، وسكونه، على عكس النّهار المليء بالصّخب، والضّجيج، فإنّ له سحره الخاصّ، بالرّغم ممّا يوحيه من الخوف، والرّهبة، إلّا أنّني لا أجد متنفّسًا لنفسي، وأفكاري، وروحي إلّا فيه، حاولتُ أن أخلد للنّوم هذه اللّيلة، ولكنّني لم أستطع، فرحتُ أتقلّب يمينًا، ويسارًا، لأنام، ولكن عبثًا، وبعد أن فقدتُ الأمل، تركتُ سريري، واتّجهت للمكتبة، لأبحث عن كتاب، أتسلّى به..

مكتبتي هذه ليست بالكبيرة، لكن وبالرّغم من صغر حجمها، وقلّة كتبها، إلّا أنّني قد اخترتُ كتبها بعناية، ودقّة بالغتين، منذ أن كان أبي شغوفًا، بكسب سمعة طيّبة، بين النّاس، فاشترى - وقتها - مجموعة من أمّهات الكتب، ووضعها في مكتبة ضخمة، ليوهم النّاس بأنّه مثقّف، وهو ما كان له لاحقًا، بالرّغم من أنّه لم يفتح كتابًا ليقرأه، منذ أن اشترى تلك المكتبة، وهو ما جعلني أتحفّز للاطّلاع، على ما فيها، وذلك حين طلبتُ منه وقتها، أن يعيرني بعض الكتب لقراءتها، فلم يمانع يومها، بل على العكس، فقد قال لي:

- خذ من الكتب ما تشاء، شرط أن تقرأها، وتحافظ عليها، فهي كتبٌ قيّمة، ونادرة، وأنت أنسب شخص لها، لأنّك - وببساطة - ستزيل غبار السّنين عنها، وتكتشف ما بها من نفائس.

ومن وقتها وأنا آخذ البعض، من الكتب، وحين أنتهي منها أعيدها لمكانها الأصلي، وهو مكتبة أبي.. بصراحة مذ علمتُ بمرض لبنى، وأنا على هذا الحال، فقد أصبح النّوم صعب المنال.. ربّما لإحساسي بالذّنب اتّجاهها، واليوم لم تعد هي السّبب الوحيد، لقلّة نومي، فصورة نور لا تفارقني أبدًا، منذ أن أخبرني حازم، عن موضوع الخطبة، لم أعد أعلم، إلى متى سأظلّ أدفع ثمن طيبتي، بل إلى متى سأظلّ أدفع ثمن ضعف شخصيّتي، كم من المرّات عليّ أن أغبط نريمان، على موقفها، بالرّغم من أنّها لم تحقّق مبتغاها، من عنادها، بل خسرت الكثير، فقد خسرت إنسانًا، أحبّته بكلّ ما للكلمة من معنى، وكان هو الآخر يبادلها الشّعور نفسه، وربّما أكثر، لكن على الأقلّ هي حاولت، بكلّ ما أوتيتْ من قوّة، الدّفاع عن حقّها، في اختيار شريك حياتها، دون أن يفرض عليها، أيّ أحدٍ رأيه، أو مشورته، حتّى لو كان أبي.

***

كان هاني هو الآخر يتقلّب، في سريره، باحثًا عن النّوم، لكن دون جدوى، يبدو بأنّ النّوم قد صار شيئًا عزيزًا، في هذه الأيّام، بل ونادرًا، كحبّات اللّؤلؤ، التي يستخرجها البحّارة من المحار، قام من فراشه، ولكن لم يمسك كتابًا، ليقرأه، بل أمسك سيجارة، ليتفنّن في إحراقها،

كلّما أحسّ بالحزن، أو لعلّها هي من تتفنّن في إحراقه، ولكنّه لا يدري، جلس في الشّرفة، محاولًا طرد تلك الهواجس من مخيّلته، تنهّد أخيرًا، بعدما فشل، في كبح جماح مخيّلته، فأطلق لها العنان، ليتركها كجوادٍ بلا فارس، وبلا لجام، كعاصفة هوجاء، هبّت على حين غرّة، فراح يفكّر في الكلام، الذي قُلته له، بشأن تهديدات حسن لي أمام المدير، والموظّفين، وبأنّه سينتقم لأخيه.. يبدو بأنّه قد بات متأكّدًا، بأنّ كلامي صحيح، وأنّ عليه أخذ الحيطة، من هذا الشّاب.. قال (مكلّمًا نفسه):

- يبدو أنّ كلام حامد صحيح، عليّ أن أحسب كلّ خطوة، إذْ لا يُعقل بأن أتصرّف، بهذا الغباء، واللّامبالاة دائمًا.. فقد حالفني الحظّ، هذه المرّة، ولكن ليس في كلّ مرّة، يكون الحظّ حليفي.

***

قامت أمّي من فراشها، وذهبت، لتطمئنّ على نريمان، فمنذ مقتل سهيل، ومرض هذه الأخيرة، وهي لا تكفّ عن مراقبتها، وكأنّها تتوجّس خيفة، من شيء ما، ولكنّها لا تفصح عليه لأحد، عادت لغرفتها، بعد أن تفقّدتها، وهرعت لفراشها بهدوء، لكيلا توقظ أبي، ولكن هيهات، فهو لم يكن نائمًا أصلًا.. سألها:

- هل هي بخير.

فارتبكت حين سمعت صوته، ولكن ما لبثت أن عادت لهدوئها:

- ألم تنم بعد؟

- كلّا.. أخبريني، هل نريمان بخير؟

- أجل.. إنّها أحسن حالًا، من السّابق.

ثمّ خلدت للنّوم أخيرًا، وأدارت وجهها، للنّاحية الأخرى، لتوهمه بأنّها قد نامت، وأخذت تفكّر، فيما يمكن أن تفعله، لتعرف توجّهات أمّ هاني، فهي تجزم بأنّ كلّ ما يحصل لنا، إنّما هو بسببها.

***

- يا سلام، ما هذا الشّعور الجميل؟ كم أحسّ بسعادة غامرة، لم يسبق لي أبدًا، وأن أحسستُ بها، لقد كان عادل محقًّا، حين قال بأنّ هذه الحبوب، هي مفاتيح للسّعادة.

كانت جنّات مستلقية، وهي تنظر للنّجوم، من خلال تلك النّافذة، المقابلة لسريرها.. ثمّ عادت لتحدّث نفسها:

- هذه أوّل مرّة، أتأمّل فيها النّجوم، يا سلام، كم يبعث منظرها على السّعادة، تمامًا مثل هذه الحبوب.

***

توقّفت سيّارة الأجرة، عند باب الشّركة، ونزلت منها وردة، ومعها جهينة، لتتّجها إلى الباب، في هذه الأثناء كان خالد قادمًا، في الاتّجاه الآخر، وبمجرّد أن لمحته جهينة حتّى همست، في أذن وردة:

- انظري.. هذا هو الشّاب، الذي أخبرتكِ عنه، المرّة الماضية.

فنظرت وردة لخالد، ثمّ قالت:

- إنّه شابٌّ وسيمٌ حقًّا.. من الواضح بأنّه من عائلة محترمة.

ألقى خالد التّحيّة عليهما، وعلى الموظّفين، الذين كانوا خلفهما، واتّجه للحارس، بعد أن أفسح المجال للموظّفين، ليدخلوا أوّلًا، ويلحق بهم بعد ذلك، ولكن بعد أن أوصى الحارس، بأن يركن له سيّارته، في الجزء المخصّص للسّيّارات، وفي هذه الأثناء كانت وردة، وجهينة قد سبقتاه للدّاخل.. فقالت هذه الأخيرة:

- أرأيتِ كيف يسلّم عليه الموظّفون باحترام، وإجلال؟

- أجل.. بصراحة منذ الوهلة الأولى، شعرتُ بأنّه شخص محترم، حتّى قبل أن يسلّم عليه العمّال، ولكن.. لا أعلم.. لِما أحسّ بأنّه يشبه هاني، ابن صاحب الشّركة؟

فضحكت جهينة بأعلى صوتها، ثمّ قالت (معقّبة على كلامها):

- بصراحة.. لا أرى أيّ تشابه بينهما، شتّان بين ولد غنيّ مدلّل، وتافه، وشابٍّ مثل هذا الشّاب المحترم.. لقد قلتُ لكِ يا وردة سابقًا، بأنّ كلّ أولاد الأغنياء، ما هم إلّا متكبّرون، ومغرورون.

- حسنٌ.. اسكتي قبل أن يسمعكِ أحدهم.

قالت وردة كلامها هذا، وهي تستعجلها في الذّهاب لمكتبهما، قبل أن تضيف:

- فعلًا.. مجنونٌ هو ما يناقشك.

فردّت عليها جهينة (وهي تضحك):

- هيّا.. اصمتي، لا أعرف لِما تنزعجين، حين أذكره بسوء، أنتِ تخفين عنّي أمرًا، ولكنّي سأعرفه عاجلًا، أم آجلًا.

- حسنٌ.. دعينا نسرع، قبل أن يرانا نائب المدير.. أسرعي.

ثمّ رفعت بصرها إلى الأعلى (وهي تكلّم نفسها):

- يا ربّ خلّصني من هذه الفضوليّة.

فنظرت لها جهينة، وقالت:

- لقد سمعت كلامكِ يا وردة.

***

جلست أمّي ترتشف القهوة، في الحديقة كعادتها، وخصوصًا إذا كانت تشعر بالضّيق، أو الحزن، فإنّها تتّخذ الطّبيعة ملاذًا، للهرب من هواجسها.. جاءت الخادمة، لتسألها ماذا تحضّر للغداء، بالرّغم من أنّ أمّي لا تستعين بها، إلّا لتنظيف البيت، لأنّها تحبّ أن تطبخ بنفسها، والحقّ يقال، فأكلها لذيذٌ جدًّا، لدرجة أنّ الخادمة نفسها، طلبت منها أن تعلّمها الطّبخ، لتُعين به نفسها، حين يطلب منها البعض، بأن تطبخ لهم في الولائم، وخاصّة حين تأخذ إجازة، من عندنا.. ولكن أحيانًا كانت أمّي تطلب منها أن تطبخ، إن أحسّت بالتّعب، عادت الخادمة لتسألها مجدّدًا، حين لم تجبها:

- سيّدتي.. سيّدتي.

فشعرت أمّي بالفزع، ثمّ التفتت، وقالت:

- لقد أخفتني.. لم أنتبه لوجودك.

فاقتربت الخادمة من أمّي، وقالت:

- ما بكِ يا سيّدتي؟ منذ أيّامٍ وأنتِ لستِ بخير؟

وهنا طلبت منها أمّي، بأن تجلس على الكرسيّ المقابل، وقالت:

- بصراحة لديّ مشكلة، ولا أعرف من في إمكانه مساعدتي.

- لاا!.. أتحتاجين للمساعدة، وأنا هنا؟ كيف تحتاجين للمساعدة، ولم تخبريني؟ أنا رهن إشارتكِ دائمًا سيّدتي.

فابتسمت أمّي، ثمّ قالت (بامتنان):

- أنا أعتبركِ فردًا من العائلة، ولذلك كنت ألجأ لك، حين يستعصي عليّ أيّ أمر.. لو لم أكن أثق بك، لما أدخلتكِ بيتي.

- أنا أيضًا أبادلكم الشّعور نفسه، ولم أحسّ يومًا بأنّي غريبة بينكم، ولهذا حين تعترضكِ مشكلة، فلا تتردّدي في إخباري، صحيحٌ بأنّني لست في مستواكم، ولكنّي أقدر على الكثير، فلا تستهيني بي.

قالت كلامها، ثمّ ابتسمت، لتضيف:

- أنا أمزح معكِ سيّدتي.

فابتسمت أمّي، وقالت:

- حاشا.. لا يوجد في الدّنيا، من هو أحسن من الآخر إلّا بأخلاقه، وهذا المال إنّما هو رزقٌ من الله، يرزقه لمن يشاء من عباده، لله الفضل، والمنّة، وليس لنا أيّ فضل في هذا.

وسكتت قليلًا، ثمّ عادت للحديث:

- منذ مدّة وأنا أشكّ، في أنّ ضرّتي تقوم بسحرٍ لي، ولأولادي، لقد أخبرتكِ - طبعًا - ذاك اليوم، عمّا وجده الحارس.

فأومأت الخادمة برأسها، دون أن تتكلّم، تاركة المجال لها، لتعبّر براحتها، عادت أمّي للحديث مجدّدًا:

- أريد أن أعرف ماذا تفعل لنا، هذه الخبيثة، ولكن لا أعرف كيف.

فقاطعتها الخادمة (قائلة):

- مُرادكِ عندي سيّدتي.

فقالت أمّي (بشغف، وفضول):

- ولكن كيف ذلك؟

- أعرف عجوزًا، تسكن في وسط المدينة، يقولون عنها بأنّها أشطر واحدة، في هذه الأمور، ستخبركِ بكلّ ما تعجزين، عن معرفته بنفسك.

فابتسمت أمّي، وقالت:

- وهل أنتِ متأكّدة منها؟ أقصد.. هل هي حقًّا كما يقولون؟ فأنتِ تعلمين، بأنّ المحتالين كُثر، في هذا المجال، وأنا لا أريد تضييع وقتي.

- من هذه النّاحية اطمئنّي.

- ومتى سنذهب إليها؟

- الآن.. إن شئتِ طبعًا.

- حسنٌ.. سنذهب إليها مساءً، بإذن الله.. وإن كانت كما قُلت، فسأكافئك.

- لقد غمرتني بلطفك.. ولكن ما يهمّني حاليًّا، هو مساعدتك، وحين تصلين إلى مبتغاك، ساعتها لكلّ حادثٍ حديث.

***

كان حازم جالسًا، في المطعم، ينتظر نور، على أحرّ من الجمر، فمنذ دخوله للمطعم، لم ينفكّ عن النّظر لساعته، وبعد ربع ساعة، دخلت نور، وهي تلتفتُ باحثة عنه، فأشار لها بيده، أين اقتربت منه، وسلّمت عليه، ثمّ جلست بعد ذلك.

- ماذا تشربين؟

- أيّ شيء.

فنظر حازم للنّادل، وأشار له من بعيد، بأن يأتي، وبعد لحظاتٍ وقف هذا الأخير عنده (قائلًا):

- أيّ خدمة سيّدي؟

- أحضر لنا كوبين، من عصير البرتقال.. لو سمحت.

مرّت مدّة، وحازم يصول، ويجول كفارس مغوار، فلم يترك موضوعًا إلّا وتكلّم فيه معها، لا لشيء، سوى أنّه يريد أن يختلق الأحاديث، لتبقى معه، لأكبر قدر، أمّا هي فلم يكن في وسعها، إلّا أن تجامله، وذلك بأن تومئ برأسها حينًا، وتبتسم حينًا آخر، وهي في حقيقة الأمر، لم تكن تصغي، لأيّ كلمة يقولها، فجسمها حاضر، لكنّ عقلها غائبٌ كليًّا، ومشوّش.. وفجأة سألها حازم:

- صحيح.. كنت أريد أن أسألك، عن ابن عمّكِ حامد، أهو بخير؟

فانتبهت نور، حين سمعت اسمي، وقالت (بارتباك):

- ماذا قلت لي؟

- سألتُكِ عن حالة حامد الصّحيّة، فقد علمتُ بأنّه قد أغميَ عليه، وهو في المستشفى.

- أجل، لقد أغميَ عليه يومها، ولكنّي لم أره بعدها، أظنّه بخير.

ثمّ تناولت كأس العصير، لتشرب منه، محاولة تحاشي، المزيد من الحديث، حول هذا الموضوع، أمّا حازم فقد عاد ليسألها:

- ماذا تأكلين؟

فقالت (ببرود):

- سآكل على ذوقك، هذه المرّة.

فأحسّ بسعادة غامرة.. وعاد ليشير للنّادل مجدّدًا، وبعد أن جاء، طلب منه، بأن يحضر له الأكلات، التي اختارها، وعاد للحديث:

- ما هي طلباتكِ يا نور؟

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص المهر، وغيره من الأمور، التي تتعلّق بالخِطبة، والزّواج.

فسكتت نور للحظة، وهنا قاطعها حازم (قائلًا):

- لا داعي للخجل، يمكنكِ أن تطلبي ما تشائين.. فهذا حقّك.

- والله لا أعرف ماذا أقول لك، فأنا ليست لي دراية، بهذه الأمور، يمكنك أن تتّفق مع أبي، بدلًا منّي.

- لا أعرف ماذا أقول لك.. على كلّ حالٍ سأكلّم أباك، لنحدّد موعدًا، ونتكلّم في التّفاصيل، ولن تكوني إلّا راضية.. صحيح، كدتُ

أنسى، متى ستزوركم أمّي؟ فهي تريد أن تتعرّف عليك، لترى مدى جمال كنّتها.

فضحكت نور، ثمّ قالت:

- أهلًا، وسهلًا، في أيّ وقت.

- حسنٌ.. أرى بأن تزوركم هي، وأخواتي، بعد غدٍ مساءً.

- ولِما اخترتَ هذا اليوم بالذّات؟

- ما بكِ يا نور؟ أنا طبيبٌ مثلك، وأعرف بأنّ غدًا هو يوم شغل، بالنّسبة لك، ولي أيضًا.. أم تُراكِ نسيت؟

فضحكت، وقالت بعد ذلك:

- اعذرني، لقد نسيتُ تمامًا بأنّني طبيبة.

- لا بأس.. هيّا كُلي، قبل أن يبرد الأكل.

***

جلس أبي، وجلست بجانبه أمّ هاني، التي عرضت عليه، بأن يتذوّق من هذا الطّبق، ومن ذاك، ثمّ أمسكت بالشّوكة، وغمستها في قطعة اللّحم، وقدّمتها له (قائلة):

- تذوّق هذا اللّحم، إنّه لذيذٌ جدًّا.

كانت أمّ هاني تقوم بهذا، أمام جنّات، التي راحت تحاول إخفاء ضحكتها، وذلك بأن وضعت يدها، على فمها، وركّزت نظرها، في الصّحن، الذي أمامها، وهنا نظر لها أبي، ثمّ قال:

- لقد جُنّت أمّكِ يا جنّات، إنّها لا تكفّ أبدًا، عن هذه الحركات الصّبيانيّة، تمامًا كابنها هاني.

وسكت قليلًا، قبل أن ينتبه لغياب هاني، فقال:

- صحيح، أين ذاك المغضوب؟ لِما لم ينزل، ليأكل معنا؟

- إنّه نائم.

قالت أمّ جنّات، فقاطعها أبي (قائلًا):

- نائمٌ لحدّ السّاعة، أهو من أصحاب الكهف، أم ماذا؟ أما طلبتُ منكِ مرارًا بأن تنهيه، عن هذه التّصرّفات، ثمّ لِما لم يأتِ للشّغل؟

نزل في هذه الأثناء هاني، وهو يغنّي، وما إن رأى أبي حتّى لزم الصّمت فجأة، وتخشّب في مكانه، وكأنّه رأى شبحًا أمامه، فقال أبي:

- ما شاء الله.. لم أكن أدري بأنّ صوتك جميلٌ هكذا.. لِما تنهّق بهذا الشّكل؟ تعال.. اقترب.. لِما وقفت في مكانك؟

فبلع هاني ريقه، وسار نحو أبي، بعد أن اعتدل في مشيته، وقال:

- صباح الخير يا أبي؟

وقبّل يده، ثمّ جلس إلى جانب أمّه، فقال أبي (مستنكرًا):

- صباح الخير؟ بل قُل مساء الخير، ألن تتغيّر أبدًا يا فتى؟ لِما لم تأتِ للشّغل في غيابي؟ ثمّ ما بها يدك؟ لا تقل لي بأنّك تشاجرت، مع واحدٍ من الصّعاليك، الذين تصاحبهم؟

- أوه.. في الحقيقة يا أبي..

ثمّ سكت، ولم يدرِ ماذا يقول، فقاطعته أمّه (قائلة):

- صدمته سيّارة.. ولكن لم يحدث له شيء، إلّا بعض الكدمات البسيطة، التي سرعان ما ستزول.

فنظر أبي لهاني مليًّا، وكأنّه لم يصدّق، ما قالته له أمّ هاني للتّو، ثمّ قال (سائلًا إيّاه):

- وهل تعرّفتَ عليه؟

- من.. من الذي أتعرّف عليه؟

- أأنت غبيٌّ أم ماذا؟ أقصد الرّجل الذي صدمك، هل تعرّفتَ عليه؟

- أوه.. أجل.. أجل، لقد كان ثملًا للغاية.. لذا لم يطاوعني قلبي، على أذيّته، فتركته يذهب.

- ثملٌ للغاية؟ اسمع.. من اليوم فصاعدًا ستواظب، في الحضور للشّغل، وإلّا فسأطردك، بل وأحرمك من الميراث، أتفهم؟

وقام من مكانه، ثمّ رمى بالمنشفة، فوق المائدة، وقال لأمّ هاني:

- أتريدين منّي شيئًا، قبل أن أذهب؟

وهنا قامت أمّ هاني، تجري خلفه، وقالت:

- بصراحة كنتُ أريد الخروج، مع جنّات، لنشتريَ بعض اللّوازم.

فنظرت جنّات لأمّها باستغراب، وقالت:

- ولكنّي لا أستطيع مرافقتك.. عليّ أن أذهب، إلى الجامعة.

فنظرت أمّ هاني لجنّات، مستغربة هي الأخرى، ثمّ سألتها:

- ولكنّي لم أعهدكِ تذهبين للجامعة، في هذا اليوم.

- هذا صحيح.. ولكنّي تغيّبتُ في المرّة الماضية، بسبب الصّداع، وعليّ أن أذهب، لأعوّض في فوج آخر.

فنظرت أمّ هاني لابنتها بشكّ، وريبة، وهنا قاطعها أبي (قائلًا):

- إن شئتِ أوصي أيّ عامل عندي، ليحضرَ لكِ كلّ طلباتك.

- لا.. لا داعي لذلك، سأرى مع من أذهب.

خرج أبي تاركًا أمّ هاني، التي ركّزت النّظر، في ابنتها، وهنا أدارت هذه الأخيرة وجهها للخلف، بعد أن قامت من مكانها، محاوِلة الهرب من نظرات أمّها، ولكن هيهات، فقد صرخت فيها (قائلة):

- وأنت.. إلى أين تهربين؟ تعالي إلى هنا.. وكلّميني.

فعادت جنّات أدراجها، ثمّ قالت (متذمّرة):

- قلت لكِ بأنّه عليّ الذّهاب.. لن أذهبَ معك، لأيّ مكان.

- لم أشأ أن أفضحك، أيّ جامعة هذه، التي ستذهبين إليها اليوم؟

- حسنٌ.. وإلى أين تنوين الذّهاب؟

- أوه.. كنت.. كنتُ أريد أن ترافقيني، لجارتنا أمّ جهاد.

- ومنذ متى كنتِ تحبّينها، لطالما كنتِ تكرهينها، فما الجديد، الذي جعلكِ تذهبين لها، ثمّ تطلبين منّي الرّجوع بِدونك، في كلّ مرّة؟ إلى أين تذهبين يا أمّي، بعد أن أتركك، في بيت أمّ جهاد؟

فنظرت أمّ هاني لابنتها، مستغربة من وقاحتها.. ثمّ التفتت لابنها، الذي كان يأكل بشراهة، ونهمٍ شديدين، غير مبالٍ بما دار بينها، وبين أخته من حوار.. فصرخت في وجهه (قائلة):

- ألا تسمع ما قالته لي أختك؟ لقد كبرتْ إلى الحدّ، الذي صارت تقلّل فيه أدبها، على أمّها!

فقال هاني (مازحًا):

- صحيح.. إلى أين تذهبين، بعد أن تتركك، عند أمّ جهاد؟

وهنا نفذ صبر أمّه، فعادت لتصرخ في وجهه:

- بوركت يا ولدي، بوركت.. أنت، وأختك، على هذه الأخلاق، تشكّكان في أمّكما، هاه؟ ثمّ تعال إلى هنا، لماذا تزدرد الأكل، وكأنّك ذئبٌ جائع؟ من يراك يقول بأنّها المرّة الأولى، التي تذوق فيها الطّعام.

- تربيتكِ يا أمّي.

- اغربا عن وجهي.. وأنت قُم، واغرب عن وجهي، قبل أن أتّصل بأبيك، وأخبره عن سهراتك، مع أصدقائك المنحلّين.

وهنا قام هاني، واقترب من أمّه، ثمّ قبل رأسها، وقال:

- أوه.. لاا.. ما بكِ يا أمّي؟ نحن نمزحُ معك، لا تغضبي.

فنهرته أمّه، وأبعدت يده عن رأسها، وقالت:

- ابتعد عنّي، قبل أن أصبّ جام غضبي عليك.

- لا تغضبي، بالله عليك، وهذا رأسك أقبّله، للمرّة الثّانية.

فسكتت بعد سماعها، لهذا الإطراء من ابنها، ثمّ عادت لتقول:

- أنت الوحيد الذي في استطاعته، أن يمتصّ غضبي، لأنّك نسخة منّي.

وهنا ابتسم هاني، وقال قبل أن يغادر:

- صحيح؟ إلى أين أنتِ ذاهبة يا سوسو؟

ثمّ أسرع، ليهرب من أمّه، التي قالت (بغضب):

- لا فائدة تُرجى منك أبدًا.

***

خرجت جنّات من البيت، بعد أن جهّزت نفسها، واتّجهت نحو السّيّارة، التي كانت تنتظرها، وأمرت السّائق بأن يأخذها إلى الجامعة، وما إن وصلت، ودخلت للجامعة، حتّى بقيت لدقائق، قبل أن تخرج، لتتأكّد من مغادرة السّيّارة، وفي هذه الأثناء رنّ هاتفها، فأخرجته، لتجد بأنّ عادل يتّصل بها، فردّت عليه (قائلة):

- أين أنت؟

- أنتظركِ خارج الجامعة، هيّا اخرجي.

- لن أخرج حتّى أتأكّد، من أنّ السّائق قد غادر، أنا لا أضمنه أبدًا، فأبي قد شدّد الحراسة عليّ.

- قلت لكِ اخرجي، لقد غادر قبل قليل.

خرجت جنّات وهي تلتفت هنا، وهناك، وإذْ بعادل يتوقّف بسيّارته عندها، أين ركبت، ثمّ قالت:

- أأنت متأكّدٌ بأنّه قد غادر؟

- ما بكِ جبانة؟ لقد كنتُ هنا، عندما رأيتكِ تنزلين من السّيّارة، ولم أتّصل بك، إلّا حين غادر السّائق، لا داعي للقلق.

- حسنٌ، وإلى أين ستأخذني اليوم؟

- للمكان الذي ترغبين في الذّهاب إليه، أنا رهن إشارتك.

في هذه الأثناء كانت أمّ هاني قد خرجت، هي الأخرى، بعد أن استطاعت الإفلات من السّائق، الذي طلبت منه، إيصال جنّات أوّلًا، ثمّ يعود ليأخذها، بحجّة أنّ لديها مشاغل في البيت، وعليها أن تنهيها أوّلًا، ثمّ تذهب لوجهتها، ولكنّها لم تنتظره، وخرجت مباشرة، بعد ذهاب جنّات، ثمّ أوقفت سيّارة أجرة، وطلبت من صاحب السّيّارة، بأن يوصلها، لوجهة مختلفة تمامًا، عمّا قالته لزوجها، وأبنائها، فهي ببساطة لم تكن تنوي الذّهاب، لزيارة قريبتها أمّ جهاد، بل كان مجرّد تمويه، فهي دائمًا ما تلجأ للكذب، ولا تخبر أحدًا، بما تخطّط له، أو تريده، لقد تعوّدت على أن تكذب على أبي، فتخبره بأنّها ذاهبة لزيارة قريبتها، ثمّ تطلب من السّائق، أخذها إلى حيث بيت قريبتها، وحين يوصلها، تخبره بأن ينتظر، حتّى تتّصل به، وتمكث عند قريبتها هذه، للحظات فقط، وتغادر، متحجّجة بأنّ لديها أمورًا أخرى، عليها القيام بها، وبأنّها ستزورها في أقرب وقت، لتمضيَ معها المساء، وتنصرف للوجهة، التي تريدها، وبعد أن تنتهي، تتّصل بالسّائق، وتطلب منه بأن يأتيَ ليعيدها، وتدّعي بأنّها خرجت من عند قريبتها، وذهبت، لتشتريَ بعض الأشياء، حتّى نسيت نفسها، وطافت بين الشّوارع كلّها.

***

خرجت أمّي مع الخادمة، من البيت، وبعدما ركبتا في السّيّارة، طلبت الخادمة من السّائق، أخذهما إلى محلّ بسمة للملابس، وبعدما وصلا، نزلت أمّي، ومعها الخادمة، ثمّ طلبت من السّائق العودة (قائلة):

- اذهب لشؤونك، وحين أحتاجك سأكلّمك.. لأنّنا سنتأخّر قليلًا.

غادر السّائق، مُلبّيًا أوامر أمّي، التي سارت مع الخادمة، مستغربة سرّ مجيئها إلى هنا، أين قالت:

- لِما طلبتِ منه أن يتوقّف هنا؟ هل ستذهبين لمحلّ بيع الألبسة؟

فابتسمت الخادمة، ثمّ قالت:

- أيُعقل يا سيّدتي بأن ندلّه، على المكان، الذي سنذهب إليه؟

- آه، صحيح، نسيت تمامًا أنّ علينا التّكتّم، عن الموضوع، ولكن أين بيت هذه المرأة؟

- في آخر هذا الشّارع.

- هل أنتِ واثقة، بأنّها تستطيع مساعدتنا؟

- كلّ الثّقة، لا تقلقي أبدًا سيّدتي.

واصلت أمّي السّير معها، إلى أن وصلتا لنهاية الشّارع، حيث منزل العجوز، ومن داخل المنزل، أطلّت امرأة من الباب على ابنها، طالبة منه الذّهاب للدّكّان المجاور، ليشتريَ بعض المواد.. في هذه الأثناء كانت أمّي، والخادمة قد وصلتا للمنزل، وهنا قالت لهما المرأة (مرحّبة):

- هل جئتما تريدان حماتي؟

فأومأت الخادمة برأسها بنعم، فقالت المرأة:

- تفضّلا بالدّخول، من حسن حظّكما، أنّها لوحدها الآن، فالزّبائن عادة ما يأتون إليها، في الصّباح الباكر.

وسبقتهما للدّاخل، وكانت في كلّ مرّة، تطلب منهما أن تتبعاها، إلى أن وصلت لغرفة معزولة، عن باقي الغرف، فطلبت منهما الدّخول، ثمّ انصرفت لشؤونها، بعد أن تركتهما، مع تلك العجوز، التي لم تقل لهما شيئًا، بل بقيت تنظر لهما، وهنا تقدّمت الخادمة، طالبة من أمّي، أن تجلس بجانبها، وبعدها ألقت التّحيّة على العجوز:

- كيف حالكِ يا خالة؟

فردّت عليها العجوز، بشكل مقتضب، وقالت:

- بخير.

وعادت لتسكت، مركّزة بنظراتها لأمّي، قبل أن تقول:

- أخبريني.. ما الذي تريدين معرفته؟

فاستغربت أمّي من كلامها، فأنّى لها أن تتعرّف عليها، قبل أن تخبرها أمّي بذلك، تعجّبت هذه الأخيرة، من توجيه العجوز الكلام لها، مع أنّها لم تأتِ بمفردها، بل جاءت مع الخادمة، فقالت العجوز:

- لا تستغربي.. وأخبريني، ما الذي تريدين قوله؟

فنظرت أمّي للخادمة، وهنا أشارت لها هذه الأخيرة، بألّا تخاف، وتقول كلّ ما في قلبها، فتشجّعت، وقالت:

- بصراحة منذ مدّة، ونحن لسنا بخير، أقصد أولادي ليسوا بخير.. فحالهم من سيّء لأسوأ.. ولا أعرف ما الذي عليّ فعله.

ظلّت العجوز تصغي بإمعان، لكلّ ما تقوله أمّي، قبل أن تشير لها، بأن تأتيَ، لتجلس بجانبها، فما كان من هذه الأخيرة، إلّا أن قامت من مكانها، وجلست في المكان، الذي أشارت له تلك العجوز، وهي تنظر للخادمة، من حين لآخر، فقد شعرت بالخوف، لما رأته من العجوز، من جدّية، هذه العجوز التي طلبت من أمّي، أن تعطيها يدها، وأخذت تنظر لكفّها، بتركيز شديد، فتتّسع عيناها حينًا، فتثير بهذا القلق، في قلب أمّي، ثمّ ما تلبث، بأن تعود لحالتها الطّبيعية، وكأنّها ترى أمورًا، أو تفكّك رموزًا.. قالت لأمّي، بعد دقائق من الصّمت:

- أنتِ امرأة طيّبة.. لديكِ ابن يعيش خارج البلد، أليس كذلك؟

فشعرت أمّي بالخوف، ولكنّها تحكّمت في أعصابها، وقالت:

- أجل.. ولكن هل به شيء؟

- سفره خارج البلد أحسن له، على أيّ حال.. أرى أيضًا بأنّ واحدًا من أولادك، تسيطر عليه حالة حزن، هذه الأيّام، لقد أحبّ فتاة، من عائلتكم، ولكن هناك امرأة، لا أستطيع ذكر اسمها، هي من سعت، لإبعاده عن هذه الفتاة، بتحريض زوجك، وإقناعه برفض هذا الزّواج.

وسكتت قليلًا، قبل أن تعود للحديث مرّة أخرى:

- أوه، يا إلهي.. هذه المرأة تلاحقكِ أنت، وأولادك، ولا يكاد يمرّ يوم، إلّا وتحيكُ لكِ مكيدة جديدة.. إنّها تعرف كلّ أخبارك، وتضعُ لكِ جواسيسًا، يحرسونكِ أينما ذهبت.

وما كادت العجوز تنهي كلامها، حتّى دخلت زوجة أبي، وقالت:

- عمتِ مساءً يا خالة.. أوه.. أنا آسفة، لم أكن أعلم بأنّ لديكِ ضيوفًا، فقد أخبرني حفيدك، بأنّكِ بمفردك.

وفي هذه الأثناء التفتت أمّي، لتجد بأنّ المتحدّثة هي زوجة أبي، التي عرفتها من صوتها، حتّى قبل أن تلتفت، وكم تفاجأت أمّي، حين رأتها، بل حتّى هي تفاجأت، حين رأت أمّي، لدرجة أنّها قد تراجعت للخلف، من هول الصّدمة، وهنا صرخت فيها أمّي (قائلة):

- كنتُ متأكّدة، بأنّكِ ترتادين هذه الأماكن، لتؤذيني أنا، وأولادي، تعالي إلى هنا.

وقامت نحوها، لتمسكها من ثيابها، قبل أن تلوذ بالفرار، ثمّ قالت:

- إلى أين ستهربين، أيّتها الأفعى؟ سأقتلكِ بيديَّ هاتين.

فبدأت زوجة أبي بالصّراخ، وأخذت تقول:

- بل أنتِ من تأتين إلى هنا، لتؤذيني، ما الذي جاء بك، إلى هنا؟

واحتدم النّقاش بين الاثنتين، وعلت أصواتهما، ووصل الأمر لحدّ الاشتباك بالأيدي، فحاولت الخادمة فضّ الشّجار، ولكنّها لم تستطع، لذلك سبيلًا، بسبب الضّربات، التي كانت تأتيها، من حين لآخر، من هذه، أو من تلك.. سمع الصّراخ من في البيت، فهبّوا مسرعين لفضّه، النّساء، والأولاد، كلّهم على حدٍّ سواء، إلى أن استطاعوا تخليص زوجة أبي، من أمّي، التي صبّت عليها جام غضبها، لأنّها لم تعد تستطيع تحمّل تصرّفاتها الصّبيانية، أفلتت زوجة أبي، من بين يديْ أمّي أخيرًا، ثمّ أخذت تعدّل ثيابها، وتمسح أثر الدّماء، من على وجهها، وذراعيها،

فأمّي لم تفوّت فرصة غرز أظافرها، في وجهها خاصّة، بعد أن سنحت لها الفرصة، فهذه المرّة الأولى، التي تمسكها فيها متلبّسة، ممّا يعني أنّها حتّى لو ضربتها، فلن تجرُؤ على إخبار أبي، لأنّه سيسألها ساعتها، عن السّبب، أخذت زوجة أبي تتوعّد أمّي، وتهدّدها بالانتقام منها، قبل أن تغادر المنزل (قائلة):

- سترين ماذا سأفعل لك، أيّتها الحقودة، أنتِ التي جنيتِ على نفسك.. تحمّلي إذًا ما سيحصل لك.

***

- أرى بأنّ الصّداع لم يعد يزورك، كما في السّابق.

قال عادل لجنّات، التي ابتسمت، ثمّ قالت:

- أتعلم يا عادل؟ مذ أعطيتني ذاك الدّواء، اختفى الصّداع كليًّا، وأصبحتُ أحسّ بدلًا من ذلك بالسّعادة، لدرجة أنّني لم أعد أكترث، لأيّ شيء.. في السّابق كنت أغضب، لأتفه الأسباب.

- جيّد.. حين تنتهي تلك العلبة، التي أعطيتكِ إيّاها، أخبريني، لأحضر لكِ غيرها.. والحساب عليّ، لا نريد منكِ شيئًا، أيّتها البخيلة.

قال عادل كلامه، وضحك، لتضحك معه جنّات.. مضت دقائق بعدها، كان عادل قد اقترب من الجامعة، فقالت له جنّات:

- مهلًا.. توقّف هنا، وأنا سأواصل السّير، حتّى الجامعة.

- ولكن لِما تتعبين نفسك؟ سأوصلكِ إلى باب الجامعة.

- لا أريد أن يراني أحدٌ معك، فأنت لا تعرف أبي، لقد كلّف حارسًا، ليراقبني، وخاصّة بعد أن علم بموضوع أختي، وصديقها، الذي مات، وحتّى لو لم يكلّف أحدًا لحراستي، فمعارفي كُثر، لو رآني أيٌّ منهم، فسيبلّغ أمّي، أو أبي.. و..

وقبل أن تنهي كلامها، قاطعها عادل (قائلًا):

- لقد فهمت.. أرجوكِ يكفي، فهذه المرّة الألف، التي تروين لي فيها، ما حصل لأختك، وصديقها، وهواجس أبيك، ومخاوفه عليكنّ.. أرجوكِ انزلي، واغربي عن وجهي.. هيّا.. ولا تنسيْ بأنّ لنا لقاءً آخرًا، نسهر فيه، مع أولئك المجانين.

فضحكت جنّات، لقوله هذا، وفتحت باب السّيّارة، ثمّ قالت:

- أراك إذًا في المرّة القادمة.

وسارت للجامعة، وكانت في كلّ مرّة تلتفت.. إلى أن وصلت، أين التقت بزميلتها، فسلّمت عليها، وواصلتا الطّريق، لقاعة المحاضرات.

***

كانت أمّ هاني تنظر لوجهها، في المرآة (وهي تحدّث نفسها):

- حسنٌ.. سأريكِ من تكون سعاد، انتظري، وسترين ما سأفعل.

ثمّ أخذت منديلًا، ومرّرته على ذراعها، لتمسح ما علِق به من دم، جرّاء تلك الخدوش، التي ملأته، ثمّ أخذت منديلًا آخرًا، لتمسح به وجهها، في الحقيقة لم يكن ذراعها الوحيد، الذي طالته أظافر أمّي، بل

حتّى وجهها هو الآخر، كان مليئًا بالنّدوب.. دخلت عليها الخادمة في هذه الأثناء، لتجدها منشغلة، بإزالة آثار تلك الخدوش، فقالت:

- ماذا أعدّ للعشاء يا سيّدتي؟

ولكنّها لم تجبها، فقد كانت منهمكة، في مسح تلك الخدوش، بالإضافة لأحقادها، التي لم تدع لها مجالًا للتّناقش، في أيّ موضوع، سكتت الخادمة للحظات، قبل أن تعود لطرح سؤال آخر:

- سيّدتي، ما به وجهك، وذراعك؟ هل تشاجرتِ مع أحد؟

فرفعت أمّ هاني بصرها نحوها، ووجّهت لها نظراتٍ حادّة، ممّا جعلها تتراجع للوراء منسحبة، لتفرّ بجلدها، قبل أن تصبّ عليها زوجة أبي جام غضبها.

***

دخلت أمّ لبنى على ابنتها، بعد أن فرغت من طعامها، وقالت:

- يبدو بأنّ الأكل قد أعجبكِ اليوم، ففي العادة ترجعين الصّحن، كما هو.

- اليوم ككلّ يومٍ يا أمّي، لن يتغيّر شيء.

اتّجهت أمّ لبنى للدّواء، الموضوع فوق الطّاولة، وقالت لها:

- لا تنسيْ بأن تأخذي دواءك.. إن شئتِ أساعدك.

- كلّا.. لا أريد أن أتعبك يا أمّي.. اذهبي، وارتاحي.

سكتت الأمّ، بينما طفقت البنت في تناول دوائها، كانت بالإضافة لذلك ترفع بصرها، من حين لآخر، لترى أمّها، التي بدا عليها الحزن،

فتنهّدت.. وواصلت تناول باقي الأدوية، حتّى فرغت منها، ثمّ عادت لتخلد للنّوم، بعد أن قالت لأمّها:

- أرى ألّا تتعبي نفسك، بالبقاء هنا.

فقالت أمّها:

- كنت أريد أن أقول..

وقبل أن تكمل كلامها، قاطعتها لبنى (قائلة):

- أعرف ما تريدين قوله.. أرجوكِ يا أمّي، لقد سبق لنا وأن تحدّثنا، في هذا الموضوعِ، وأخبرتكِ بأنّني لا أريد أن أتعالج.

- ولكن يا ابنتي..

فعادت لبنى لمقاطعتها مرّة أخرى (وقد بدا عليها الغضب):

- أرجوكِ يا أمّي، دعيني أنام، فغدًا لديّ عمل.. تصبحين على خير.

وقامت بتغطية وجهها، لكيلا تعطيَ المجال لأمّها، لتتكلّم، وهنا تنهّدت هذه الأخيرة، ثمّ قامت من مكانها، وسارت باتّجاه الباب، وهي تنظر لابنتها بعين الشّفقة، عاجزةً عن تقديم المساعدة لها، كما كانت تفعل دائمًا، حين تعترضها مشكلة ما، ولكن هذه المرّة غير كلّ مرّة.. أغلقت الباب، بعد تأمّلٍ دام للحظات، ربّما أطالت النّظر فيها، لأنّها أصبحت على يقين تامّ، بأنّها مسألة أسابيع، أو لعلّها تكون مجرّد أيّام.

***

حاولتُ أن أنام، ككلّ مرّة أفعل فيها، ولكن عبثًا، فقمتُ تاركًا فراشي، لأبحث عن كتاب لأقرأه، ولكنّي لم أجد أيّ كتاب، فقد قرأتُ

كلّ الكتب، التي بحوزتي، ونسيتُ أن أعيدها لمكتبة أبي، لآخذ غيرها كما جرت العادة، عدتُ لأمسك بهاتفي، فوجدتُ بأنّ هاني قد ترك لي رسالة، منذ الصّباح، ولم أرها، فاستغربتُ كيف أنّني لم أعد أبالي بهاتفي، للدّرجة التي صرتُ معها، لا أراه إلّا ليلًا، حتّى أشغّل المنبّه، ليوقظني في اليوم الموالي، قرأتُ رسالته، التي كتب لي فيها ما يلي:

- كيف حالك يا أخي؟ إذا رأيتَ رسالتي فاتّصل بي، أحتاجك في مسألة ضروريّة جدًّا.

فاتّصلتُ به على الفور، لأنّني أعرفه جيّدًا، لا يتّصل إلّا للضّرورة، فهو إنسانٌ له عزّة نفس، ويكره أن يثقل على أحد، فبالرّغم من تصرّفاته الصّبيانيّة، إلّا أنّه صاحب أنفة.. وبعد لحظاتٍ ردّ عليّ:

- ألو.. كيف حالك يا أخي؟

- أنا بخير، وأنت طمئنّي عنك، كيف هي أحوالك؟

- أنا بخير.. أنا مع الشّغل كما تعلم، أحاول جاهدًا أن أكون في المستوى، رغم أنّني أكره الجدّية، والنّشاط، ولكن هذه المرّة عليّ أن أغيّر من تصرّفاتي.

- إذًا.. بدأت تسيرُ في الطّريق الصّحيح، وما هي إلّا مسألة وقت، وتتعوّد على هذا النّمط.. لا تقلق.

فسكت قليلًا، حتّى ظننتُ بأنّه قد أنهى الاتّصال، أين قلت:

- ما بك؟ كأنّك تريد أن تقول شيئًا، ولكنّك مُحرج، أخبرني.. هل من خطب؟

- حسنٌ، أيمكنني رؤيتك، لأحدّثك في موضوعٍ، لا يجب الخوض فيه، في الهاتف؟

- أكيد.. اختر الوقت الذي يساعدك، وكلّمني.

- أرى بأن نلتقيَ في اليوم، الذي لا تعمل فيه.

- حسنٌ.. وهذا يعني بعد غد، إن شاء الله.

- أراك إذًا بعد غد، بإذن الله.

بعد أن أنهيتُ المكالمة، عدتُ لمكاني، وأنا أفكّر في الموضوعِ، الذي جعله يكلّمني، ليطلب رؤيتي، في القريب العاجل، فقلت:

- تُرى.. ماذا عساه يريد؟ آمل ألّا يكون قد أصابه مكروه ما.

خلدتُ للنّوم أخيرًا، بعدما تغلّبتُ على هواجسي، فقد كنتُ متعبًا بما يكفي، لأنام لمدّة شهر، دون أن أستيقظ، وبعد مدّة شعرتُ بثقل، يدبُّ في جسمي، فارتخت أطرافي على إثره، وغلب النّعاس جفوني، فاستسلمتُ للنّوم آخر الأمر، وفجأة رأيتُ حلمًا، في الحقيقة لم أعرف إن كان حلمًا، أم كابوسًا، رأيتُ نريمان تجلس في مكان، لم أعرفه، ولم أره من قبل، وقد خيّم عليها الحزن، فحاولتُ أن أكلّمها، ولكنّها لم تكن تصغي إليّ، ونحن على هذا الحال، حتّى دخلت علينا لبنى، وقد كانت ترتدي ثيابًا بيضاء جميلة، ووجهها يشعُّ نورًا، فشدّني جمالها، أين سألتُها:

- هل شُفيتِ يا لبنى؟

فابتسمت، وقالت:

- أجل.. لقد ارتحتُ ممّا كنت فيه.

ثمّ نظرتْ لنريمان، واقتربت منها، ومدّت لها يدها (قائلة):

- إلى متى ستظلّين حزينة؟ تعالي معي، لآخذكِ لمكان أجمل.

فرفعت نريمان بصرها نحوها، فدُهشت من جمالها، هي الأخرى، لدرجة أنّ الحزن الذي كان يعتريها، قد اختفى فجأة، وحلّت محلّه ابتسامة مشرقة، تمامًا كما كانت، قبل وفاة سهيل، أشرق وجه نريمان فجأة، حتّى عاد كالبدر، ومدّت يدها للبنى، وقامت باتّجاهها، لتتركني جالسًا لوحدي، ثمّ أومأتْ لها على موافقتها، الذّهاب معها، أمّا أنا فقد بقيتُ في مكاني مندهشًا، من كلّ ما يحصل، فمِن أين تعرف نريمان لبنى؟ ولِما وافقت على الذّهاب معها؟ وإلى أين تنويان الذّهاب؟ كلّها أسئلة بقيت تدور في رأسي، ولكنّني بقيتُ صامتًا، أنظر إليهما، وللنّور الذي يحيطهما، من كلّ النّواحي.. سارت لبنى في هذه الأثناء، لتلحق بها نريمان، فقلتُ لهما:

- إلى أين تذهبان؟ ألن تأخذاني معكما؟

فابتسمت نريمان، ثمّ قالت:

- إلى اللّقاء يا أخي.

وأكملت طريقها، أمّا لبنى فقد اكتفت بالنّظر لي، دون تعقيب، وابتسمت هي الأخرى، وغادرتا فجأة، بحيث أنّني لم أعد أراهما، لم أعرف كيف اختفيتا، بهذه السّرعة، وكأنّهما لم تكونا هنا، أين أخذتُ

أنظر، في جميع الاتّجاهات، لعلّي أعثر عليهما، وقد تملّكني الخوف، حين وجدتُ نفسي وحيدًا، فرحتُ أنادي (بأعلى صوتي):

- نريمان.. لبنى.. إلى أين ذهبتما، وتركتماني هنا وحيدًا؟

وأنا على هذا الحال، من الخوف، حتّى استيقظت، لأجد نفسي في غرفتي، فنظرتُ حولي، لأعرف أين أنا، لوهلة لم أستطع التّعرّف، حتّى على غرفتي، كم هو صعبٌ أن تستيقظ من حلم، لا تستطيع أن تعرف إن كان جميلًا، أم لا، ولكنّ الخوف الذي يتطفّل، على قلبك، بعد الاستيقاظ، يدلّ على أنّه كابوس، وإلّا فما تفسير ذاك الخوف، الذي تشعر به؟ كم هو صعبٌ أن تستيقظ من حلم، لتجد نفسك في غرفتك، ولكنّك لا تستطيع التّعرّف عليها، إلّا بعد لحظات.

- أين أنا؟ أوه.. لابدّ أنّني كنت أحلم.. يا له من حلم غريب.

وأنا على هذا الحال، وإذْ بي أسمعُ فجأة صراخًا، يصدر من غرفة نريمان، لا شكّ أنّ النّوبة قد عاودتها، تركتُ فراشي، وأسرعتُ إليها، لأجد أمّي بجوارها، تهدّئها، وأبي يقف غير بعيدٍ عنهما، كانت نريمان تصرخ (بأعلى صوتها):

- اذهب من هنا، أيّها القاتل.. أنت لست أبي، أنت مجرّد قاتل.

فركضتُ نحوها، أين قالت لي أمّي (مستنجدة):

- الحقني يا حامد.. لقد عاودتها النّوبة، من جديد.

فأخرجتُ حقنة من الدُّرج، وحقنتها بها، وما هي إلّا لحظات، حتّى غطّت في نومٍ عميق، وهنا التفتُّ لأبي، وقلتُ له (بغضب):

- أرجوك يا أبي لا تعد لهذا التّصرّف، حين تريد أن تطمئنّ عليها، يكفي أن تسألنا، وسنطمئنك عنها، فأنت تعرف بأنّها ليست على ما يرام، وأنّ الاكتئاب هو أصعب الأمراض، على الإطلاق، والآن هيّا.. أنتما الاثنان، إلى الخارج، سأبقى أنا معها، هذه اللّيلة.

خرج أبي، بعد أن أمسكت أمّي بذراعه، ورافقته، كان منظره يثير الشّفقة، فقد بدا عليه الحزن، على الحالة، التي آلت إليها نريمان، وإن كنتُ أجزم أنّ سبب حزنه، هو ذاك الكلام القاسي، الذي قالته نريمان له، حول موضوع سهيل، وبأنّه هو من قتله.

وبعدما خرجا، بقيتُ مع نريمان، التي نامت بفعل المهدّئ، لقد آثرتُ البقاء معها، وخاصّة بعد ذلك الحلم، الذي استيقظتُ منه فزعًا، فلم أشأ أن أخلد للنّوم، وأتركها لوحدها.

***

كانت لبنى تسير في الطّريق، وهي شاردة الذّهن، لدرجة أنّها لم تحسّ بطوله، ولم تنتبه للمارّة، لدرجة أنّها لم تنتبه لسيّدة، ألقت السّلام عليها، حين لمحتها، وهي تسير في طريقها للمشفى، ككلّ مرّة، فقد تعوّدت لبنى اقتناء بعض الأغراض، من متجر هذه السّيّدة، الذي كانت تشتغل فيه، مع زوجها، وتمضي بعض الوقت، وهي تتكلّم معها، في أمور شتّى، لتكمل طريقها.. ولكنّها هذه المرّة لم تنتبه، لوجود السّيّدة أصلًا، ممّا أدّى بهذه الأخيرة للاستغراب، فقالت لزوجها:

- أليست هذه الدّكتورة لبنى؟ أم مجرّد فتاة تشبهها؟

فنظر زوجها للبنى، ثمّ قال:

- بلى.. إنّها هي.

- ولكنّي سلّمتُ عليها، ولم تجبني، كما لم تعد تزورنا كالسّابق.

- ربّما لم تسمعك.. أو قد تكون منشغلة بأمرٍ ما.

- معك حقّ.. يبدو عليها التّعب، والإرهاق، آمل أن تكون بخير.

كانت لبنى شاردة الذّهن، تفكّر فيما ينتظرها في قادم الأيّام، هذا إن كانت هناك أيّامٌ قادمة أصلًا، فعلى ما يبدو، أنّها قد فقدت الأمل، وصلت للمشفى أخيرًا، أين دخلت، لتتّجه لمكتبها، وخلعت معطفها، وعلّقته خلف الباب، وقامت بعد ذلك بارتداء مئزرها، وفي هذه الأثناء دخلت الممرّضة، فطلبت منها أن تُدخل أوّل مريض، وهو ما تمّ، أين أخذت تعاين المريضة، ثمّ عادت لمكتبها، وكتبت بعض الأدوية، في وصفة، وقدّمتها لها (قائلة):

- لقد كتبتُ لكِ هذه الأدوية، ستتماثلين للشّفاء فور تناولها، كما كتبتُ لكِ على حقنة.. خذي هذه الورقة للممرّضة.

فنظرت المريضة للبنى، ثمّ قالت:

- ولكن يا ابنتي..

ثمّ سكتت.. فنظرت إليها لبنى مستغربة، ثمّ قالت (متسائلة):

- ما الأمر يا خالة؟

تردّدت المريضة في البداية، ولكنّها تكلّمت أخيرًا، وذلك بعد أن أصرّت عليها لبنى، فقالت:

- ولكن هل هذه الأدوية مفيدة حقًّا؟ أم أنّي سأضيّع نقودي فقط؟

فقالت لبنى (مستنكرة):

- كيف تقولين هكذا؟ هذه الأدوية مهمّة، وستفيدكِ إن شاء الله.

- ولكن..

- ولكن ماذا؟ أخبريني.

قالت لبنى مستغربة، فردّت عليها المريضة:

- بصراحة ليس لديّ المال، لأشتريَ هذا الدّواء.

فابتسمت لبنى، ثمّ قالت:

- لقد أحسستُ من ثنايا الكلام، بأنّكِ لا تملكين المال، ولكنّي لم أشأ أن أحرجك، قبل أن أفهم ما يجول في رأسك، حسنٌ.. انتظري.

ثمّ قامت.. واتّجهت لخزانة صغيرة، مليئة بالأدوية، وأخذت بعضًا منها، ثمّ عادت، لتجلس في مكانها، ووضعت الأدوية، بكيس صغير، وقدّمته للمريضة، ثمّ قالت لها:

- خذي.. وستُشفين بإذن الله.

فأخذت المريضة الأدوية، ثمّ قالت:

- أشكركِ يا ابنتي، أسأل الله أن يديم عليكِ الصّحة، وطول العمر.

ابتسمت لبنى للعجوز، ثمّ نادت للممرّضة، وطلبت منها، بأن تعطيها الحقنة، التي وصفتها لها، ثمّ عادت، لتستقبل باقي المرضى، إلى أن انتهت منهم جميعًا، فنظرت لساعتها، التي كانت تشير للحادية عشرة صباحًا، وهنا قامت من مكانها، متّجهة للنّافذة، وأخذت تطلّ

منها، لترى الحرّاس، وهم يفتحون بوّابة المشفى، لسيّارة إسعاف آتية، تحمل في داخلها مريضًا، وأخرى ذاهبة، لتسعف مريضًا آخرًا، وموظّفٌ يدخل للمشفى، وآخر يغادره، فسرحت في هذه الحركة المستمرّة، أناسٌ يأتون للمشفى، في حالة يُرثى لها، وآخرون يغادرونه، مع أهلهم، وهم يستبشرون خيرًا، بالخروج سالمين، فاستغربت ممّا يحدث، في هذا المشفى، والذي يشبه لحدٍّ كبير، ما يحدث في الحياة، بين مُقبلٍ عليها، وُلد اليوم فقط، وآخر مدبرٍ عنها، والمفارقة أنّه إنّما غادر عن عالمنا، تاركًا كلّ شيء وراء ظهره، كذلك منذ ساعاتٍ قليلة، كلّ هذا كانت لبنى قد تعوّدت أن تراه، في هذا المشفى، ولكنّها لم تمعن النّظر فيه، قبل اليوم.

***

بعد أن أنهيتُ عملي، جلستُ لأرتاح قليلًا، في مكتبي، كنت أفكّر بالحلم، الذي رأيته البارحة، حاولت أن أفسّره، ولكن لم أستطع، فأنا لستُ من الهُوّاة، الذين يحبّون الغوص، في عالم الأحلام، وأنا على هذا الحال، وإذْ بي أتذكّر والدة لبنى، التي طلبت منّي، آخر مرّة رأيتها فيها، بأن أكلّم ابنتها، لأقنعها بضرورة العلاج، فلم أدّخر جهدًا، وقمتُ من مكاني، متّجهًا نحو مكتب هذه الأخيرة، وأنا في طريقي لمحتني نور، التي خرجتْ من مكتبها، فور رؤيتها لي، لتعرف إلى أين أنوي الذّهاب، وإن كانت متأكّدة، بأنّني سأذهب للبنى، فوقفتْ عند باب مكتبها، تترقّب، لتشهد على خيانتي لها، للمرّة الألف، وكأنّها تريد أن

تقنع نفسها، بأنّها قد كانت على حقّ، حين قبلت بحازم.. دخلتُ لمكتب لبنى، بعد أن دققتُ الباب، لأجدها تقف عند النّافذة، شاردة الذّهن تمامًا، لدرجة أنّها لم تجبني أصلًا، بل وتفاجأتْ حين رأتني، أقف أمامها، فقالت:

- دكتور حامد؟ منذ متى، وأنت هنا؟

- لقد دخلتُ للتّو.. كيف حالك؟

- أنا بخير.. تفضّل بالجلوس.

- أشكرك.. ولكن بصراحة.. أريد أن أكلّمك، في موضوع.

فقالت (مستغربة):

- أيّ موضوع؟

- أوه.. بصراحة.. لا أدري من أين أبدأ.

- هل من خطب؟

- حسنٌ.. كنت أريد أن أكلّمك، في موضوع مهمّ.

- تفضّل.. أنا أسمعك.

- بصراحة المكان ليس مناسبًا، ما رأيكِ لو نلتقي، في مكان آخر؟

فتردّدت قليلًا، ثمّ قالت:

- لا مانع عندي.

- إذًا سأتّصل بكِ لاحقًا.

وخرجت، بعد أن أنهيتُ كلامي، لأعود لمكتبي، في هذه الأثناء كانت نور لا تزال واقفة، عند باب مكتبها.. فألقيتُ التّحيّة عليها:

- صباح الخير.

فردّت ببرودٍ متعمّد، محاولة التّحكّم في مشاعرها، قدر الإمكان:

- أهلًا.. كيف حالك يا حامد؟

- بخير.

- وكيف حال الدّكتورة؟ أعتقد بأنّها قد أصبحت أحسن حالًا، بعد رؤيتها لك.

فلزمتُ الصّمت، لأنّي لم أعد أعلم، كيف أتعامل مع هذا الشّك، الذي يراود نور حيال لبنى.

***

- لقد قلتُ لك، بأنّ هاني قد تغيّر معي، انظري كيف يتجاهلني، هذه المرّة العاشرة، التي أتّصل به فيها، ولا يجيب.

كانت سارة تبثّ شكواها، لصديقتها رويدة، وهي تنظر لهاتفها، من حين لآخر، ثمّ تعاود الكرّة مرّة أخرى، لكن دون جدوى، فهاني قد قرّر، ألّا يردّ على مكالماتها أبدًا.

- هدّئي من روعك يا سارة، من الممكن أن يكون مشغولًا.

- لن أهدأ قبل أن أعرف، ما الذي يجري، سأنتظره عند الشّركة، لأفضحه أمام زملائه كلّهم، بل وأبيه.

***

كان خالد يسير، في طريقه لمكتبه، وحين قرّر أن يتّجه يمينًا، بعدما مشى الرّواق بأكمله، اصطدم بجهينة، التي كانت قادمة بدورها،

وهي تحمل مجموعة ملفّات، لتُراجعها مع زميلتها، وقعت الملفّات على الأرض، فانحنت جهينة، لتحمل ما وقع منها، وهو ما فعله خالد، الذي قرّر مساعدتها، في جمع الأوراق المبعثرة، ثمّ قال:

- المعذرة.. كنت أمشي بسرعة.

- لا عليك.. كان عليّ أن أكون حذرة أكثر.

فابتسم لكلامها، ثمّ قال:

- اعذريني.. عليّ الذّهاب للمكتب.

فابتسمت جهينة بدورها له، ليكمل كلّ منهما، طريقه لمكتبه.

***

ظلّ عادل وجنّات يجوبان الشّوارع، بتلك السّيّارة العتيقة، التي على ما يبدو بأنّها الشّيء الوحيد، الذي ورثه عادل عن أبيه، فقد كان كثير الاعتزاز بها، مدّعيًا بأنّها أجمل بكثير من السّيّارات الفاخرة، فهي ألمانية الصّنع، وقويّة، رغم مظهرها القديم، فابتسمت جنّات، وقالت:

- ألا تكفّ عن مدح هذه السّيّارة؟

فقال عادل (مازحًا):

- أنتِ تغارين من سيّارتي، لأنّكِ وببساطة لا تملكين مثلها.

فضحكت جنّات لكلامه هذا، ثمّ قالت:

- عليك أن تلزم الصّمت، أثناء القيادة، أليس هذا من الأمور، التي نتعلّمها، من أجل السّلامة المروريّة؟

- ومن قال لك، بأنّ لديّ رخصة سياقة أصلًا؟

- وكيف تقود هذه السّيّارة إذًا؟

- أقودها بواسطة عقلي.

وسكت قليلًا، قبل أن يضيف:

- حين تركبين معي، عليكِ الاستعداد، فأنا لا أضمن نفسي.

سادت لحظاتٌ من الصّمت، استغلّت فيها جنّات، فرصة التّأمّل، من نافذة السّيّارة، إلى أن توقّف عادل، أمام محلٍّ لبيع المواد الغذائية، ونزل، ودخل للمحلّ، وبعد مدّة خرج يحمل قارورتين، من المشروبات الغازيّة، أعطى واحدة لجنّات، وترك الثّانية لنفسه، فنظرت هذه الأخيرة للقارورة مستنكرة، ثمّ قالت:

- ألا يمكن أن تشتريَ شيئًا، أغلى من هذا؟

- أتعلمين؟ هذا المشروب أغلى ما في المحل، اشربي، واسكتي.

فضحكت جنّات، ثمّ عقّبت على كلامه (قائلة):

- يا لك من بخيل.

- بخيل؟ سترين حين أصبح غنيًّا، كيف سأدلّلك، اصبري فقط.

- إلى أين سنذهب الآن؟

- سنتسكّع بهذه السّيّارة، في شوارع المدينة كالعادة.

عادت جنّات لتلزم الصّمت مجدّدًا، فهي من النّوع الذي يخاف، من الحوادث، لذا لا تحبّ أن تكلّم عادل، أثناء قيادته للسّيّارة، خاصّة وأنّها على علم، بمدى تهوّره، وطيشه، ظلّ هذا الأخير يجوب الشّوارع، بسيّارته العتيقة، وفي أحد الطّرقات رأى عجوزًا، تقطع الطّريق، مع

طفل، فأخفض السّرعة، لكي يتركها تمرّ، ولكنّ صاحب السّيّارة، التي خلفه، كان يقود بسرعة، ما جعله يفقد السّيطرة، ليصطدم بسيّارة عادل آخر الأمر..

وهنا التفت عادل وجنّات خلفهما، بعدما ارتطما بالكراسي، لينزل عادل من سيّارته مسرعًا، ويرى ما الذي حلّ بسيّارته، ثمّ اتّجه لصاحب السّيّارة، التي صدمته، وطفق يصرخ كعادته:

- هل أنت أعمى يا هذا؟ هل تسوق سيّارة، أم دابّة؟

في هذه الأثناء اجتمع بعض المتطفّلين، ممّن واكبوا الحدث، منذ بدايته، والتفّوا حول عادل، يهدّئون من روعه.. قال صاحب السّيّارة:

- اعذرني.. لقد فقدتُ السّيطرة على السّيّارة، في آخر لحظة.

فعاد عادل للصّراخ مرّة أخرى:

- وماذا أفعل باعتذارك؟ هل سيصلح لي سيّارتي؟

فنظر الشّاب لسيّارة عادل متعجّبًا، ثمّ قال:

- ما بك؟ لم يحدث لسيّارتك أيّ شيء، بالمقابل انظر لسيّارتي، التي ارتطمت من الأمام، ومع ذلك أستطيع أن أعوّضك، وإن كنتُ أرى بأنّها لا تحتاج لتصليح، بالإضافة لأنّها قديمة، وحديدها قوي، يُفترض بك ألّا تسوق بسيّارة كهذه، فهي خطر على السّيّارات الجديدة.

كانت جنّات تراقب ما يحصل، وفجأة أصيبت بذعر شديد، حين وجدت بأنّ الشّاب، الذي صدم عادل، إنّما يكون صديق هاني، وهنا

أدارت وجهها للأمام، واضعةً حقيبتها، بجانب وجهها، لكيلا يتعرّف عليها الشّاب، فيخبر هاني، الذي لن يتردّد للحظة، في قتلها.

- أتسمعون يا ناس؟ هذا المستهتر يدّعي بأنّ سيّارتي خطر، على المارّة، في حين لم يرَ بأنّه المذنب الأوّل، والأخير.

- ما بك؟ لا تقل لي بأنّك ستبكي، على هذه السّيّارة البالية؟

فشعر عادل بالغضب، بعد سماع هذا الكلام، ودنا من الشّاب، وأمسكه من قميصه بكلتا يديه، وهو ما لم يتقبّله الآخر، ممّا جعله يدافع عن نفسه، ليتجهّز للقتال، وكاد الأمر يصل للاشتباك بالأيدي، أمام النّاس، لولا أنّ صديق الشّاب اقترب منه، وهمس في أذنه:

- لا تُهوّل الأمر.. أعطه مبلغًا، ودعنا ننصرف، هناك سيّارة شرطة، في آخر الطّريق.

فنظر الشّاب للنّاحية، التي أشار لها صديقه، فرأى سيّارة شرطة، متوقّفة عند الطّريق، يطلّ منها شرطيّ، وينظر إليه، هو وعادل، فقال:

- اسمع، سأعطيك مبلغًا، لتصلح سيّارتك، فأنا عندي مشاغل.

فتنفّس عادل الصّعداء، حين سمع سيرة المال، أين قال للشّاب:

- حسنٌ.. لقد أشفقتُ عليك، وإن كانت سيّارتي لا تساوي كنوز الدّنيا، ولكنّني قبلتُ عرضك.

***

وقفت سارة تنتظر هاني، من بعيد، وبعد مدّة خرج العمّال، وكان من بينهم وردة، وجهينة اللّتان كانتا تسيران، مع هاني، وما إن رأته سارة

حتّى اقتربت، لتناديَ عليه، وهي تنظر للفتاتين باهتمام، واللّتين بادلتاها النّظر، بنفس الطّريقة، وخاصّة وردة، فأحسّ هاني بالارتباك، بمجرّد أن رآها، ثمّ قال لوردة:

- أراكِ غدًا إن شاء الله.

وسار باتّجاه سارة، التي بقيت تنظر لوردة، وجهينة بفضول، وغيرة في آن واحد، فأمسكها من ذراعها، ثمّ همس في أذنها:

- ما الذي جاء بك، ألم أقل لك، بأنّني لا أحبّ هذه التّصرّفات؟

ثمّ سار معها لسيّارته، وركب قبلها، وهمّه الوحيد هو ما يمكن أن تفكّر فيه وردة، كان ينظر لهذه الأخيرة، التي أكملت مسيرها، لسيّارة والدها، وهو يحدّث نفسه:

- ما هذه المصيبة، التي حلّت عليّ الآن؟ من المؤكّد بأنّ وردة قد شكّت في موضوعها.. طبعًا، وكيف لا تشكّ، وهي تراها تركب معي؟

ولحقت سارة به، لتركب السّيّارة، وهنا انطلق بسرعة البرق، والشّرر يتطاير من عينيه، فصاحت فيه:

- ما بك؟ أتريد أن تقتلنا؟

- اصمتي، أيّتها الغبيّة.. ما الذي جئتِ تفعلينه هنا؟

- ولمَ الغضب؟ أم إنّك تخاف على مشاعر البنتين؟

فسكت هاني، ولم يجبها، ولكنّ هذا لم يثنها، عن إعادة سؤالها:

- تكلّم، أم تُراك تعتقد بأنّني طيّبة، للحدّ الذي أتركك تمرح، مع غيري؟

وهنا ركن هاني سيّارته، عند زاويةٍ في الطّريق، وصاح فيها:

- ومن أنتِ لتتدخّلي في شؤوني؟ أم تُراكِ نسيتِ نفسك؟

- اسمع يا هاني، أنت وأنا نعلم جيّدًا بأنّ موضوعنا، أكبر من كونه، مجرّد صداقة، أو إعجاب، أم نسيتَ بأنّنا متزوّجان، في السّر؟ وقريبًا ستصبح أبًا.

فنظر هاني لها مستغربًا، وقد اتّسعت عيناه، من الدّهشة، ثمّ قال:

- ماذا؟ ما الذي تقولينه؟ أجننت؟

- كلّا، ولكن هذه هي النّتيجة، التي كان يجب أن تتوقّعها، قبل أن تخوض في علاقة لستَ أهلًا لها، لا تعتقد أنّي كغيري، ممّن ضحكتَ عليهنّ، بكلامك المعسول.

- غير معقول.. من المؤكّد بأنّكِ تمزحين!

- عليك أن تتزوّجني، بشكل رسمي الآن.

سكت هاني قليلًا، لكي يفكّر في المصيبة، التي أوقع نفسه فيها، بينما ظلّت سارة تتكلّم، بمنتهى العصبيّة.. إلى أن نطق هذا الأخير:

- انزلي من السّيّارة، قبل أن أرتكب فيكِ جريمة.

ولكنّها ظلّت في مكانها، تنظر له، فعاد ليصرخ فيها مجدّدًا:

- هيّاا..

***

بعد أن أخذ عادل المبلغ، الذي قدّمه له الشّاب، انطلق ليكمل جولته، برفقة جنّات، التي حمدت الله، على أنّ الشّاب لم يرها، وأنّ

المشكل قد انتهى، على هذا الشّكل، ظلّ عادل يجوب الشّوارِع، بتلك السّيّارة، التي سبّبت الإزعاج، لأصحاب السّيّارات الجديدة، والذين كانوا يحاولون تجنّبها، قدر الإمكان، كيلا يصطدموا بها.. وتوقّف بعد ذلك، عند محلٍّ لإصلاح الهواتف، ثمّ نزل، ودخل للمحل، وبعد مدّة خرج، ليبقى داخل السّيّارة، برفقة جنّات، التي سألته:

- هل سنبقى هنا كثيرًا؟

- سننتظر، ريثما يصلح لي صاحب المحل هاتفي، ونغادر.

فأطرقت جنّات صامتة، وكذلك عادل، لكنّ هذا الصّمت لم يدم، لوقتٍ طويل، فقد عاد عادل للحديث مجدّدًا:

- إلى متى سنظلّ هكذا يا جنّات؟

فنظرت له باستغراب، ثمّ قالت:

- لم أفهم.

- أقصد.. إلى متى سنتصرّف كاللّصوص؟ ونتقابل بهذا الشّكل؟

- سبق وأخبرتك، بأنّ أخي لم يعد يسهر كثيرًا، وبالتّالي لا يمكننا أن نلتقيَ إلّا نهارًا، وبهذه الطّريقة، فأنا لا أرغب في المشاكل.

- بصراحة.. لقد سئمت.

قال عادل كلامه، ثمّ أخرج سيجارة من جيبه، وأشعلها، ليضعها في فمه، ثمّ واصل الحديث:

- ما رأيكِ لو نتزوّج؟

- بصراحة، لا أظنّ بأنّ أبي سيوافق، ولا أمّي ستوافق هي الأخرى.

- موافقتهم ليست بالأمر المهمّ حاليًّا، لأنّهم لن يعرفوا.

فنظرت جنّات له مستغربة، ثمّ قالت:

- هل لك أن توضّح؟

ابتسم عادل، ولم يضف كلمة واحدة، بل ظلّ منشغلًا باستنشاق تلك السّيجارة، التي في يده، وهو يطلّ من النّافذة، لينظر للمارّة، الذين كانوا يمرّون من أمامه.

***

كان أبي يتحدّث مع أحد رجاله، في الهاتف، أين قال له:

- لا تتأخّر في أخذ السُّكر للمنزل.. حين تشتريه أبلغني، أفهمت؟

فقال الآخر:

- حاضر.. أيّ أوامر أخرى.. سيّدي؟

- حين أحتاجك سأكلّمك، المطلوب منك، هو القيام بالمهمّة، التي كلّفتك بها، على أكمل وجه.

لاحظ أبي أثناء حديثه، اهتمام عامله إلياس، بالاستماع لأطراف الحديث، ولكنّه لم يقل له أيّ كلمة، إلّا حين أنهى مكالمته.. وهنا قام من مكانه، بحذر شديد، واتّجه إلى حيث كان يقف إلياس، وقال له:

- ما بك؟ لما تقف عندك يا إلياس؟

فارتبك الشّاب، ثمّ ابتسم، في محاولة منه إخفاء توتّره، وقال:

- أوه، لا شيء، كنتُ أريد أن أسألك، إن كنتَ تريدُ أن تشرب فنجانًا، من الشّاي كالعادة، ولكن حين وجدتُك تتكلّم، في الهاتف، قرّرتُ أن أنسحب، لكيلا أزعجك.

فبقي أبي للحظات يركّز نظره فيه، ولكنّه لم ينطق بكلمة واحدة، حتّى ظنّ إلياس بأنّه قد شكّ، في شيء، ثمّ أشار له بيده، بأن ينصرف، وحرّك رأسه للأسفل والأعلى بعدها، وكأنّه لم يصدّق كلامه، فقد لاحظ بأنّه قد تغيّر منذ مدّة، ولم يعد ذاك الشّاب، الذي كان، بل أصبح أكبر همّه، هو الإنصات لما يقوله أبي لرجاله، أو لمن يكلّمهم في الهاتف، تذكّر أبي في هذه الأثناء، كلام صديقه، الذي نصحه بأن يحذر، لأنّه مراقب.. ولكنّه ما لبث أن عدل، عن تفكيره هذا (قائلًا):

- ولكن لِما كلّ هذا القلق؟ عليك طردُ هذه الوساوس، من رأسك يا سالم.. فإلياس من أحد أهمّ رجالي، وأقدمهم على الإطلاق، لا داعي لهذه الهواجس الآن.

***

- ضعي هذه الصّينيّة هنا.

كانت خالة نور تحدّث ابنتها، فتأمرها مرّة بأن تأخذ المزهريّة، وتضعها في إحدى زوايا الصّالون، وأخرى بأن تضع صحن الحلوى، فوق المائدة الوسطى، بالإضافة لصينيّة الشّاي، والقهوة، فتقول لها ابنتها:

- وقارورة الماء، أين أضعها يا أمّي؟

فتجيبها (متذمّرة):

- يا إلهي، هذه البنت لا تتعلّم أبدًا، ضعيها فوق المائدة الصّغيرة.

- ولِما لا أضعها فوق المائدة الوسطى؟ مع الحلوى، والعصير؟

- قلتُ لكِ ضعيها فوق المائدة الصّغرى، فهذه المائدة لا تكفي.

كانت خالة نور بالإضافة لحديثها، مع ابنتها، تقوم كذلك بتعديل وترتيب الأرائك، والأفرشة، فتغيّر هذه، وتنفض الغبار عن تلك، قبل أن تقول لأخت نور (بتذمّر):

- أما كان على أمّك، أن تنظّف الصّالون، قبل الآن؟ أم إنّكم لا تعرفون معنى النّظافة؟ أوه، ما هذا الغبار؟ أثاثكم مليءٌ بالغبار، يا إلهي.. لا أستطيع استنشاق كلّ هذا الغبار، عندي حساسيّة منه.

قالت كلامها، وهي تمرّر أصابعها، على الأريكة، لتلتقط بعض الغبار، بينما بقيت البنت تراقبها، في صمت، قبل أن تقرّر الذّهاب، آخر الأمر، مسرعة لأمّها، لتخبرها، بما قالته لها خالة نور، وما هي إلّا ثواني، حتّى جاءت برفقة أمّها، التي قالت لهذه الأخيرة، وقد سيطر عليها الغضب، حتّى بلغ أشُدّه:

- ما هذا الكلام الذي قلته للبنت؟ لا تنسيْ نفسك، أنتِ في بيتي، وعليكِ أن تكوني ضيفة مؤدّبة، وإلّا..

فقامت خالة نور من مكانها، لتترك ما في يدها، وقالت (بغضب):

- وإلّا ماذا؟

- أنت تعرفين بأنّكِ مجرّد ضيفة، فلا تكثري الكلام، وإن كانت ابنة أختك تهمّك، إلى هذه الدّرجة، فخذيها، واستقبلي ضيوفها، في بيتك، طالما أنّ بيتنا ليس نظيفًا، إلى هذا الحدّ.

فعادت خالة نور لتتكلّم، بنبرة أكثر حدّة، فتجيبها الثّانية، بنفس النّبرة، وكاد الأمر يصل للاشتباك بالأيدي، لولا تدخّل عمّة نور، التي خرجت، من غرفة هذه الأخيرة، مسرعة نحوهنّ (وهي تقول):

- ما بكما أنتما الاثنتان؟ أصواتكما وصلت لآخر الشّارع، أتريدان أن تفسدا على البنت فرحتها؟

فقالت زوجة أبي نور:

- قولي لها هذا الكلام، فمنذ مجيئها، وهي ترمي بالكلام لبناتي.

فعادت عمّة نور للحديث:

- أرجوكما.. دعونا نمضي اللّيلة على خير، وبعدها إن شئتما أن تتقاتلا، في ساحة الحيّ، فلا مانع عندي.. سيأتي الضّيوف بعد مدّة، لا أريد أن يحسّوا، بأنّ هناك سوء تفاهم بينكما، هل فهمتما؟

وعادت لغرفة نور، لتساعدها في وضع آخر اللّمسات، قبل أن يدقّ الباب، أين قامت خالة نور، لتفتحه، قبل أن تصل زوجة أبي نور إليه، والتي انزعجت من تصرّفاتها، لتغادر آخر الأمر، متجنّبة إثارة المشاكل معها، فهي على ما يبدو مصمّمة، على إزعاجها.. فتحت خالة نور الباب، لتجد أمّ حازم تقف خلفه، ومعها ابنتها، وأختها، فقالت:

- أهلًا، وسهلًا بأنسابنا الأعزّاء.

وطلبت منهنّ الدّخول للصّالون، وأمرت ابنتها، بأن تذهب، لتنادي لعمّة نور، لتأتيَ، وتستقبل أنساب ابنة أخيها، وهو ما كان بالفعل، وبعد مدّة من المجاملات، التي اعتاد النّاس قولها، في هذه المناسبات، قامت خالة نور، لتصبّ للضّيوف، القليل من الشّاي، بناءً على رغبتهم، دخلت في هذه الأثناء زوجة أبي نور، لتسلّم على الضّيوف، وجلست على مقربة من أمّ حازم، لتنهال عليها بالأسئلة، بدءًا بوظيفة ابنها حازم، لغاية قرار تقدّمه لخطبة نور، ممّا جعل هذه الأخيرة، تحسّ بالإحراج، فقالت لخالة نور:

- ولكن أين هي العروس؟

وهنا قامت عمّتها، لتستعجلها في المجيء، وما هي إلّا لحظات، حتّى جاءت نور، برفقة عمّتها، وبمجرّد أن رأتها أمّ حازم حتّى قالت:

- ما شاء الله.. أنتِ نور إذًا؟

وقامت، لتسلّم عليها، والدّنيا لا تسعها من الفرح، وتركتها، لتسلّم على باقي الضّيوف، وما إن انتهت من ذلك حتّى قالت لها:

- تعالي يا نور.. تعالي، لتجلسي إلى جانبي.

فتقدّمت نور نحوها باستحياء، فهذه المرّة الأولى، التي تحضر فيها لخطوبة، وليس هذا فحسب، بل هذه أوّل مرّة، يُسلّط عليها الضّوء فيها، وتتركّز نظرات الحاضرين عليها، هي دون غيرها.

- أخبرنا حازم عنك، ولكن لم نتوقّع بأن تكوني، بهذا الجمال.

قالت خالة حازم، ومدّت يدها، لتأخذ قطعة حلوى، فعقّبت خالة نور، على كلامها (قائلة):

- نور جميلة كأمّها، رحمها الله، فقد كانت الأجمل، في بيتنا.

فقالت خالة حازم (مستغربة):

- أوه.. كنت أظنّ بأنّ أمّها هي أنت.

ونظرت إلى زوجة أبي نور، ثمّ عادت لتقول:

- رحمة الله عليها.

فشعرت زوجة أبي نور بالضّيق، من هذا الإطراء، في حقّ ضرّتها، ولكنّها أخفت شعورها هذا، ورسمت ابتسامة عريضة، وقالت:

- لا.. أنا لستُ أمّها.

***

ظلّ هاني يتّصل بوردة، ولكنّها لم تردّ عليه، فشعر بالضّيق، من تجاهلها له، وقام من مكانه، متّجهًا للحمّام، ليستحم، ويزيل ما يحسّ به، من همٍّ أثقل كاهله.. فمنذ أن علم بموضوع حمل سارة، وهو يفكّر في الحلّ، الذي يخرجه من هذه الورطة، التي أوقع نفسه فيها.

أمسكتُ هاتفي في هذه الأثناء، وخاصّة أنّي قد وعدتُ هاني، بأن نلتقيَ اليوم، ولكنّه لم يكلّمني، ليذكّرني على الأقلّ، وهذا ما جعلني أحسّ بالقلق حياله.. انتظرتُ حتّى رنّ هاتفه، وما هي إلّا لحظات، حتّى خرج من الحمّام، على عجل، ليردّ على هاتفه، ظنًّا منه أنّها وردة،

ولكنّه شعر بإحباطٍ شديد، بمجرّد أن رأى اسمي، وبالرّغم من ذلك، فقد عاد ليتّصل بي، بعدها بلحظات:

- حامد.. كيف حالك؟

- بخير.. وأنت.. كيف هي أمورك؟

فردّ عليّ (ببرود، وفتور):

- أنا بخير.

فسألته عن سبب عدم اتّصاله بي، لنلتقي كما طلب منّي، فقال:

- أنا آسفٌ يا حامد، أعلم بأنّي قد أقلقتك، أكرّر اعتذاري.. فقد كنت مشغولًا اليوم، بما يكفي، لدرجة أنّي قد نسيتُ الموضوع تمامًا.

- لا عليك.. عمومًا إن احتجتني، فلا تتردّد في الاتّصال بي.

كان هذا آخر كلامي، لنفترق بعدها، وأغلقتُ هاتفي، لكي أتّجه لسريري، وأخلد للنّوم، أمّا هاني فعلى ما يبدو، بأنّه لم يقتنع بعد، بأنّ وردة لم تردّ على اتّصالاته، فحاول مرّة أخرى، ولكن دون جدوى، فقد كانت مُصرّة، على موقفها.

***

كانت جنّات في غرفتها، تفكّر في الاقتراح، الذي عرضه عليها عادل، وفجأة أحسّت بصداع، فهرعت لتلك العلبة، التي وضعتها على مقربة منها، فكانت كلّما أحسّت، بأنّ الصّداع سيعاودها، إلّا وتسرع إليها، لتستلّ قرصًا منها، وتتناوله بهدف القضاء عليه.. تناولت القرص،

واستلقت في فراشها، وما هي إلّا دقائق، حتّى أحسّت بالرّاحة والنّشوة، أين عادت لتفكّر، في كلام عادل (وهي تحدّث نفسها):

- تُرى هل كان عادل جادًّا، في كلامه؟ ماذا عساي أفعل الآن؟ هل أوافق على الزّواج منه، في السّر؟ ماذا لو علم أبي بهذا؟ ولكن من أين له أن يعرف بالموضوع؟ ثمّ إلى متى ستظلّين جبانة هكذا يا جنّات؟ حسنٌ.. سأنام الآن، لأفكّر في الموضوع، في وقتٍ لاحق.

***

دخلت أمّ وردة على ابنتها، لتجدها نائمة، فاقتربت منها، وقالت:

- وردة.. وردة، ألن تذهبي إلى العمل؟

فقالت وردة (من تحت الغطاء):

- لا.. لن أذهب.. أحسّ بصداع رهيب.

فخرجت أمّها، وأغلقت الباب وراءها، ثمّ اتّجهت للصّالون، حيث كان زوجها ينتظر، مجيء وردة، ليوصلها في طريقه للعمل، كما جرت العادة.. وما إن رآها حتّى سألها (مستغربًا):

- ألم تستيقظ وردة بعد؟ لقد تأخّرت.. لا يمكنني انتظارها أكثر.

- لا تنتظرها، فهي لن تذهب.

- ولكن لماذا؟ هل هي مريضة؟

- أجل.. إنّها تحسّ بصداع شديد.

فقام أبو وردة من مكانه، ليخرج، وقال بعد أن فتح الباب:

- خيرًا إن شاء الله.. إن احتجتِ لأيّ شيء، فاتّصلي بي، لأحضر معي، ما ينقصكِ من لوازم البيت، حين أنهي عملي.

***

بعد أن دخل العمّال للشّركة، ومن بينهم هاني، الذي كان ينظر، في كلّ الاتّجاهات، لعلّه يرى وردة، ولكن دون جدوى.. توجّه لمكتبه، وهو يشعر بالإحباط.. وبعد مضيّ نصف ساعة قام، واتّجه نحو مكتب وردة، ولكنّه لم يجدها، فنظر لصديقتها جهينة، ثمّ قال لها:

- صباح الخير.. ألم تأتِ زميلتكِ بعد؟

- أوه.. لا أعتقد بأنّها ستأتي اليوم.

سكت هاني لثوانٍ، قبل أن تسأله جهينة:

- إن كنتَ تحتاجها في أمر، يخصّ الشّغل، أستطيع أن أتّصل بها، وأخبرها الآن إن شئت.

- لا.. لا داعي لذلك.. شكرًا.

ثمّ انسحب، وعاد أدراجه، وفي طريقه للمكتب، لم يترك كلمة، تُستعمل للسّباب، أو الشّتم، إلّا وقالها لسارة في قلبه، كان يسير، وهو شارد الذّهن تمامًا، لدرجة أنّه لم يلاحظ الحارس، الذي كان قادمًا، باتّجاهه، هذا الحارس، الذي كان هو الآخر، يكلّم موظّفًا، طلب منه بأن يحضر له فنجان قهوة، حين ينتهي من التي في يده، وما إن أنهى كلامه مع الموظّف حتّى عاد ليلتفت، ويكمل طريقه، ليتفاجأ بهاني، الذي اصطدم به، فوقعت الصّينيّة على الأرض، بعدما انسكبت القهوة،

على قميص هاني، الذي عاد للخلف، بعد أن انتبه للحارس، أين أخذ يمسح قميصه، وهو يصرخ فيه، فتسمّر في مكانه، من الصّدمة، مرّ في هذه الأثناء موظّف، كانت بينه وبين هاني حساسيّة، فاستغلّ الموقف، وضحك لزميله، الذي كان يمشي معه، وقال:

- مسكين.. ماذا تُراه يفعل، بعد أن انسكبت القهوة، على قميصه؟

- لا تخف عليه، سيذهب لأمّه، لتغيّر له القميص.

وضحكا معًا، أمّا هاني فقد ثارت ثائرتُه، حين رآهما يضحكان، فنسيَ أمر قميصه، ولحق بالموظّف (قائلًا):

- ماذا قلت، أيّها الحيوان؟

ولم يترك له فرصة للدّفاع، عن نفسه، وانهال عليه ضربًا، وكأنّه في حرب، فتجمهر بعض الموظّفين، الذين كانوا على مقربة، من الحادثة، من المارّة في الرّواق، أو من أولئك الذين تقع مكاتبهم، بالرّواق نفسه، الذي يتواجد فيه هاني، وقف البعض منهم، واكتفوا بدور المتفرّج، أمّا القلّة فقد حاولوا فضّ هذا العراك.

في هذه الأثناء ركض موظّف، لمكتب خال هاني، ودخل ليبلغه بالموضوع، ليترك هذا الأخير شغله، ويلحق به، قبل أن يرتكب حماقة، تؤدّي به للفصل، بل والطّرد من الشّركة، فلطالما توعّده أبي بذلك، إن ارتكب أيّ حماقة جديدة.. وما إن وصل حتّى وجد بعض الموظّفين، يمسكون بهاني، وآخرين يمسكون بالشّاب، في محاولة منهم لتهدئة الأوضاع، وهنا اقترب خاله منه، وأمسكه من ذراعه، ليسحبه معه، ثمّ

طلب من الباقي، بأن يعودوا لمكاتبهم، وبعد أن دخل خال هاني، ومعه هذا الأخير لمكتبه، صاح فيه:

- إلى متى ستظلّ أرعن هكذا؟ ألا يمكنك أن تتحكّم في مشاعرك، ولو لمرّة واحدة؟

فنظر هاني لخاله، وقبل أن يجيبه عن السّبب، الذي جعله يتشاجر مع الشّاب، قال خاله (مقاطعًا إيّاه):

- لا أريد أن أسمع كلمة.. خذ هذه المناديل، وامسح قميصك، وحاول أن تعدّل من شعرك، وثيابك.. فمنظرك يبعث على الشّفقة.

***

كانت وردة جالسة، أمام الحاسوب، تتصفّح بعض المواقع، وإذْ بأختها تدخل، لتجدها منهمكة في البحث، وبعد أن جلست، سألتها:

- لِما لم تذهبي للشّغل؟ أخبرتني أمّي، بأنّ رأسكِ يؤلمك، ولكنّني أراكِ بخير، على ما يبدو.

- لن أذهب للشّغل مجدّدًا، قرّرتُ أن أتفرّغ للرّسم فقط.

فقالت أختها، مستغربة سرّ تغييرها لرأيها، بهذا الشّكل المفاجئ:

- منذ يومين فقط، قلتِ بأنّكِ سعيدة جدًّا.. ما الذي تغيّر الآن؟

فتأفّفت وردة، ثمّ قالت:

- هكذا.

- هل لهاني علاقة بقراركِ هذا؟

وهنا سكتت وردة، فعادت أختها للحديث مرّة أخرى:

- من الواضح بأنّ له يدًا، في جعلكِ تقرّرين هذا القرار، أخبريني.. ماذا فعل هذه المرّة؟

فأغلقت الحاسوب، ثمّ التفتت لأختها، وقالت:

- بالأمس ركبتْ معه فتاة، في سيّارته، ولا أظنّها أخته، أو قريبته.

- وهذا ما أزعجك، أليس كذلك؟

- بالطّبع.

- ولكنّكِ أخبرتني، بأنّه قد تعرّف على كثيرات، وأنّه هو من أخبركِ بذلك.

- أجل.

- إذًا هو لم يكذب عليك، ومع ذلك بقيتِ معه.

- ولكن هذا كان قبل أن أتعرّف عليه.. أمّا أن يكون مع فتاة، وفي نفس الوقت معي، فهذا ما لا أرضاه أبدًا.

- اشربي هذا الشّاي، ودعكِ منه.. أريد أن أكلّمك، في موضوع.

***

كان العمّ مروان يمسك بمسدّس، ويدقّق النّظر، في لوحة مقابلة، رُسم عليها دائرة كبيرة، وفي وسطها دائرة صغيرة، فصوّب مسدّسه، وأطلق النار، فأصابت الرّصاصة الدّائرة الكبيرة، ولكنّها كانت بعيدة نوعًا ما، عن الدّائرة الصغيرة، التي تقع بقلبها، فرفع يده، وصوّب المسدّس، ليعيد الكرّة، قبل أن يرنّ هاتفه، فأخرجه من جيبه، وردّ بعد أن عرف المتّصل (قائلًا):

- ألو.. ما الأخبار؟

فأخبره المتّصل ببعض الأمور، التي تتعلّق بأبي، وعن آخر عمليّة، سيقوم بها، وأعطاه التّوقيت، والمكان الذي تمّ تحديده، لالتقاء رجاله، بمن سيشترون البضاعة.. فقال العمّ مروان (وهو يبتسم):

- جميل.. جميل.

وأغلق هاتفه، والدّنيا لا تسعه من السّعادة، وعاد ليصوّب مسدّسه، مرّة أخرى (وهو يقول):

- حانت الفرصة، لأنتقم منك، أعدك بأنّني سأكون أكرم منك.

***

- ألم تخبري أبي، عن جمال خطيبة حازم يا أمّي؟

تقول أخت حازم، بعد أن حملت الصّحن، الذي أمامها، ووضعت فيه القليل من السّلطة، ثمّ قدّمته لوالدها، الذي شكرها (قائلًا):

- بوركتِ يا ابنتي.. هاه.. يا أمّ حازم، لم تخبرينا عن أنسابنا بعد؟

- بصراحة.. هم أناس طيّبون، ومحترمون، وابنتهم متعلّمة، بالإضافة لأنّها جميلة جدًّا.

ثمّ سكتت قليلًا، قبل أن تضيف:

- ولكن.. أما كان عليك أن تتريّث قليلًا، قبل أن تتّخذ هذا القرار؟

فقاطعها حازم (بغضب):

- أرجوكِ يا أمّي، أن تكفّي عن هذا الموشّح.

وهنا عاد والده ليتدخّل (قائلًا):

- دعيه يختار شريكة حياته، ولا ترغميه على فتاة، لا يريدها.

- ولكن ماذا ستقول أختي، إن علمت بموضوع الخطبة؟

- دعيها تقول ما تشاء يا أمّي، لقد فسختُ خطبتي من ابنتها، منذ أكثر من سنة، ثمّ إنّي لم أكن أريدها أصلًا، أنتِ التي زيّنتِها لي، وقلتِ بأنّها خلوقة، ومؤدّبة، لأكتشف عكس ذلك.

سكت حازم قليلًا، ثمّ عاد ليستأنف الحديث:

- لقد حدّدتُ موعدًا، مع أبي نور، هذا المساء، سأذهب مع أبي، لنقابله، رجاءً.. لا تعودي للموضوع مجدّدًا، فأنا لا أصدّقُ متى أجتمع معكم، على مائدة واحدة، فلا تسدّي نفسي عن الأكل.

***

كانت أمّي تلاعب فراس، وفارس، قبل أن يقتحم عليها، زوج فلّة المنزل، فقالت له (مستغربة):

- كيف دخلت إلى هنا؟

- أخبرتُ الحارس بأنّني قريبكم، وحين اجتزتُ الحديقة، وجدتُ باب البيت مفتوحًا، فدخلت.

- تفضّل بالجلوس.. ريثما أنادي لفلّة.

- لم آتِ لأراها.. جئتُ لآخذ أولادي.

- ماذا؟ ماذا قلت؟

- كما سمعت، جئتُ لآخذ أولادي.

ثمّ اقترب من فارس، وفراس، وأمسكهما من ذراعيهما، واتّجه بهما ناحية الباب، وهنا بدأت أمّي بالصّراخ، بشكل لا إرادي، ثمّ أخذت تنادي على الحرس، ليساعدوها.. نزلت فلّة، حين سمعت صراخ أمّي، واتّجهت لزوجها، أين أمسكته من قميصه، محاولة ثنيه عن مسعاه، في الحقيقة، لم تكن وحدها، من قام بذلك، فقد أسرعت إليها الخادمة، لتساعدها، وتعالت الأصوات، بالإضافة لبكاء الطّفلين اللّذين لم يفهما شيئًا، ممّا حصل.. صرخت فلّة في زوجها (قائلة):

- اتركهما، أيّها الأحمق، لن تأخذهما، لو كلّفني الأمر حياتي.

- ابتعدي.. وإلّا ضربتك، أيّتها..

وهنا أسرع الحارس، وحاول هو الآخر إبعاد هشام، عن الطّفلين، وبتدخّله استطاع أن يرجّح الكفّة، لصالح فلّة أخيرًا، وذلك بأن لكمه، في وجهه لكمة، جعلته يترك الطّفلين، من شدّة إحساسه بالألم، وهنا أمسكتهما فلّة، لتبعدهما عن زوجها، ممّا أثار حفيظة هذا الأخير، فقام بإمساك الحارس، من قميصه، وصرخ فيه (قائلًا):

- أترفع يدك عليّ، أيّها الحقير؟

كان خالد قد وصل في هذه الأثناء، أين نزل من سيّارته، ودخل للمنزل، ليسمع الصّراخ، نظر فوجد أمّه، وفلّة والأولاد والخادمة يقفون، وهم ينظرون لهشام، الذي كان يتعارك مع الحارس، فركض باتّجاه هذا الأخير، وحاول إبعاده عن هشام، ثمّ صاح (قائلًا):

- ماذا هناك؟ ما الذي يجري هنا؟ أخبراني أنتما الاثنان؟

فقال الحارس (وهو يمسح العرق من على جبينه):

- هذا المحترم تهجّم علينا، وحاول أخْذ الطّفلين، فتدخّلتُ لمنعه.

فاتّسعت عينا خالد، الذي اقترب من هشام، وأمسكه من قميصه، وركّز نظراته، في عينَيْ هذا الأخير، ثمّ قال (والشّرر يتطاير من عينيه):

- أبلغت بك الوقاحة، أن تتطاول على أمّي، وأختي، وتستغلّ عدم وجود أيّ رجل، لتخطف الأطفال؟ اسمع، لديك خمس دقائق، لتخرج من هذا الباب، وإلّا فسأشوّه وجهك، الجميل هذا، وأرسم لك عاهة، تبقى معك مدى الحياة.. هيّاا..

ثمّ أرخى قبضته، وأبعد يديه، من على قميص هشام، لكنّه لم يبعد عينيه، من عليه، بل أخرج من جيبه مسدّسًا، وأشهره في وجهه، وهنا تراجع هشام للوراء، وقال:

- أتهدّدني يا خالد؟

- أنا لا أهدّد.. بل أنفّذ، أمامك ثلاث دقائق.. ولا تنس بأنّك قد اعتديت علينا، في بيتنا، وما دام القانون في صالحي، فلن أتوانى في تشويه وجهك، هذا إن لم أقتلك، حتّى تتعلّم بأنّ للبيوت أصولها.

وهنا انسحب هشام، متّجهًا نحو الباب، ثمّ التفت لخالد، وقال:

- أعدك بأنّني سآخذ الأطفال يا خالد، وأعدك بأنّك ستدفع ثمن كلامك هذا غاليًا.

ثمّ انصرف، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، أمّا خالد فقد أسرع ليغلق الباب، خلفه بقوّة، وقال:

- الجبان.. استغلّ عدم وجود أيّ رجل، في البيت، ليخيف النّساء، والأطفال، أيّ رجل هذا، الذي يتلذّذ بإخافة الأطفال، والنّساء؟

أسرعت أمّي في هذه الأثناء، لتُطمئن الطّفلين، اللّذين لم يكفّا عن البكاء (قائلة):

- لا تخافا.. لن يأخذكما، إلى أيّ مكان.

ثمّ نادت على فلّة، التي كانت ما تزال واقفة، في مكانها (قائلة):

- فلّة.. خذي فارس، وفراس إلى فوق.. هيّا.. لا تقفي هكذا.

ثمّ التفتت للخادمة، والحارس، وقالت لهما:

- لا تخبرا سالم بما حصل اليوم، هل فهمتما؟

فأومآ بنعم، ثمّ انصرفا، وانصرف خالد لغرفته، أمّا أمّي فقد بقيت، في مكانها، وراحت تفكّر، في كلّ ما حصل، وما يمكن أن يحصل، لو علم أبي بالأمر.. فتنهّدت، وقالت في نفسها:

- الحمد لله أنّ المسألة قد انتهت، على هذا النّحو.. يا ربّ.. أبعد عن أولادي كلّ سوء، يتربّص بهم، واحفظهم بحفظك.

يُتبع..

وبعد لحظات من التردد والحيرة سرت برفقة العم رشيد إلى حيث يوجد أبي، لنتفاجأ بعدد من الناس مجتمعين حوله، يهنؤونه بعودته سالما، سرت بخطى متثاقلة حتى تراءى لي خيال أبي، هو أبي نفسه، فقط أصيب ببعض الهزال، استدار نحوي ورمقني بنظرات اختلطت فيها مشاعره بين الفرح والحزن لدرجة دمعت معها عيناه.

ترى ما الذي سيحصل بعد الآن، وقد عاد أبي، وبعودته يعود كل الأشرار الذين سيفعلون المستحيل ليحققوا ما لم يستطيعوا تحقيقه من قبل، خاصة زوجة أبي التي ستحاول التأثير على هذا الأخير، ليكتب كل شيء باسم ابنها، حتى لا يبقى لنا بعد ذلك سوى الفتات، هذا إن بقي شيء أصلا.

أفق أنت تحلم

تصميم الغلاف:
ساخر أحمد

9 789931 243908

أدليس بلّزمة
للنشر والتوزيع